عمرو بن بحر الجاحظ

عصره:

كان عصر الجاحظ عصر استقرار وازدهار، ثبتت قواعد الدولة العباسية على عهد الرشيد وابنيه المأمون والمعتصم، واطردت سياستها، وخيف سلطانها، وعظم شأنها، ولم يكدر صفاء تلك الحقبة غير الحرب التي نشبت بين الأمين والمأمون، للنزاع على ولاية العهد، فسالت الدماء في خراسان والعراق، وأنفق الأمين الأموال، حتى إذا استقل أخوه المأمون بالخلافة، عادت الأمور إلى مجراها الأول في عهد الرشيد وأبيه المهدي وأخيه الهادي، ثم اختلت الدولة بعد عهد الواثق، فقتل المتوكل والمستعين والمعتز من خلفائهم.

وكانت العلائق السياسية بين ملوك العباسيين وملوك غربي أوربا مثل (شارلمان وبيبن) على غاية الوئام، يتبادل العباسيون مع ملوك الإفرنج السفراء والهدايا، ويريد بنو العباس من هذا التلطف على الغالب أن يقف الإفرنج بالمرصاد لدولة الأندلس. أما دولة روم القسطنطينية، فكانت في بلاءٍ من جيش بني العباس إلى زمن الواثق، يغزوها في الأحايين فيفظر ويغنم، حتى اضطرت أن تؤدي للعباسيين جزية سنوية.

وعرف الرشيد أن دولة الأمويين في الأندلس أخذت كدولته تعرج معارج الحضارة، وتأخذ من كل وجه بأسباب القوة، فحاذر تقدمها نحو بلاده، ورأى أن يقيم أمامها حاجزًا في إفريقية من دولة الأغالبة، فمنح هذه شبه استقلال، وقام بعض العلويين وغيرهم على عهد الرشيد، فقاتلهم بجزءٍ من جيشه، فأيقنوا أن لا

سبيل إلى تحقيق رغائبهم في قلب أوضاع الدولة، وعادوا بما لاقوا من الجدّ في استئصالهم يعتصمون بالتقية، وأرجأ بقايا السيوف منهم بثّ دعوتهم جهرةً إلى الوقت المناسب.

وأهم ما تم من الخير للعلم بعد القضاء على الزنادقة على عهد المهدي، وتقطيع كتبهم كتقطيع أوصالهم، استمتاع أرباب العقول بحرياتهم، فأنشئوا يفكّرون على ما يشاءون في نطاق الإسلام، لا يخرجون عن رُخصه وعزائمه، وكثر الباحثون والدارسون، وأخذ الخلفاء والأمراء بأيدي من أتقنوا فنهم وعلمهم، واشتد الغرام بنقل العلوم المادية اشتداده في تدوين العلوم الدينية، وفي هذا الزمن نبغ عظماء في علوم الدين، وعظماء في علوم الدنيا، وعظماء في الآداب والفنون، وعظماء في الحرب والسياسة، وكان كل من تفرَّد بضرب من ضروب العلم والأدب يلقى من الخلفاء على الأكثر أنواع التجلّة والإكرام، ويخلع عليه كل جميل.

وفي هذا الدور نبغ أئمة المذاهب الأربعة التي وقع الاكتفاء بها عند أهل السنة، ودوّن مذهب مالك وأبي حنفية وغيرهما، وتم تدوين الحديث وتدوين اللغة والشعر، وكثر عظماء القرّاء، وزاد عدد النقلة من الفارسية والسريانية واليونانية، وراجت الوراقة رواجًا عظيمًا، لما بدأ الملوك يجمعون خزائن كتب في قصورهم، ويقيمون دُور الحكمة في عاصمة الخلافة، وعَلق الأمراء وعِلية الأمة يتنافسون في اقتفاء آثار خلفائهم في خدمة الآداب، يُحَظُون ويُعْطُون كل من ينقل لهم ضربًا جديدًا من المعارف. وبعد أن كانت البصرة والكوفة مستأثرتين بالحركة العلمية، شاركتهما بغداد بهذا الشرف، ثم أربت عليهما منذ وافاها أهل الفضل من الأمصار، فما هي إلا أعوام قليلة حتى أصبحت بغداد مدينة علم، وكان من قبل مدينة ملك، بما نُقل من صنوف العلم إلى الخلفاء وأتباعهم.

وأيقن أرباب البصائر أن الدنيا لا تأتي من غير طريق الكفاية، وأن (كل عز لم يؤكد بعلم فإلى ذل يئول) فأكبوا على التأدب، وحرص أرباب اليسار على تثقيف أبنائهم، وكان إذا تفرس رب البيت في ولده ذكاءً جاءه بالمؤدبين يلقنونه ما تشتهي نفسه من الآداب، ولذا أصبح التعليم صناعة، وحسن عيش المؤدبين؛ وغدا التأديب أيضًا طريقًا إلى المجد والسؤدد، على ما أمست منادمة الملوك والأمراء صناعة برأسها؛ وقد يبلغ سلطان النديم في قصور العظماء ما لا يبلغه سلطان الوزراء والكتّاب، وهو ابن الخَلوة والجَلوة، والمؤتمن على الحُرَم والأسرار.

عمرت مجالس العلم والأدب، وأمست دور الكبراء مثابة المفَنِّين والإخصائيين، يغشاها أرباب الأفكار، وحملة الآثار والأشعار؛ والعهد بعلماء البصرة يختلفون إلى المسجد والمِرْبد، وكان المسجديون والمربديون جماعًا من شعب الأدب والرواية؛ والعهد بالكوفة يختلف المنورون من بنيها إلى الكُناسة مجمع الشعراء والأدباء، ومسجدهم مجمع علمائهم، ومغنى قرائهم، والمنافسة بين المصرين -الكوفة والبصرة- في الفقه والحديث واللغة والنحو والتصريف مشهورة مذكورة، وبغداد تنعقد مجالسها، وتغص مساجدها بأرباب العقول وحفدة الشريعة، وقادة الفكر، وشعراء الحضارة، وأمراء البلاغة.

وهناك مجالس اللهو يعرض فيها الموسيقاريون والمغنون فنهم، ويتبارى أرباب النعيم والرفاهية في اقتناء المسْمِعات والقيْنات، وعدت الجارية التي تجد من نفسها طبيعة مؤاتية في هذا الفن، توفر على إتقانه، وتلْقَف ما يستلزم فيها من أدب وشعر، فجاء منهن أديبات وشاعرات، وغدا لكل قريحة قيمة، ولكل أدب خُطّاب، والناس يتمززون طعم الحياة، وينعمون بمباهجها؛ وأصبح المسلمون ولا سيما أهل الدولة ومن والاهم بعيدين عن حياة التزمت والتخافت بُعْدَهم عن الأمية، وراحوا

يحضرون مجالس الغناء على تصوّن وتعفف غالبًا، وخف الإنكار على من عرفوا بهذا الشأن، وأنشأت معظم الطبقات تألف ذلك من غير نكير.

وأثارت الرعية الأرض وعَمَروها، ففاضت الثروة، وامتلأت خزائن الدولة بالأموال، وزاد العمران، وجدَّ كل عامل في ناحيته أن ينفق جانبًا من الجباية على ما يزيد في ريع بلده ونمائه، وغدا غرام معظم الخلفاء بتنظيم أمور الرعية، يوازي غرامهم في دفع كل معتد على سلطانهم.

وكانت البصرة ميناء العراق الأكبر من أعظم ما تكون عليه الفُرَض البحرية في الدول العظمى، تبادل تجارة بلاد العرب مع موانى المحيط الهندي حتى الصين، ويغشاها أصناف من شعوب الشرق في آسيا وإفريقية؛ والبصري كالحميري مشهور بأسفاره ومغامراته، وأصبح البحر الرومي بحرًا عربيًّا، وتراجع الروم إلى موانى بلادهم، وغدا السلطان الأكبر فيه لأساطيل مصر والشام وإفريقية والأندلس، واعتزلت شعوب جنوبي أوربا في موانيها لا يبحر لها سفين، ولا تحمل لهم بضاعة؛ والعرب بما عرف من مرانهم على التجارة يتولون كبرها في البر والبحر، والزراعة والصناعة على الأعم الأغلب في أيدي أبناء الذمة من السريان والعجم والقبط والبربر وغيرهم، وتعينت حدود الاختصاص بالصناعات اليدوية والعلمية، وقلَّ في الناس المتشائمون وكثر المترفون.

كُتب الرواج في هذا العصر لكل صناعة ولكل بضاعة، واستوت شعوب المملكة العباسية أمة ذات حضارة مقررة، وربة شخصية ظاهرة؛ وكان حظ الجميع سواءً في الاستمتاع بالأمَنَة والسلامة، وعلى قدر كفاية الكفء، وإخلاص المخلص للدولة، يَخْلُص الناس إلى المراتب والمناصب، وعلى نسبة عمل العاملين في صنوف الأعمال يغتنون ويسعدون، لا يخاف الناس إلا أنفسهم، ولا يُلْزَمون أن يقدموا

حسابهم لغير ديّانهم وسلطانهم،؛ فحضارة هذا العهد حضارة صقلها الإسلام والعربية، واشترك في خدمتها أهل كل نحلة وملة، ووقف كل امرئ عند حده، ليس له أن ينكر على من يناقش إلا ببرهان، وقلما تعدى حِجاج المتجادلين أبواب المجامع والجوامع والمجالس الخاصة، وصفحات الأسفار والرسائل؛ فهذا العصر هو خير عصور بني العباس على الناس، وفيه سَعِدَ العلم، وسعدت البلاغة بنبوغ الجاحظ.

نشأته ونعمته:

هو عمرو بن بحر بن محبوب الكناني الليثي، من بني كنانة بن خُزَيمة، والد النضر أبي قريش، وبنو كنانة بطن من مضر يقال لهم: كنانة طلحة، والليثي نسبة إلى الليث بن بكر بن عبد مَناة بن كنانة بن خُزيمة بن مُدْركة، وإلى هذه القبيلة ينتسب أبو عثمان الجاحظ، وقيل: إنه كان مولى أبي القَلَمَّس عمرو بن قِلَع الكناني ثم الفُقيمي. فهو كناني صليبة خالص النسب، وكان جده فزارة أسود اللون، وكان جمالًا لعمرو بن قلع، وأُطلق على عمرو اسم «الجاحظ» لنتوء عينيه، ويقال له: «الحَدَقي» لذلك، وكان مشوَّه الخلقة، فكأن ما نقص من صورته استوفاه من ذكائه وعقله.

ولد في البصرة حوالي سنة ستين ومائة، وتوفي والده وهو طفل، فلما ترعرع تعلم الخط والقراءة في أحد كتاتيب بلده، وأخذ مذ كان يافعًا يلقى الفصاحة شفاهًا عن العرب في المِرْبد، وكان المربد أشهر محالّ البصرة، وبه كانت في الإسلام مفاخرات الشعراء ومجالس الخطباء، على مثال سوق عُكاظ بين نَخْلة والطائف في الجاهلية. واتصل بعظماء في الدين والآداب، مثل: الأصمعي، وأبي زيد الأنصاري، وأبي عبيدة مَعْمَر بن المثنَّى، والأخفش، والنظّام إبراهيم بن سيار البلخي، وصالح

بن جناح اللَّخْمي. أخذ اللغة والأدب عن الثلاثة الأولين، والنحو عن الأخفش، والكلام عن النظام، والحكمة عن ابن جناح.

وحدَّث عن ثُمامة بن أشرس النميري المتكلم، ويزيد بن هارون، والسري بن عبدويه، والقاضي أبي يوسف يعقوب بن إبراهيم، والحجاج بن محمد بن حماد بن سلمة. وروى عنه أبو بكر عبد الله بن أبي داود السجستاني، ومحمد بن عبد الله بن أبي الدهاب، ودعامة بن الجهم، وأبو سعيد الحسن بن علي العدوي، وأبو العباس محمد بن يزيد المبرد، ويموت بن المزرَّع، وأبو العيناء محمد بن القاسم. وقال عن نفسه: إنه جلس إلى أبي عبيدة والأصمعي ويحيى بن بجيم وأبي مالك وعمرو بن كركرة مع من جالس من رواة البغداديين.

أولئك الذين عرفوا ممن أخذ الجاحظ عنهم ومنهم نَجَم، وهؤلاء الذين أخذوا عنه الحديث وغيره، فكان له في كل حلقة من حلاق البصرة متنفس. وإذا نظرنا في اختصاص أساتيذ الجاحظ من غير المحدثين، نرى الأصمعي ممن جمع شتيت اللغة في الشجر والنبات والإبل والشاء والوحوش وغير ذلك، وقالوا: إنه كان يحفظ ثلث اللغة كما كان الخليل يحفظ نصفها وابن كركرة يحفظها كلها. وصنف أبو عبيدة في البازي والحمام والعقارب والحيات والزرع (وكان الغريب أغلب عليه وأخبار العرب وأيامهم)، وكان يرى رأي الخوارج، ووصفه تلميذه بأنه لم يكن في الأرض خارجي ولا جماعي أعلم بجميع العلوم منه. وألف أبو زيد الأنصاري في القوس والترس والقضيب والإبل والوحوش، وخلق الإنسان والمطر والنبات، وكان هؤلاء الثلاثة في عصرهم (أئمة الناس في اللغة والشعر وعلوم العرب، لم ير قبلهم ولا بعدهم مثلهم، عنهم أخذ جلُّ ما في أيدي الناس من هذا العلم بل كله). كان الأخفش الأوسط من أعلم الناس بالنحو والتصريف، وصالح بن جناح كان ممن

أدرك التابعين، وكلامه مستفاد في الحكمة كما قال ابن عساكر، أخذ عنه الجاحظ في نيسابور؛ أما النظّام، شيخ المعتزلة وإمام الأئمة، فقد كان من جملة ما يحفظ القرآن والتوراة والإنجيل والزبور وتفسيرها، مع كثرة حفظه الأشعار والأخبار واختلاف الناس في الفتيا، وقد وصفه الجاحظ بقوله: إن الأوائل يقولون في كل ألف سنة رجل لا نظير له، فإن كان ذلك صحيحًا فهو أبو إسحاق النظام. وقال: إنه ما رأى أحدًا أعلم بالكلام والفقه منه. وقال عن نفسه: إنه وجد عند أدباء الكتاب كابن وهب وابن الزيات ما لم يجده عند مشايخه الذين أخذ عنهم الشعر والأدب، وبهم عرف ماهية الشعر، وقام بحق الأدب والكتابة.

هذه أوجه الدراسة التي وجهت إليها مدارك الجاحظ، وهؤلاء أشهر أساتذته. أحكم فنون الأدب والأخبار واللغة والكلام والحكمة؛ أي تثقف بالثقافة الراقية لعهده، وزاد على هذه العلوم النظرية أنه أعمل فكره فيما تعلم، وحلل المسميات كما تعلم الأسماء، واتسع عقله للاشتغال بمسائل مهمة من الدين، فكان صاحب بمذهب وأتباع، والغالب أنه كان يعرف الفارسية، وكان مولعًا بالكتب، يكثر الاختلاف إلى الوراقين في البصرة وبغداد، يقضي في حوانيتهم ساعات (حدث أبو هفان قال: لم أرَ قط ولا سمعت من أحب الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ فإنه لم يقع بيده كتاب قط إلا استوفى قراءته كائنًا ما كان، حتى إنه كان يكتري دكاكين الوراقين ويبيت فيها للنظر) وله ورّاق خاص.

روى الخطيب البغدادي عن محمد بن سليمان الجوهري قال: كنا نصحب الجاحظ على سائر أحواله من جد وهزل، قال: فخرجنا يومًا لنزهة، فبينا نحن على باب جامع البصرة ننظر شيئًا أردناه، إذ عارضت امرأة معها أوراقٌ مقطعة، فعرضت ذلك علينا فلم نجد فيها طائلًا، فتركناها وانصرفنا، وتختلف معها الجاحظ ونحن

ننتظره فأطال، ثم رأيناه قد وزن لها شيئًا، وأخذ الأوراق وقال: انتظروني، ومضى بها إلى منزله؛ فلما عاد أخذنا نهزأ به، ويقول: فزت بقطعة من العلم وافرة، وضحكنا، فقال: أنتم حمقى والله، إن فيها ما لا يوجد إلا فيها، ولكنكم جُهَّال لا تعرفون النفيس من الخسيس.

نشأ الجاحظ من أبوين فقيرين، قيل: إنه رئي بسيحان أحد أنهار البصرة يبيع الخبز والسمك في صباه، وقيل: إن أمه كانت تمونه في حداثته، فجاءته يومًا بطبق عليه كراريس، فقال: ما هذا؟ قالت: هذا الذي تجيء به. فخرج مغتمًّا وجلس في الجامع، ويونس بن عمران[1] جالس، فلما رآه مغتمًّا، قال له: ما شأنك؟ فحدثه الحديث، فأدخله المنزل، وقرَّب إليه الطعام، وأعطاه خمسين دينارًا، فدخل السوق واشترى الدقيق وغيره، وحمله الحمالون إلى داره، فأنكرت الأم ذلك، قالت: من أين لك هذا؟ قال: من الكراريس التي قدَّمتها إليَّ.

وظل رزق الجاحظ غيبيًّا في شبابه، واتسع في الكهولة عقبى تأليفه كتاب العباسية للمأمون، وعلى عهده تصدر في ديوان الرسائل ببغداد ثلاثة أيام، ثم استعفى فأُعفي؛ وكان سهل بن هارون يقول: إن ثبت الجاحظ في هذا الديوان أفل نجم الكُتَّاب. واتصل بابن الزيات الوزير على عهد المعتصم فأقطعه أربعمائة جريب، وكتب إليه مرة زمن المتوكل: «إن أمير المؤمنين يجِد[2] بك، ويهش عند ذكرك، ولولا عظمتك في نفسه لعلمك ومعرفتك، لحال بينك وبين بُعدك عن مجلسه، ولغصبك رأيك وتدبيرك فيما أنت مشغول به ومتوفر عليه» ثم حثه على الفراغ من كتاب الرد

(١) يقول ياقوت: إن زيادان ناحية ونهر بالبصرة منسوبة إلى زياد مولى بني الهجيم جد يونس بن عمران بن عمران بن جميع بن بشار بن زياد.

(٢) وجد وجدًا في الحب فقط وكذا في الحزن لكن يكسر ماضيه (القاموس).

على النصارى والتعجيل به إليه، وقال: «وتنال مشاهرتك، وقد استطلقته لما مضى، واستسلفته لك، لسنة كاملة مستقبلة».

والظاهر أن أداء الرواتب كان يتأخر في بعض الأيام، حتى قال الجاحظ في أبي الفرج نجاح بن سلمة الكاتب -وكان على الأموال زمن الواثق والمتوكل، وإليه أهدى رسالته في امتحان عقول الأولياء ورسالته في الكرم- هذه القصيدة:

أقام بدار الخفض راضٍ بخفضه ... وذو الحزم يسري حين لا أحد يسري
يظن الرضا شيئًا يسيرًا مُهوَّنًا ... ودون الرضا كأس أمرُّ من الصبر
سواءٌ على الأيام صاحب حنكة ... وآخر كاب لا يريش ولا يبري
خضعت لبعض القوم أرجو نواله ... وقد كنت لا أُعطي الدنية[1] بالقسر
فلما رأيت القوم يبذل بِشره ... ويجعل حسن البشر واقية الوفر
ربَعْت على ظلعي[2] وراجعت منزلي ... فصرت حليفًا للدراسة والفكر
وشاورت إخواني فقال حليمهم ... عليك الفتى المريّ ذا الخلق الغمر
أُعيذك بالرحمن من قول شامت ... (أبو الفرج المأمول يزهد في عمرو)
ولو كان فيه راغبًا لرأيته ... كما كان دهرًا في الرخاء وفي اليسر
أخاف عليك العين من كل حاسد ... وذو الود منخوب[3] الفؤاد من الذعر
فإن ترع ودي بالقبول فأهله ... ولا يعرف الأقدار غير ذوي القدر

ولما اشتهر أمر الجاحظ أمسى يعيش من الهدايا والعطايا التي تنهال عليه من العظماء وأرباب الدولة، ممن يؤلف بعض كتبه لهم ويحليها بأسمائهم، حتى لقد سأله أحدهم مرة إذا كان له بالبصرة ضيعة، فتبسم وقال: إنما أنا وجارية، وجارية تخدمها،

---

(١) في الحديث: علام نعطي الدنية في ديننا؛ أي الخصلة المذمومة.

(٢) من المجاز: «إرق على ظلعك»، أي: ارفق بنفسك، واربع على نفسك: تمكث وانتظر.

(٣) المنخوب: الذاهب اللحم المهزول.

وخادم وحمار: أهديت كتاب الحيوان إلى محمد بن عبد الملك، فأعطاني خمسة آلاف دينار، وأهديت كتاب البيان والتبيين إلى ابن أبي داود فأعطاني خمسة آلاف دينار، وأهديت كتاب الزرع والنخل إلى إبراهيم بن العباس الصولي فأعطاني خمسة آلاف دينار، فانصرفت إلى البصرة ومعي ضيعة لا تحتاج إلى تجديد ولا تسميد. كان هذا والجاحظ في شيخوخته، والخلفاء والعظماء يعشقون قربه، ويفاخرون بصداقته؛ ومن أصدقائه الفتح بن خاقان[1]، ومحمد بن عبد الملك الزيات، والحسن بن وهب. ولم ير الجاحظ التقيد بخدمة الخلفاء، واعترض عليه بعضهم في ذلك، وقال فيه بعض من لا يرى للرجال قيمة إلا بما ملكت أيديهم، ومُتعوا به من جاه وسطوة: «إني لم أر أغبن من الجاحظ لنفسه، وإن كان أوحد البلاغة في عصره؛ فما باله لم يلتمس شرف المنزلة بشرف الصنعة، وقد رأى ابن الزيات وإبراهيم بن العباس بلغا فيها ما بلغا، وهو يلتمس فوائدهما والجاه بهما»، بيد أن الجاحظ كان يفضل أن يكون أميرًا وسط كتبه على الصورة التي رأى عليها إسحاق بن سليمان، وقد دخل عليه في إمرته، فرأى السماطين والرجال مثولًا، كأن على رءوسهم الطير، ورأى فرشته وبزته، ثم دخل عليه وهو معزول، وإذا هو في بيت كتبه، وحواليه الأسفاط والرقوق والقماطر والدفاتر والمساطر والمحابر. قال الجاحظ: فما رأيته قط أفخم ولا أنبل ولا أهيب ولا أجزل منه في ذلك اليوم، لأنه جمع مع المهابة المحبة، ومع الفخامة الحلاوة، ومع السؤدد الحكمة.

ومنذ ابتعد الجاحظ عما يستهوى من المظاهر انتهت أيام ضائقته لما اشتهر بين العالمين قدره، وتخامى الخلفاء لما يعرف من بطشهم إذا غضبوا، على ما لا يوازي

(١) يقول ابن خلكان: إنه كانت للفتح بن خاقان خزانة كتب جمعها علي بن يحيى المنجم لم يرَ أعظم منها كثرة وحسنًا، وكان يحضره فصحاء العرب وعلماء البصرة والكوفة. قال أبو هفان: ثلاثة لم ْرَ قط ولا سمعت بأكثر محبة للكتب والعلوم منهم: الجاحظ والفتح بن خاقان وإسماعيل بن إسماعيل القاضي.

أفضالهم إذا رضوا. ولما قبض على الوزير محمد بن عبد الملك الزيات في خلافل المتوكل، وكان الجاحظ في أسبابه وناحيته منحرفًا عن أحمد بن أبي داود، هرب الجاحظ فقيل له: لِمَ هربت؟ قال: خفت أن أكون ثاني اثنين إذ هما في التنور. يريد بذلك ما صنعوا بابن الزيات من إدخاله تنورًا فيه مسامير محماة. وذكروا أنه لما قُتل ابن الزيات حُمل الجاحظ مقيدًا من البصرة، وفي عنقه سلسلة وعليه قميص سَمَل؛ فلما دخل على ابن أبي داود عاتبه عتابًا فاحشًا. فقال الجاحظ: خفض عليك -أيدك الله- فوالله لأن يكون لك الأمر عليَّ خير من أن يكون لي عليك، ولأن أسيء وتحسن، أحسن في الأحدوثة من أن أحسن وتسيء، ولأن تعفو عني في حال قدرتك، أجمل بك من الانتقام مني، فعفا عنه وصدّره في مجلسه.

مذهبه وأخلاقه:

يعدُّ الجاحظ من الطبقة السابعة في المعتزلة، وفي هذا المذهب رُبي وعليه نشأ، وعنه ناضل وله ألّف؛ وقد خالف أصحابه في مسائل طفيفة، فسميت فرقته الجاحظية، وزعموا أنه قال: إن المعرفة طبائع؛ ونُقل عنه أنه أنكر أصل الإرادة وكونها جنسًا من الأعراض، فقال: إذا انتهى السهو عن الفاعل، وكان عالمًا بما يفعله، فهو المريد على التحقيق، وأما الإرادة المتعلقة بفعل الغير فهو ميل النفس إليه، وزاد على ذلك إثبات الطبائع للأجسام، كما قال الطبيعيون من الفلاسفة، وأثبت لها أفعالًا مخصوصة بها، وقال بعدم استحالة الجواهر، وأن الأعراض تتبدل والجواهر لا يجوز أن تفنى، ومذهبه مذهب الفلاسفة في نفي الصفات، وفي إثبات القدر خيره وشره من العبد مذهب المعتزلة.

هذا مجمل ما يقال في مذهب أبي عثمان، أما أخلاقه ومزاجه، فما كان بالسوداوي ولا بالعصبي، وكان أميل إلى التفاؤل منه إلى التشاؤم، يرى الدنيا بعين

المغتبط المحبور، لا بعين المَغيظ المُحنَق، يبدو السرور عليه إذا خطب وإذا كتب، وتغمره الغبطة، وتعتاده الدعابة، وخفة الروح فيه جِبلّة، يتنادر إلى الطبقات المختلفة، يعبث بهذا، ويَوْلع[1] بذاك، لا تفزعه المظاهر، ولا يتوقف في إيراد النكتة؛ فطر على الوفاء لأصحابه، والثبات على ودهم وعهدهم، ولا يشفع بمن يعرف وبمن لا يعرف، لاعتقاده أن الوصاة شهادة، وصعب عليه أن يشهد الزور.

كان يحافظ على أوقاته لا يضيع منها ما يمكن شغله بالمفيد، بعيدًا عن الفوضى بعض البعد، ويحب النظام في الجملة، إلا أنه كان لا يدخر المال إلى أيام العسرة، وإذا أتاه ينفقه لا يحسب للغد حسابًا كبيرًا، ولذلك كان يعسر أحيانًا وتعوزه النفقة، ويلوب على الناضّ يرتفق به، وما كان ضنينًا على إخوانه، وود لو أخذ من الأغنياء فأفضل على الفقراء، ولئن نشأ من بيت وضيع، لقد كان على جانب عظيم من عزة النفس.

ما كان الجاحظ بالمتزمت ولا بالمتنسك، قام بما فرض الإسلام عليه من الفروض والواجبات، وصرف ساعات عمره فيما يرفع من شأن المسلمين، دعاهم إلى الحياة الفاضلة، وحبب إليهم دينهم ودنياهم، ليستقيموا أمة عزيزة فاضلة في أخلاقها. وكان يرى سعادة أصحاب السلطان وأصحاب الثروة تزول بزوال أربابها، أو بما يعرض لها من أسباب الفناء، وأن العمل الصالح هو الأثر الذي يظل على الأيام، ولذلك كان يتقن عمله، لا يتوخى منه إلا ما يجدي في الحياة والمعاد. وسع علمه الناس والأمصار، ونظر أكثر من غيره إلى ما وراء حدود النظر، وما كان بالمقلد الخائف، ولا ممن يأخذ كل ما اتصل به قضية مسلمة لا بحث ولا نظر: قصاراه التجديد، والبعد عن مزالق التقليد، والتعرف إلى كل شيء معرفة ثاقبة.

---

(١) ولع كوضع ولعًا وولعانًا محركة: استخف.

رأى من العبث تكليف الأيام ضد طباعها، فلابس دهره كما شاء في الجملة، لا كما أراد هو بالتفصيل، فضحك لشقاء الحياة الدنيا، وهزأ بما يراه غيره نعمة؛ عرف أن السعادة في الأرض مستحيلة، وأن العالم يحلو ويمر، فرضي بحلوه ومره، وفي الرضا والقناعة عزاء وشفاء. رأى فساد الناس بما كسبت أيديهم من الكذب والزور والحسد والخبث، فاستعمل من دهائه ما اتقى به شرهم، وعَلِق يطمع في الحيلة لتعليمهم، ومداواة أمراض نفوسهم، وتفنن في دعوته، لا تفنن صاحب خيال، وطالب محال، بل تفنن الرجل الحكيم، يفيض اليوم بعد اليوم من علمه على تلميذه، بقدر ما يشهد فيه من استعداد، ويسمح له من رأس ماله الواسع ما يرجى له أن ينعم به، وهو لا ينفّر أهل جيله وقبيله، ولا يقرهم على كل ما هم فيه.

خُلق نقادًا كما يُخلق الشاعر شاعرًا، وقوة النقد فيه شديدة، ومع هذا يعمد إلى الرفق، وينصف خصمه من نفسه، ويستمع إلى ما يدلي به من حجة. تراه وهو العربي القح في جميع منازعه، لم تستهوه حكمة اليونان والهند وفارس، وما امتلكت قلبه غير حكمة العرب وهدايتهم وآدابهم، ومع هذا يأخذ ممن سبق ولحق، وعمن وافق وخالف؛ لا ينبو نظره عن شيء، ولا تُرذل نفسه حقيرًا. ولم تورثه شهرته العلمية زهوًا وغرورًا، ولا يتكلف التواضع ولا التخاشع، وبغيته الكبرى أن يرفق بالضعاف حتى يقووا، وبالجهلاء حتى يتعلموا؛ يحاسن الكبراء من دون إسفاف، ويجتنب مخاشنتهم تفاديًا من شرهم وعتوهم، ويحلم عن الأشرار طبعًا وتطبعًا، ويبتعد عن الحاسدين والموتورين؛ لا يضجر ولا يضطرب، مُتزَّن إذا أزِم، معتدل إذا حاور؛ لا يحسد ذا نعمة على نعمته، ولا ذا سلطان على نفوذ إرادته.

***

فلج الجاحظ وأصيب بالنقرس في شيخوخته، فدخل عليه المبرد في آخر أيامه وهو عليل، فسأله عن حاله فقال: كيف يكون من نصفه مفلوج، لو نشر بالمنشار لما أحس به، ونصفه الآخر منقرس، ولو طار الذباب بقربه لآلمه، والأمر على ذلك أني قد جاوزت التسعين وأنشد:

أترجو أن تكون وأنت شيخ ... كما قد كنت أيام الشباب؟
لقد كذبتك نفسك ليس ثوب ... دريس[1] كالجديد من الثياب

ودخل عليه جماعة يومًا بسرّ من رأى يعودونه وقد فلج، فلما أخذوا مجالسهم أتاه رسول المتوكل فقال: وما يصنع أمير المؤمنين بشق مائل، ولعاب سائل؟ ثم أقبل عليهم فقال: ما تقولون في رجل له شقان أحدهما لو غرز بالمسال ما أحس، والشق الآخر يمر به الذباب فيغوث[2] وأكثر ما أشكوه الثمانون؟

ومع هذا ظل الجاحظ يسلي نفسه بالتأليف على النحو الذي جرى عليه أيام الكهولة والشباب، فعوضته الطبيعة في شبابه عن جمال الوجه بجمال العلم وجلاله، وأعاضته في شيخوخته عن جودة الصحة صحة العقل. مات الجاحظ في سنة (٢٥٥). قيل: إنه وقعت عليه مجلدات العلم، فمات في الذي أحبه وبحر فيه طول حياته. قالوا: وكان من عادته أن يضعها قائمة، كالحائط محيطة به وهو جالس إليها، فسقطت عليه. مات في البصرة لا في بغداد بدليل ما رواه ابن المهلبي عن أبيه قال: قال لي المعتز بالله: يا يزيد ورد الخبر بموت الجاحظ. فقلت: لأمير المؤمنين طول البقاء ودوام العز. قال المعتز: لقد كنت أحب أن أشخصه إليَّ وأن يقيم عندي. فقلت له: إنه كان قبل موته عطلًا بالفالج.

---

(١) درس الثوب: أخلقه فدرس، هو لازم متعد.

(٢) غوث الرجل تغويثًا: قال: واغوثاه.

أدبه:

يطالعك الجاحظ من بارع أدبه بالإبداع دونه كل إبداع، ويعلمك في سهولة ويسر لا يشق عليك، يدخل من نفسك مدخل صدق، ويستهويك وأنت لا تدري كيف أُخذت. قد تقرأ لغيره كلامًا، وتُعجب بما فيه من ديباجة حسنة أو معنى دقيق، أو تحقيق وإحاطة، أو فكر طريف، أو رأي نادر، أما أن يضمَّ الكلام شتيت هذه الميزات، ويجمل كل ما يعن للخاطر من الصفات، فهذا مما لا يقع إلا على الندرة في كلام البلغاء، وهو من الأمور المعتادة في كلام أبي عثمان. أنت تتمثل فيما يملي الكاتبون شيئًا تستطيبه وتستملحه، وفي أدبه كل ما يطرب ويعجب. الكتَّاب في العادة يتطالون إلى أن يكتبوا موضوعاتهم، والجاحظ يستمليه موضوعه فيمليه، لا يتكلف ولا يتعسف، يصوّر لك خلجات الروح وآهات النفس وأزمات العقل، ويرسم لك المحسوسات كأنك تحسها، ويصف لكَ المعلوم والمجهول، ويعرض عليك المعقول والمنقول، ويفيض كل الفيض بما لم يكتب لغير أفراد في علماءِ هذه الأمة الطويل تاريخها، الكثير نبغاؤها، كأن الجاحظ بوق عصره ومصره، والآلة المحكمة التي أحسنت نقل أصوات أهل جيله. سجَّل المفاخر والمعاير، وحمل إلى أبناء القُرون اللاحقة أفانين من أدبه جَمَّلها بروح الحق وسحر الجمال.

يقف القارئ بما ينقل إليه على صور رآها بعينه، فأحب إمتاع غيره برؤيتها، وإشراكه بحالات تأثرت بها نفسه، هو ممن ربط ماضي الأمة بمستقبلها، ودينها بدنياها، وتعمد لفرط أمانته أن يسمعها الحسن والقبيح، فطبَّ بلطف عبقريته روحها وجسمها. وإذا كنت ممن لا يتوقع من المصوّر أكثر من أن يصوّر لك ما يقع بصره عليه، فأدب الجاحظ يصور اك في حذق وتدقيق ما وقعت عليه عينه وقلبه وحسه. ولما كان من رقة الشعور إلى التي ليس بعدها، جاء كلامه شعورًا وعاطفة.

ينبعث الهاء في أدب الجاحظ من كون مادة الجمال فيه سيّالة براقة ناصعة تنشر السرور في الروح. قالوا: إذا أورثك الكلام ما يعلو به فكرك، وما ينبه فيك حسًّا شريفًا، فلا تبحثن بعدها عن شيء آخر لتحكم على ما قرأت، وكن على مثل اليقين أنه من الجيد الصالح، وأنه ما صدر إلا عن يد صناع، وقريحة وقادة. والجاحظ فوق هذا، لم يتقيد كثيرًا بذوق عصره، وفي ذلك إبداعه في أدبه.

كان كما قال لانسون في وصف أحد كتاب الإفرنج يعيش كالأديب في العالَم، ويكتب كما يكتب الأديب للعالم، ولا يرضى عن نفسه إلا لأنه يُرضي الناس، وقد قَبِل البشر بكل ما فيهم من صفات، ليزحزحهم عما هم فيه؛ فخاطب الإنسان للتأثير في الإنسان، ونظر إليه لا على أنه روح محض، ولا على أنه عقل محض، نظر إليه على أن له جسمًا يضطهد الفكر ويحرّفه وينفيه، فرأى من الواجب أن يخاطبه بما فيه، فخاطب فيه العقل والإرادة والذهن والإحساس، فبرزت فصوله تُزهى بما خلع عليها من الجمال، والفكر الذي لا يتمثله الكاتب ينفر القارئ منه، لأن له من عزة نفسه ما يحب معه أن يُخاطب بما أَلف، وبما تتأثر به نفسه. وهذا ما كان مستجمعًا في أبي عثمان.

كتب بعد الدرس الطويل والخبرة الواسعة، وما عانى من الأبحاث إلا ما اضطلع به؛ وما قولك بعظيم يحيط بأكثر ما في صحيفة الوجود من المعارف، ويعرف ما في الأرض من تعاجيب، وما في السماء من غرائب، ووكده مصروف إلى إرضاء من يواصل السير معه، ويرافقه ويعاشره من قرائه. ومن لا يحتقر شيئًا يدخل في باب الآداب، ولا يستنكف من الأخذ عن صغير الناس وكبيرهم، ويكشف كل غامض، ويستقري ويستنبط، خليق أن يفعل أدبه في النفوس، وأن يكون كلامه راحًا للأرواح.

قيل: إن الكتابة الصحيحة صعبة المراس، وأصعب منها اختراع تركيب جديد، وإن جودة الكتابة تتوقف على استبطان أسرار الأشياء؛ ومنها أن يسلي الكاتب السامع بالمناظر المختلفة، يجمع له منها أصنافًا، وينقله في الأحاسيس، ويبعد به عن المهجورات والمكررات، ويهيب به إلى الإشراف على ما تخترع قريحته، ويتكشف عنه بيانه. وهذا القول أيضًا يصدق على الجاحظ إذا تأملت تراكيبه، وبصره بالأشياء، حتى لا يترك قولًا لغيره إذا بدا له أن يقوله.

فصلان للجاحظ أبدع فيهما الإبداع كله: أحدهما في وصف الكتاب، والثاني في وصف الحسد. ولعل إجادة الجاحظ تجلت لنا فيهما لأن موضوعهما مما أهمه كثيرًا. ومن أعرفُ بنفع الكتب من سيّد من صنفها، ومن أقدر على وصف الحسد من العارف بمدبّ هذا الداء من نفوس الحساد، ومن كان طول حياته غرضًا لهم يحاولون أن يصيبوه فيتقيهم. انتقد بعضهم على الجاحظ حتى وضعه الكتب، فذكر لهم فضلها على الناس؛ ومما قال: الإنسان لا يعلم حتى يكثر سماعه، ولا بد أن تكون كتبه أكثر من سماعه، ولا يعلم ولا يجمع العلم حتى يكون الإنفاق عليه من ماله ألذَّ عنده من الإنفاق من مال عدوه، ومن لم تكن نفقته التي تخرج في الكتب ألذ عنده من عشق القيان، لم يبلغ في العلم مبلغًا رضيًا، وليس ينتفع بإنفاقه حتى يؤثر اتخاذ الكتب إيثار الأعرابي فرسه باللبن على عياله، وحتى يُؤمَل في العلم ما يؤمل الأعرابي في فرسه.

وقال بعد مقدّمة: «وأنا أحفظ وأقول: الكتاب نعم الذخر والعقدة، والجليس والعمدة، ونعم النشوة، ونعم النزهة، ونعم المستغلّ والحرفة، ونعم الأنيس ساعة الوحدة، ونعم المعرفة ببلاد الغربة، ونعم القرين والدخيل والزميل، ونعم الوزير والنزيل. والكتاب وعاءٌ مليء علمًا، وظرف حشي ظرفًا، وإناءٌ شحن مزاحًا، إن

شئت كان أعيي من باقل، وإن شئت كان أبلغ من سحبان وائل، وإن شئت سرَّتك نوادره، وشَجَتك مواعظه، ومن لك بواعظ مثله، وبناسك فاتك، وناطق أخرس؛ ومن لك بطبيب أعرابي ورومي وهندي وفارسي ويوناني، ونديم مولّد، وحبيب ممتع؛ ومن لك بشيء يجمع لك الأول والآخر، والناقص والوافر، والشاهد والغائب، والرفيع والوضيع، والغث والسمين، والشكل وخلافه، والجنس وضده؟

وبعدما رأيت بستانًا يحمل في رُدن، وروضة تنقل حِجر، ينطق عن الموتى، ويترجم عن الأحياء؛ ومن لك بمؤنس لا ينام إلا بنومك، ولا ينطق إلا بما تهوى؛ آمن من الأرض، وأكتم للسر من صاحب السر، وأحفظ للوديعة من أرباب الوديعة، ولا أعلم جارًا آمن، ولا خليطًا أنصف، ولا رفيقًا أطوع، ولا معلمًا أخضع، ولا صاحبًا أظهر كفاية وعناية، ولا أقل إملالًا ولا إبرامًا، ولا أبعد عن مراء، ولا أترك لشغَب، ولا أزهد في جدال، ولا أكف عن قتال -من كتاب؛ ولا أعمَّ بيانًا، ولا أحسن مؤاتاة، ولا أعجل مكافأة، ولا شجرة أطول عمرًا، ولا أطيب ثمرًا، ولا أقرب مجتنى، ولا أسرع إدراكًا، ولا أوجد في كل إبان -من كتاب؛ ولا أعلم نتاجًا في حداثة سنه، وقرب ميلاده، ورخص ثمنه، وإمكان وجوده، يجمع من السير العجيبة، والعلوم الغريبة، وآثار العقول الصحيحة، ومحمود الأذهان اللطيفة، ومن الحكم الرفيعة والمذاهب القديمة والتجارب الحكيمة، والأخبار عن القرون الماضية والبلاد النازحة والأمثال السائرة والأمم البائدة ما يجمعه كتاب.

ومن لك بزائر إن شئت كانت زيارته غبًّا، وورده خمسًا[1]، وإن شئت لزمك لزوم ظلك، وكان منك كبعضك؛ والكتاب هو الجليس الذي لا يُطريك، والصديق

(١) الغب بالكسر في الزيارة: أن تكون كل أسبوع، والخمس بالكسر من إظماء الإبل: وهي أن ترعى ثلاثة أيام وترد الرابع، وهي إبل خوامس.

الذي لا يَقليك، والرفيق الذي لا يَمَلّك، والمستمع الذي لا يستزيدك، والجار الذي لا يُساطيك، والصاحب الذي لا يريد استخراج ما عندك بالمَلَق، ولا يعاملك بالمكر، ولا يخدعك بالنفاق. والكتاب هو الذي إن نظرت فيه أطال إمتاعك، وشحذ طباعك، وبسط لسانك، وجوّد بيانك، وفخّم ألفاظك، وبجح[1] نفسك، وعمَّر صدرك، ومنحك تعظيم العوام، وصداقة الملوك؛ يعطيك بالليل طاعته بالنهار، وفي السفر طاعته في الحضر؛ وهو المعلم الذي إن افتقرت إليه لم يحقرك، وإن قطعت عنه المادة لم يقطع عنك الفائدة، وإن عُزلت لم يدع طاعتك، وإن هبت ريح أعدائك لم ينقلب عليك، ومتى كنت متعلقًا منه بأدنى حبل، لم تضطرك معه وحشة الوحدة إلى جليس السوء.

وإن أمثل ما يقطع به الفُرَّاغ نهارهم، وأصحاب الكفايات ساعات ليلهم، نظر في كتاب لا يزال لهم فيه ازدياد في تجربة، وعقل ومروءة، وصون عرض، وإصلاح دين، وتثمير مال، وربّ[2] صنيعة، وابتداء إنعام. ولو لم يكن من فضله عليك، وإحسانه إليك، إلا منعه لك من الجلوس على بابك، والنظر إلى المارة بك، مع ما في ذلك من التعرض للحقوق التي تلزم، ومن فضول النظر، وملابسة صغار الناس، ومن حضور ألفاظهم الساقطة، ومعانيهم الفاسدة، وأخلاقهم الردية، وجهالتهم المذمومة، لكان في ذلك السلامة والغنيمة، وإحراز الأصل مع استفادة الفرع. ولو لم يكن في ذلك إلا أنه يشغلك عن سخف المنى، واعتياد الراحة، وعن اللعب، وكل ما تشتهيه، لقد كان له في ذلك على صاحبه أسبغ النعم، وأعظم المنة. وجملة الكتاب وإن كثر ورقه فليس ما يملُّ، لأنه وإن كان كتابًا واحدًا، فإنه كتب كثيرة في خطابه، والعلم بالشريعة والأحكام، والمعرفة بالسياسة والتدبير.

---

(١) بجحته تبجيحًا فتبجح أي: أفرحته ففرح.

(٢) وربّ: جمع وزاد ولزم.

والكتاب هو الذي يؤدي إلى الناس كتب الدين، وحساب الدواوين، مع خفة نقله، وصغر حجمه، صامت ما أسكتّه، وبليغ ما استنطقته، ومن لك بمسامر لا يبتديك في حال شغلك، ويدعوك في أوقات نشاطك، ولا يحوجك إلى التجمل له والتذمم منه.

والكتاب قد يفضل صاحبه، ويتقدم مؤلفه، ويرجح قلمه على لسانه بأمور: منها أن الكتاب يُقرأ بكل مكان، ويظهر ما فيه على كل لسان، ويوجد مع كل زمان، على تفاوت ما بين الأعصار، وتباعد ما بين الأمصار، وذلك أمر مستحيل في واضع الكتاب، والمتنازع في المسألة والجواب، ومناقلة اللسان وهدايته، لا تجوزان مجلس صاحبه، ومبلغ صوته، وقد يذهب الحكيم وتبقى كتبه، ويذهب العقل ويبقى أثره، ولولا ما أودعت لنا الأوائل في كتبها، وخَلّدت من عجيب حكمتها، ودونت من أنواع سيرها، حتى شاهدنا بها ما غاب عنا، وفتحنا بها كل مستغلق كان علينا، فجمعنا إلى قليلنا كثيرهم، وأدركنا ما لم نكن ندركه إلا بهم، لما حسن حظنا من الحكمة، ولضعف سبيلنا إلى المعرفة، ولو لجأنا إلى قدر قوتنا، ومبلغ خواطرنا، ومنتهى تجاربنا، لما تدركه حواسنا وتشاهده نفوسنا، لقلت المعرفة، وسقطت الهمة، وارتفعت العزيمة، وعاد الرأي عقيمًا، والخاطر فاسدًا، ولكلَّ الحد وتبلّد.

ولولا جياد الكتب وحَسَنها، وبَيّنها ومختصرها، لما تحركت همم هؤلاء لطلب العلم، ونزعت إلى حب الأدب، وأنفت من حال الجهل، وأن تكون في غمار الحشو، ولدخل على هؤلاء من الخلل، والمضرة من الجهل وسوء الحال، ما عسى أن لا يمكن الإخبار عن مقداره إلا بالكلام الكثير. ولذلك قال عمر رضي الله عنه: تفقهوا قبل أن تُسَوَّدوا. وقد نجد الرجل يطلب الآثار، وتأويل القرآن، يجالس الفقهاء خمسين عامًا، وهو لا يعدُّ فقيهًا، ولا يجعل قاضيًا؛ فما هو إلا أن ينظر في كتب أبي حنفية

وأشباه أبي حنيفة، ويحفظ كتب الشروط في مقدار سنة أو سنتين حتى تمرَّ ببابه، فتظن أنه من بعض العمال، وبالحريّ أن لا يمر عليه من الأيام إلا اليسير، حتى يصير حاكمًا على مصر من الأمصار، أو بلد من البلدان. ومما يدل على نفع الكتاب أنه لولا الكتاب لم يجز أن يعلم أهل الرقة والموصل وبغداد وواسط ما كان بالبصرة، وما يحدث بالكوفة في بياض يوم، حتى تكون الحادثة بالكوفة غُدوة، فيعلم بها أهل البصرة قبل المساء».

أملى الجاحظ هذه الفقرات في عصر كان الناس يؤثرون فيه السماع من المشايخ، والأخذ عن الرواة، على مطالعة الأسفار، والمنافسة في دواوين العلم، لا يحفلون بالتقييد والتسجيل كثيرًا، ويرون على الدوام الأخذ من الأفواه، فوجَّه أفكار أُمته وجهة أخرى مستديمة مستقرة، أتاها يُرغِّبها في الكتاب ليكون للناظر فيه كل ساعة ما يستقي من مَعينه، نصح لقومه أن يتناغوا في اقتناء الأسفار، ويتباروا في الاعتماد على ما تدخره من الدرر الغوالي، وبذلك ينشط المؤلفون إلى وضع كتبهم ومصنفاتهم، وتبقى لمن يتلوها أصح مرجع على الأيام.

وبعد؛ فهل رأيتم دخول الجاحظ على نفوس المتعلمين، أو من يطمع في تثقيفهم من العالمين، عندما قال لهم: إن الكتاب يمنح صاحبه تعظيم العوام وصداقة الملوك، وإن من حضر دروس الفقهاء لا يحصل من العلم على طائل، إلا إذا درس كتب أبي حنيفة وغيره، فأصبح بما استظهر قاضيًا أو حاكمًا في أحد الأمصار. وبعد أن أفاض في ضروب من الأقوال التي تفعل في النفوس، ونقل ما قاله مَن تقدموه في هذا الباب، باغت القارئ فضربه في الوتر الحساس، وهو طلب المال والجاه بالكتاب، والنفوس تصبو من طبعها إلى بلوغ هذه المراتب؛ وما دامت المسألة لا تحتمل أكثر

من النظر في صفحات معدودة، ويفتح الكنز المرصود لطالب السعادة، فجمهرة المقبلين على الأخذ من الأسفار، ستزيد يومًا بعد يوم.

وهذا منزع آخر من منازع الجاحظ في الإصلاح والتمدين، يحاول أن يصل منه إلى غاية معينة، وبضَرْبه على نغمة المادية يستهوي قلوب العالم، وما هو بالغافل عن ضعفهم، وأنهم عبيد الدنيا مهما تقلبوا زمانًا ومكانًا، فخاطبهم بما يقربهم إليه. ثم هو ليس ممن يرغب في الخطب التي يزول أثرها بزوال مؤثراتها، ولا يتعدى نفعها حدود أوقاتها، ويتعشق الكتب لأنها موضع تبصر وتدبر، لا يتناولها ما يتناول الخطب من تأويل وتحريف، وزيادة ونقص. وأثبت الجاحظ في هذا المنحى أيضًا أنه على جانب عظيم من الدهاء، أثبت أنه لو اعتمد في تهذيب الناس على محاضراته ومسامراته في مجالسه ودروسه فقط، لضاع على الناس علم كثير، واستهلك ذلك وقتا ودَّ لو صرفه في التأليف الخالد، ثم لا يجد إليه المشاغبون طريقًا يلجونه لمناقشته ومراوغته، فيضطر إلى إجابتهم، وصرف الذهن عبثًا في حاورهم؛ ومن خُلقوا للجدال في الحق والباطل لا يزحزحهم عما هم فيه برهان، وهل يرضى العدو من عدوه بغير إهلاكه أو زوال نعمته؟

من أجل هذا تملص الجاحظ من إجابة من تقدم إليه أن يحدثه قائلًا له: إنه ليس حشويًا، ذلك لأن الجاحظ الحذر اليقظ لا يُرضيه أن يستخدم أحد اسمه، مدعيًا أنه نقل عنه حديثًا قد يحرفه أو يعبث به على هواه؛ ولذا قطع على الطالب حديثه وتبرأ من الحشوية، والحشوية هم الذين لا يدرون ما يروون، ولا ما يصححون من أحاديث الرسول. وأخرى أنه كان ينوي بالدعوة إلى الاستكثار من اقتناء الكتب أن يظهر تدجيل الدجالين من الراوين والمؤلفين ليبدوا في أصح مظاهرهم، وتتبين

للقاضي والداني أقدارهم: فيسقط المموّهون، ويبقى المجوّدون، ممن تستحق مدوّناتهم أن تبقى وتتناقل جيلًا فجيلًا.

والآن ننتقل إلى الصفحة الجاحظية الأخرى، صفحة الحاسد والمحسود؛ فاستمعوا إليها من لسان أعرف الناس بطباع الناس، بل أعظم منشئ وأكبر عالم قام في القرن التاسع للميلاد، كما وصفه أحد علماء الإفرنج، وهو جواب من سأله عن الحسد: «لِمَ صار في العلماء أكثر منه في الجهلاء؟ ولِمَ كثُر في الأقرباء، وقلَّ في البعداء؟ وكيف دبَّ في الصالحين أكثر منه في الفاسقين؟ وكيف خصَّ به الجيران من جميع الأوطان؟». فقال: «الحسد -أبقاك الله- داء ينهك الجسد، ويفسد الأود، علاجه عَسِر، وصاحبه ضَجِر، وهو باب غامض، وأمر متعذر، فما ظهر منه فلا يداوى، وما بطن منه فمداريه في عناد؛ ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: «دبَّ إليكم داء الأمم من قلبكم الحسدُ والبغضاء...» فمنه تتولد العداوة، وهو سبب كل قطيعة، ومنتج كل وحشة، ومفرِّق كل جماعة، وقاطع كل رحم بين الأقرباء، ومحدث التفرق بين القرناء، وملقح الشر بين الخلطاء، يكمن في الصدور كمون النار في الحجر. ولو لم يدخل -رحمك الله- على الحاسد بعد تراكم الهموم على قلبه، واستمكان الحزن في جوفه، وكثرة مضضه، ووسواس ضميه، وتنغيص عمره، وكدر نفسه، ونكد لذاذة معاشه، إلا استصغاره لنعمة الله تعالى عنده، وسخطه على سيده، بما أفاده الله عبده، وتمنيه عليه أن يرجع في هبته إياه، وأن لا يرزق أحدًا سواه، لكان عند ذوي العقول مرحومًا، وكان عندهم في القياس مظلومًا».

وبعد أن سار على هذا النحو ينقل الشاهد والمثل والقصة قال:

«فمن شأن الحاسد إن كان المحسود غنيًّا، توبيخه على المال وقوله: إنه جمعه حرامًا، ومنعه أثامًا، وألّب عليه محاويج أقاربه، وتركهم له خصماء، وأعانهم في

الباطن، وحمل المحسود على قطيعتهم في الظاهر، وقال له: كفروا معروفَك، وأظهروا في الناس ذمك، فليس أمثالهم يوصلون، فإنهم لا يشكرون. وإن وجد له خصمًا، أعانه عليه ظلمًا، فإن كان ممن يعاشره فاستشاره غَشّه، أو تفضل عليه بمعروف كفره، أو دعاه إلى نصره خذله، أو حضر مدحه ذمه، وإن سُئل عنه همزه، أو كانت عنده شهادة كتمها، وإن كانت منه إليه زلة عظمها، وقال: إنه يجب أن يعاد ولا يعود، ويرى عليه القعود».

«إن كان المحسود عالمًا، قال: مبتدع، ولرأيه متبع، حاطب ليل، ومتبع نَيْل، ما يدري ما حمل، قد ترك العمل، وأقبل على الحيل، وقد أقبل بوجوه الناس إليه، وما أحمقهم إذ مالوا إليه، فقبحه الله من عالم، ما أعظم بليته، وأقل رعيته، وأسوأ طعمته».

ووصفه للعالم المحسود وصفه لنفسه مع بعض حساد زمانه، ممن لم تدرك أنفسهم شأوه في علمه وفنه، ولذلك نراه عرف داءهم وعرف دواءهم، فكان الإعراض عنهم في حياته، ومداراة الشياطين منهم من جملة ما يعد في باب عقل الجاحظ. وقال: «لو ملكت عقوبة الحاسد لم أعاقبه بأكثر مما عاقبه الله به، بإلزامه الهموم قلبه، وتسليطها عليه، فزاده الله حسدًا، وأقامه عليه أبدًا».

وأبان عما ارتآه لمداواة داء الحاسد بقوله: «فإذا أحسست -رحمك الله- من صديقك بالحسد فأقلل ما استطعت من مخالطته، فإنه أعون الأشياء لك على مسالمته، وحصّن سرك منه تسلم من شذى[1] شره، وعوائق ضره، وإياك والرغبة في مشاورته، فتمكن نفسك من سهام مشاررته».

---

(١) الشذى: كالأذى وزنًا ومعنى.

«ومتى رأيته حاسدًا يصوب لك رأيًا، وإن كنت مصيبًا، أو يرشدك إلى الصواب، وإن كنت مخطئًا، أو نصح لك في غيبته عنك، أو قصر من عيبه لك؟ هو الكلب الكلِب، وَالنمر الحرِب، والسم القشب، والفحل القَطِم[1]، والسيل العرِم. إن مَلَك قتل وسبى، وإن مُلك عصى وبغى؛ حياتك موته وثبوره، وموتك عرسه وسروره؛ يصدّق عليك كل شاهد زور، ويكذّب فيك كل عَدْل مرضي؛ لا يحب من الناس إلا من يبغضك، ولا يبغض من الناس إلا من يحبك؛ عدوك بطانته، وصديقك علاوته... أحسن ما تكون عنده حالا، أقلَّ ما يراك مالًا، وأكثر ما تكون عيالًا، وأعظم ما تكون ضلالًا؛ وأفرح ما يكون بك أقرب ما تكون بالمصيبة عهدًا، وأبعد ما تكون من الناس حمدًا؛ فإذا كان الأمر على هذا فمجاورةُ الأموات، ومخالطة الزَّمْنى، الاكتنان بالجدران، ومصّ المصران، وأكل القردان، أهون من معاشرة مثله، والاتصال بحبله... وما أرى السلامة إلا في قطع الحاسد، ولا السرور إلا في افتقاد وجهه، ولا الراحة إلا في صرم مداراته، ولا الربح إلا في ترك مصافاته...».

قال: «وما لقيت حاسدًا قط إلا تبين مكنونه بتغير لونه، وتخوّص عينه، وإخفاء سلامه، والإقبال على غيرك، والإعراض عنك، والاستقال لحديثك، والخلاف لرأيك»، «من شأن الحاسد تهجين ما يَحْسد عليه، ومن خلق المحروم تقبيح ما حُرم وتصغيره والطعن على أهله»، «والذي يحسد فعلى ما لا حد له يكون حسده، فحسده متسع بقدر تغير اتساع ما حسد عليه»، «ما خالط الحسد قلبًا إلا لم يمكنه ضبط، ولا قدر على تشحينه[2] وكتمانه، حتى يتمرد عليه في ظهوره وإعلانه، فيصده ويستعمله، ويستعطفه لقهره عليه، ولهو أغلب على صاحبه من السيد على جنده، ومن السلطان على رعيته، ومن الرجل على زوجته، ومن الآسر على أسيره».

---

(١) القطم ككتف: الكثير العض، والقشب: الخلط وسقي السم.

(٢) أشحن السيف: أغمده، وسله، ضد.

وقال في مكان آخر: «ومتى أحب السيد الجامع، والرئيس الكامل، قومه أشد الحب، وحاطهم على حسب حبه لهم، كان أبغض أعدائهم له على حسب حب قومه له؛ هذا إذا لم يتوثب إليه، ولم يعترض من بني عمه وإخوته من قد أطعمته الحال باللحاق به. وحسد الأقارب أشد، وعداوتهم على حسب حسدهم. وقد قال الأولون: رضا الناس شيء لا يُنال. وقد قيل لبعض العرب: من السيد فيكم؟ قال: الذي إذا أقبل هبناه، وإذا أدبر اغتبناه. وقد قال الأوَل: بغضاء السوء موصولة بالملوك والسادة، وتجري في الحاشية مجرى الملوك، وليس في الأرض عمل أكدُّ لأهله من سياسة العوام». والجملة الأخيرة من حكمه أو من الكلام الذي يختم به فصوله غالبًا ليبقى من القارئ على ذكر. وما أحلى قوله في الحاسد: «من العدل المحض أن تحط من الحاسد نصف عقابه، لأن ألم حسده لك قد كفاك شر مؤنة غيظه عليك». وما أصدق قوله: «ما لقيت حاسدًا قط إلا تبين مكنونه بتغير لونه، وتخوص عينه، وإخفاء سلامه، والإقبال على غيرك» إلخ.

ولا نرى ختم هذا الفصل قبل أن نشير إلى أن الجاحظ كان صريحًا في أدبه، لا يبالي تشدد المتزمتين، يُسمِّي الأشياء بأسمائها، رغم أنف من رضي وكره، فأدبه - والحالة ما ذكرنا- الأدب الواقع Réalisme، على ما يدعوه المعاصرون، أي نقل الطبيعة كما هي، أو كما يظن أن تُرى، مع ما فيها من بشاعة وابتذال؛ ولهذا الأدب في دهرنا من أهل الغرب أدباء مشهورون عانوه في كتبهم، وما عبئوا بمصطلح مجتمعهم.

وكان كثير من المؤلفين في العرب، ومن المشهود لهم بالتقوى والفضل، يسيرون على نهج أبي عثمان في ذلك. ومنهم خصمه اللدود جاحظ أهل السنة ابن قتيبة، فقد قال في مقدمة عيون الأخبار: «وإذا مر بك حديث فيه إيضاح بذكر عورة أو فرج، أو

وصف فاحشة، فلا يحملنك الخشوع أو التخاشع على أن تصعّر[١] خدك، وتعرض بوجهك، فإن أسماء الأعضاء لا تؤثم، وإنما المأثم في شتم الأعراض، وقول الزور والكذب، وأكل لحوم الناس بالغيب. قال: ولم أترخص لك في إرسال اللسان بالرفث على أن تجعله هجيراك[٢] على كل حال، وديدنك في كل مقال، بل الترخص مني فيه حكاية تحكيها، أو رواية ترويها، تنقصّها الكناية، ويذهب بحلاوتها التعريض، وأحببت أن تجري في القليل من هذا على عادة السلف الصالح، في إرسال النفس على السجية، والرغبة بها عن لبسة الرياء والتصنع».

وأبان الجاحظ عن منزعه في الأدب الواقع بقوله: «وبعض الناس إذا انتهى إلى ذكر الخ والاي. والنيـ، ارتدع وأظهر التعزز، واستعمل باب التورع، وأكثر من تجده كذلك، فإنما هو رجل ليس معه من العفاف والكرم والنبل والوقار إلا بقدر هذا الشكل من التصنع، ولم يكشف قط صاحب رياء ونفاق إلا عن لؤم مستفحل، ونذالة متمكنة. وبعد فلو لم يكن لهذه الألفاظ مواضع لما استعملها أهل هذه اللغة، وكان الرأي أن لا يلفظ بها»[٣].

---

(١) صعّر خده تصعيرًا وصاعره وأصعره: أماله عن النظر إلى الناس تهاونًا من كبر، وربما يكون خلقة.

(٢) الرفث -محركة-: الجماع، والفحش كالرفوث وكلام النساء في الجماع أو ما ووجهن به من الفحش. يقال هذا هجيراه (بكسر الأول وتشديد الثاني) واهجيراه واهجيراؤه وهجيره وأهجورته وهجرياه؛ أي: دأبه وشأنه.

(٣) جرى كثير من العلماء والأدباء على هذه الطريقة في التصريح، بما يعد اليوم مخالفًا للعرف ومنافيًا للأدب، ومنهم ابن حزم الظاهري في طوق الحمامة والراغب الأصفهاني صاحب الذريعة إلى مكارم الشريعة، في كتاب محاضرات الراغب، والقاضي التنوخي في نشوار المحاضرة، وياقوت في طبقات الأدباء وغيرهم كثير. وروى الحصري بمناسبة مجون الحسن بن هانئ: «إن الشعر لم يؤسسه بانيه على أن يكون المبرز في ميدانه من اقتصر على الصدق ولم يغو بصبوة، ولم يرخص في هفوة، ولم ينطق بكذبة، ولم يغرق في ذم، ولم يتجاوز في مدح، ولم يزور الباطل، ويكسبه معارض الحق، ولو سلك بالشعر هذا المسلك، لكان صاحب لوائه من المتقدمين، أمية بن أبي الصلت الثقفي، وعدي بن زيد العبادي، إذ كانا أكثر تذكيرًا

سار الجاحظ على العرف قبله في إيراد أسماء الأعضاء وعملها، لأنها ما وجدت في اللغة إلا لتُستعمل، ولطالما أرسل النفس على سجيتها، وأورد النكات والنوادر بالألفاظ التي رويت بها، وليس ذكر الأشياء بأسمائها بدعًا في أسلوب الجاحظ، ووصف الأشياء بما فيها من قبح وحسن بالأسلوب الواقعي طريقة للعرب قديمة؛ ومع هذا لم يفرط أبو عثمان في ذلك، يورد ما يورد منها في المناسبات، ولا يعد اللفظ ولا الجملة من ذلك مما يمس الدين، أو يعبث بخلق أو يأتي على أدب، ولا سيما في حكاياته وما ينقله من أشعار. الجاحظ يملي أدبه من روحه وقلبه وعقله، ويقول ما يقول غير متزيد، فمن الأحجى أن يعرض الطبائع البشرية في صورتها الحقيقية، لا يداجي ولا يحابي، ويجابه الحقيقة مجابهة.

بقي أن نقول: إن أدب الجاحظ قطعة من نفسه تتجلى فيه لأول نظرة طريقته، ولو أنك ألقيت قطعة من قلمه بين عشر قطع أدبية لغيره، لما صعب عليك أن تميز

وتحذيرًا ومواعظ في أشعارهما من امرئ القيس والنابغة. قال: وهل يتناشد الناس أشعار امرئ القيس والأعشى والفرزدق وعمر بن أبي ربيعة وبشار وأبي نواس على تعهرهم، ومهاجاة جرير والفرزدق على قذعهم، إلا على ملأ من الناس، وفي حلق المساجد؛ وهل يروي ذلك إلا العلماء الموثوق بصدقهم، وما نهى النبي ولا السلف الصالح من الخلفاء المهديين بعده عن إنشاد شعر عاهر ولا فاجر». اهـ.

وقال الجرجاني: «وقد استشهد العلماء لغريب القرآن وإعرابه بالأبيات فيها الفحش وفيها ذكر الفعل القبيح، ثم لم يعبهم ذلك إذ كانوا لم يقصدوا إلى ذلك الفحش ولم يريدوه، ولم يرووا الشعر من أجله». ونقول مثل هذا لمن يجوزون تغيير نصوص القدماء بدعوى أنها لا تتلاءم مع أدب العصر، ونحن في صدد معرفة أدب ذاك العصر. قال القديس كليمان: أنا لا اخجل، لفائدة القراء، من الكلام على الأعضاء التي يخلق بها الإنسان لأن المولى تعالى لم يخجل إذ خلقها. وقال مونتين وهو من أعظم من اشتهروا بالفضائل من المؤلفين الفرنسيين: ماذا كان عمل الفعل التناسلي في الناس وهو طبيعي وضروري حتى شجبوه وابتعدوا عن ذكره؛ فتراهم لا يجسرون على الكلام عنه إلا بشيء من الخجل، ويبتعدون عنه في أحاديثهم، الناس يجرءون على التلفظ بأفعال القتل والسرقة والخيانة والزنا.. إلخ، ولا يجرءون على النطق بالعمل الذي يهب الحياة للمخلوق. يا للعفة المكذوبة، ويا للنفاق المخجل؟ ألا ترون أن من يرون إطلاق اسم الحيوان على العمل الذي يخلق الإنسان أحرياء بأن يطلق عليهم اسم بهائم وحيوانات؟

كلامه من كلام غيره، إن كنت ممن تأدب بكلامه، لما تحس من أفكار سديدة ما خان اللفظ ولا السبك كاتبها؛ فشخصية الجاحظ تلمسها إذًا في كل موضوع جالت فيه يراعته؛ وهذا قلما تعرف مثله كثيرًا لغيره من العلماء والأدباء، وأسلوبه خاص به، لا ينازعه فيه منازع، وجماع عوامل الإحسان مستوفاة في كلامه.

بلاغته:

ضرب المثل بأدب الجاحظ وبيانه وسعة عبارته (حتى كان يقال: من دليل إعجاز القرآن إيمان الجاحظ به). ومن الخير لطلاب البلاغة إذًا أن يمعنوا النظر بكلام الجاحظ، ليتبينوا بأنفسهم طريقته، ويتواصفوا في الجملة طراز إملائه دروس البلاغة، ويتعرفوا ميزانه الدقيق في فقه اللغة (أي: النظر في مواقع الألفاظ وأين استعملتها العرب)، و(تحري الألفاظ البعيدة عن طرفي الغرابة والابتذال)، و(اجتناب كل صيغة تخرج الذهن عن أصل المعنى أو تشوش عليه).

قالوا: إن (مدار البلاغة على تحسين اللفظ وتجميل الصورة) وحظُّ الجاحظ من هذا كان جزيلًا. حسنت بلاغته في كل عين، لتجميلها ببراعته في تخير جيد الألفاظ، وتجافيه عن استخدام الثقيل في ميزانه، وقد ينبذ اللفظ الواحد ويستعمل معناه، ويؤدي المعنى بعدة ألفاظ، واللفظة الواحدة تُجزئه، وفي ألفاظ الأعيان يضع الشيء موضعه، ويطبق كل اسم على مسماه. قال مرة: «ليس للعرب اسم لما لا يبصر بالليل، وهو الذي يقال له: سَبْكور، أكثر من أن يقولوا به: هُدْبِدٌ». وقال في وصف كتاب بالقدم: «كتاب متقادم الميلاد دهريُّ الصنعة»، وكأنه كان يضع بعض ألفاظ أو يستعمل ما لا عهد باستعماله قبله، مثل قوله: «القرويون والبلديون»، «اللغويون والمعنويون» أطلق هذا على من يشتغلون بالألفاظ ويشتغلون بالمعاني، فمعرفة أبي

عثمان بوقع الكلمة في نفس القارئ وتمييزه الدقيق بين حيّ الألفاظ وميتها، وسهلها وصعبها، سبب أول في تفوقه في بلاغته.

وملاك الأمر عنده أبدًا أن يكون اللفظ سمحًا لا كزًّا[1]، والابتعاد عن المعاني التافهة، والقوالب المستكرهة؛ ولطالما أوصى طلاب البلاغة أن لا يكون اللفظ عاميًّا ساقطًا سوقيًّا، ولا وحشيًّا غريبًا، وقال: «الاستعانة بالغريب عجز»، «إلا أن يكون المتكلم بدويًّا أعرابيًّا، فإن الوحشي من الكلام يفهمه الوحشي من الناس، كما يفهم السوقي رطانة السوقي»؛ والمعوَّل عليه في هذا الباب أن (لا يكلم العامة بكلام الخاصة ولا الخاصة بكلام العامة)؛ فهو إذًا ممن سعوا في تدميث اللغة، على نحو ما تدمثت طبائع الأمة العربية بالحضارة.

وقد أبان عن طريقته الواضحة فقال: «قد يستخفُّ الناس ألفاظًا ويستعملونها وغيرها أحق بذلك منها، والعامة ربما استخفت أقل اللغتين وأضعفهما، وتستعمل ما هو أقل في أصل اللغة استعمالًا، وتدع ما هو أظهر وأكثر، ولذلك صرنا نجد البيت من الشعر قد سار، ولم يسر ما هو أجود منه، وكذلك المثل السائر»، «وسخيف الألفاظ مشاكل لسخيف المعاني، وقد يحتاج إلى السخيف في بعض المواضع، وربما أمتع بأكثر من إمتاع الجزل الفخم، ومن الألفاظ الشريفة الكريمة المعاني». ويقول: إن لكل قوم ألفاظًا حظيت عندهم «وكذلك كل بليغ في الأرض، وصاحب كلام منثور، وكل شاعر وصاحب كلام موزون، فلا بد من أن يكون قد لهج[2] وألّف ألفاظًا بأعيانها، ليديرها في كلامه، وإن كان واسع العلم، غزير المعاني، كثير اللفظ».

---

(١) يقال: رجل كز اليدين ذو كززٍ؛ أي بخل، والكزازة: اليبس والانقباض.

(٢) لهج به، كفرح: أغرى به فثابر عليه.

قال: «وأنا أقول في هذا قولًا، وأرجو أن يكون مرضيًّا، ولم أقل أرجو لأني أعلم فيه خللًا، ولكني أخذت بآداب وجوه أهل دعوتي وملتي ولغتي وجزيرتي وجيرتي وهم العرب. وذلك أنه قيل لصُحَار[1] العَبْدي: ما يقول الرجل لصاحبه عند تذكيره أياديه وإحسانه؟ قال: أما نحن فإنا نرجو أن نكون قد بلغنا من أداء ما يجب علينا مبلغًا مُرضيًا، وهو يعلم أنه قد وفّاه حقه الواجب، وتفضل بما لا يجب. قال صُحَار: كانوا يستحبون أن يَدَعوا للقول مُتنفَّسًا، وأن يتركوا فيه فضلًا، وأن يتجافوا عن حق إن أرادوه لم يُمنعوا منه، فلذلك قلت أرجو، فافهم، فَهَّمك الله تعالى».

«فإن رأيي في هذا الضرب من هذا اللفظ، أن أكون ما دمت في المعاني، التي هي عبارتها والعادة فيها، أن ألفظ بالشيء العتيد الموجود، وأدع التكلف لما عسى أن لا يسلس ولا يسهل، إلا بعد الرياضة الطويلة، وأرى أن ألفظ بألفاظ المتكلمين ما دمت خائضًا في صناعة الكلام، مع خاص أهل الكلام، فإن ذلك أفهم عندي وأخف لمؤنهم عليَّ. ولكل صناعة ألفاظ قد حصلت لأهلها بعد امتحان سواها، فلم تلزق بصناعتهم إلا بعد أن كانت مشاكلات بينها وبين تلك المعاني. وقبيح بالمتكلم أن يفتقر إلى ألفاظ المتكلمين في خطبة أول رسالة، أو في مخاطبة العوام والجار، أو في مخاطبة أهله وعبده وأمَته، أو في حديثه إذا حدّث، أو خبره إذا أخبر، وكذلك من الخطأ أن يجلب ألفاظ الأعراب وألفاظ العوام، وهو في صناعة الكلام داخل، ولكل مقام مقال، ولكل صناعة شكل».

ذلكم رأي الجاحظ في وضع الألفاظ مواضعها في التأليف، وكلامه فيه غنى عن الشرح والتعليق، هو لا يدعوك في وضع القاعدة التي سنَّها لك، إلا أن تتدبر ما قال، وتعمل به في اختيار اللفظ الموافق، أما المعاني فقد قال: إن حكمها خلاف حكم

(١) صحار بن العباس العبدي وفد على النبي وكان من أخطب الناس وأبينهم.

الألفاظ؛ لأن المعاني مبسوطة إلى غير غاية، وممتدة إلى غير نهاية، وأسماء المعاني مقصورة معدودة، ومحصلة محدودة. وهنا روى عن غيره: «قال بعض جهابذة الألفاظ ونقاد المعاني: المعاني القائمة في صدور العباد، المتصورة في أذهانهم، والمتخلجة في نفوسهم، والمتصلة بخواطرهم، والحادثة عن فكرهم، مستورة خفية، وبعيدة وحشية، ومحجوبة مكنونة، وموجودة في معنى معدومة، لا يعرف الإنسان ضمير صاحبه، ولا حاجة أخيه وخليطه، ولا معنى شريكه، والمعاون له على أموره، وعلى ما لا يبلغه من حاجات نفسه إلا بغيره. وإنما تحيا تلك المعاني في ذكرهم لها، وإخبارهم عنها، واستعمالهم إياها، وهذه الخصال هي التي تقربها من الفهم، وتجليها للعقل، وتجعل الخفيَّ منها ظاهرًا، والغائب شاهدًا، والبعيد قريبًا. وهي التي تخلص الملتبس، وتحل المتعقد، وتجعل المهمل مقيدًا، والمقيد مطلقًا، والمجهول معروفًا، والوحشي مألوفًا، والغُفل موسومًا، والموسوم معلومًا. وعلى قدر وضوح الدلالة، وصواب الإشارة، وحسن الاختصار، ودقة المدخل، يكون إظهار المعنى، وكلما كانت الدلالة أوضح وأفصح، وكانت الإشارة أبين وأنور، كان أنفع وأنجع. والدلالة الظاهرة على المعنى الخفي، هو البيان الذي سمعت الله -تبارك وتعالى- يمدحه ويدعو إليه ويحث عليه، وبذلك نطق القرآن، وبذلك تفاخرت العرب، وتفاضلت وأصناف العجم».

«وقال مَن علم: حق المعنى أن يكون الاسم له طبقًا، وتلك الحال له وَفْقًا، ويكون الاسم له لا فاضلًا ولا مفضولًا، ولا مقصرًا ولا مشتركًا ولا مضمنًا، ويكون مع ذلك ذاكرًا لما عقد عليه أول كلامه، ويكون تصفحه لمصادره في وزن تصفحه لموارده، ويكون لفظه مونقًا، ولهول تلك المقامات معاودًا، ومدار الأمر على إفهام كل قوم بقدر طاقتهم، والحمل عليهم على أقدار منازلهم».

قال: «وأحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره، ومعناه في ظاهر لفظه، وكأن الله عز وجل قد ألبسه من الجلالة، وغشَّاه من نور الحكمة على حسب نية صاحبه، وتقوى قائله، فإذا كان المعنى شريفًا، واللفظ بليغًا، وكان صاحبه صحيح الطبع، بعيدًا من الاستكراه، منزهًا عن الاختلال، مصونًا عن التكلف، صنع في القلوب صنع الغيث في التربة الكريمة، ومتى كانت الكلمة على هذه الشريطة، ونفذت عن قائلها على هذه الصفة، أصحبها الله من التوفيق، ومنحها من التأييد، ما لم يمتنع معه من تعظيمها صدور الجبابرة، ولا تذهل عن فهمها معه عقول الجهلة».

قال: «ومتى شاكل -أبقاك الله- اللفظ معناه، وكان لذلك الحال وفقًا، ولذلك القدر لفقًا[1]، وخرج من سماجة الاستكراه، وسلم من فساد التكلف، كان قَمِنًا بحسن الموقع، وحقيقًا بانتفاع المستمع، وجديرًا أن يمنع جانبه من تأول الطاعنين، ويحمي عِرضه من اعتراض العائبين، ولا تزال القلوب به معمورة، والصدور مأهولة. ومتى كان اللفظ أيضًا كريمًا في نفسه، متخيرًا من جنسه، وكان سليمًا من الفضول، بريئًا من التعقيد، حُبِّب إلى النفوس، واتّصَل بالأذهان والتحم بالعقول، وهشت له الأسماع، وارتاحت له القلوب، وخفَّ على ألسن الرواة، وشاع في الآفاق ذكره، وعظم في الناس خطره، وصار ذلك مادة للعالم الرئيس، ورياضة للمتعلم الريِّض[2]، ومن أعاره من معرفته نصيبًا، وأفرغ عليه من محبته ذنوبًا[3] حبب إلى المعاني، وأسلس له نظام اللفظ، وكان قد أغنى المستمع عن كد التكلف، وأراح قارئ الكتاب من علاج التفهم».

---

(١) يقال للرجلين لا يفترقان: هما لفقان. والوفق والوفاق والفيقة والفوقة والسية والعدل واحد.

(٢) يقال ناقة ريض: كسيد، أول ما ريضت وهي صعبة بعد.

(٣) الحظ والنصيب، والدلو فيها ماء، أو الملأى، أو دون الملأى.

وقد يقع للجاحظ أن يكرر القضية الواحدة في عدة أماكن من كتبه ورسائله، يريد إثباتها في الأذهان، وأمر البلاغة واختيار الألفاظ لإلباس المعاني الصورة اللائقة مما يُعنى به، فقد قال في رسالة «مدح التجار وذم عمل السلطان» ما لم يخرج عن قوله في هذا المعنى في البيان والتبيين وفي الحيوان وغيرهما. قال: «ثم خذه بتعريف حجج الكتّاب، وتخلصهم باللفظ السهل القريب المأخذ إلى المعنى الغامض، وأذقه حلاوة الاختصار، وراحة الكفاية، وحذره التكلف، واستكراه العبارة، فإن أكرم ذلك كله ما كان إفهاما للسامع، ولا يحوج إلى التأويل والتعقيب[1]، ويكون مقصورًا على معناه، لا مقصرًا عنه، ولا فاضلًا عليه، فاختر من المعاني ما لم يكن مستورًا باللفظ المتعقد، مغرقًا في الإكثار والتكلف، فما أكثر من لا يحفل باستهلاك المعنى مع براعة اللفظ، وغموضه على السامع، بعد أن يتسق له القول، وما زال المعنى محجوبًا لم تكشف عنه العبارة، فالمعنى بعد مقيم على استخفائه، وصارت العبارة لغوًا وظرفًا خاليًا، وشر البلغاء من هيأ رسم المعنى قبل أن يهيئ المعنى، عشقًا لذلك اللفظ، وشغفًا بذلك الاسم، حتى صار يجرُّ إليه المعنى جرًّا، ويلزقه به إلزاقًا، حتى كأن الله تعالى لم يخلق لذلك المعنى اسما غيره، ومنعه الإفصاح عنه إلا به، والآفة الكبرى أن يكون رديء الطبع، بطيء اللفظ، كليل الحد، شديد العجب، ويكون مع ذلك حريصًا على أن يعدَّ في البلغاء، شديد الكلف بانتحال اسم الأدباء؛ فإذا كان كذلك خفي عليه فرق ما بين إجابة الألفاظ، واستكراهه لها.

وبالجملة إن لكل معنى شريف أو وضيع، هزل أو جد، أو حرفة أو صناعة، ضربًا من اللفظ هو حقه وحظه ونصيبه، الذي لا ينبغي أن يجاوزه، أو يقصر دونه، ومن قرأ كتب البلغاء، وتصفح دواوين الحكماء، ليستفيد المعاني، فهو على سبيل صواب؛ ومن نظر ليستفيد الألفاظ، فهو على سبيل الخطأ، والخسران هاهنا في وزن

(١) التعقيب: المكث والالتفات.

الربح هناك، لأن من كانت غايته انتزاع الألفاظ حمله الحرص عليها، والاستهتار بها إلى أن يستعملها قبل وقتها، ويضعها في غير مكانها؛ ولذلك قال بعض الشعراء لصاحبه: أنا أشعر منك. قال صاحبه: ولِمَ ذاك؟ قال: لأني أقول البيت وأخاه، وأنت تقول البيت وابن عمه، وإنما هي رياضة وسباحة، والرفيق مصلح، والآخر مفسد، ولا بد من هذين، وطبيعة مناسبة؛ وسماع الألفاظ ضار ونافع؛ فالوجه النافع أن يدور في مسامعه، ويغيب في قلبه، ويختم في صدره، فإذا طال مكثها تناكحت ثم تلاحقت، فكانت نتيجتها أكرم نتيجة، وثمرتها أطيب ثمرة؛ لأنها حينئذ تخرج غير مسترقة، ولا مختلسة ولا مُغتصبة، ولا دالة على فقر، إذ لم يكن القصد إلى شيء بعينه، والاعتماد عليه دون غيره، وبين الشيء إذا عشش في الصدر، ثم باض ثم فرخ ثم نهض، وبين أن يكون الخاطر مختارًا، واللفظ اعتسافًا واغتصابًا، فرقٌ بيّن».

وقال: (إن كلام الناس في طبقات كما أن الناس أنفسهم في طبقات، فمن الكلام الجزل والسخيف، والمليح والقبيح، والخفيف والثقيل، وكله عربي، وبكل قد تكلموا، وبكل قد تمادحوا وتعايبوا».

وقد أعجب بما يستخدمه رواة الأخبار من السهولة فقال: «ورأيت عامتهم - فقد طالت مشاهدتي لهم- لا يقفون إلا على الألفاظ المتخيرة، والمعاني المنتخبة، وعلى الألفاظ العذبة، والمخارج السهلة، والديباجة الكريمة، وعلى الطبع المتمكن، وعلى السبك الجيد، وعلى كل كلام له ماء ورونق، وعلى المعاني إذا صارت في الصدور عمرتها، وأصلحتها من الفساد القديم، وفتحت للسان باب البلاغة، ودلت الأقلام على مدافن الألفاظ، وأشارت إلى حسان المعاني؛ ورأيت البصر بهذا الجوهر من الكلام في رواة الكتَّاب أعم، وعلى ألسنة حذاق الشعراء أظهر». يعْني: أن الجاحظ لا يرى للكاتب أن يستعمل من الألفاظ إلا ما يفهمه العامة؛ والكاتب يكتب ليُفهم

لا ليُعجم، ويتوخى المعاني الجديدة التي تصلح فساد القلوب، وتعمر بها الأفئدة والعقول.

قال الجرجاني في دلائل الإعجاز: واعلم أن من الكلام ما أنت تعلم إذا تدبرته أن لم يحتج واضعه إلى فكر وروية حتى انتظم، بل ترى سبيله في ضم بعضه إلى بعض سبيل من عمد إلى لآلٍ فخرطها في سلك لا يبغي أكثر من أن يمنعها التفرق، وكمن نَضَد أشياء بعضها على بعض لا يريد في نضده ذلك أن تجيء له منه هيئة أو صورة، بل ليس إلا أن تكون مجموعة في رأي العين، وذلك إذا كان معناك لا يحتاج أن تصنع فيه شيئًا غير أن تعطف لفظًا على مثله كقول الجاحظ: «جنَّبك الله الشبهة، وعصمك من الحيرة، وجعل بينك وبين المعرفة نسبًا، وبين الصدق سببًا، وحبب إليك التثبيت، وزين في عينك الإنصاف، وأذاقك حلاوة التقوى، وأشعر قلبك عز الحق، وأودع صدرك برد اليقين، وطرد عنك ذل اليأس، وعرفك ما في الباطل من الذلة، وما في الجهل من القلة».

واسمع الآن هذه الجملة يسجع فيها الجاحظ سجع الحمام، قال في كتابه ذم العلوم ومدحها يصف القرآن: «حجة على الملحد، وتبيان للموحد، قائم بالحلال المنزل، والحرام المفصل، وفاصل بين الحق والباطل، وحاكم يرجع إليه العالم والجاهل، وإمام تقام به الفروض والنوافل، وسراج لا يخبو ضياؤه، ومصباح لا يخزن ذكاؤه، وشهاب لا بطفأ نوره، وبحر لا يُدرك غوره، ومعدن لا تنقطع كنوزه، ومعقل يمنع من الهلكة والبوار، ومرشد يدل على طريق الجنة والنار، وزاجر يصد عن المحارم، ويجير يوم التحاكم».

وكما يرى الجاحظ أن الواجب تخير اللفظ الكريم للمعنى الكريم، لم ير طرح الألفاظ السخيفة للتعبير عن المعاني السخيفة، كان يرى نقل عبارات العوام ونكات

الأعراب بألفاظها، وقد حشا كتابه البخلاء والحيوان بطائفة من ألفاظ عامة الطبقات في عصره، فعُدَّ ذلك في جملة إفضاله على اللغة أيضًا، قال: «ومتى سمعت -حفظك الله- بنادرة من كلام الأعراب، فإياك وأن تحكيها إلا مع إعرابها ومخارج ألفاظها، فإنك إن غَيَّرتها بأن تلحن في إعرابها، وأخرجتها مخرج كلام المولدين والبلديين، خرجت من تلك الحكاية وعليك فضل كبير. وكذلك إذا سمعت بنادرة من نوادر العوام، وملحة من ملح الحشوة والطَّغام[1]، فإياك أن تستعمل فيها الإعراب، وأن تتخير لها لفظًا حسنًا، أو تجعل لها من فيك مخرجًا سريًّا، فإن ذلك يفسد الإمتاع بها، ويخرجها من صورتها، ومن الذي أُريدت له، ويُذْهب استطابتهم إياها واستملاحهم له». وهو يرى «أن النبيل لا يتنبل كما أن الفصيح لا يتفصح؛ لأن النبيل يكفيه نبله عن التنبل، والفصيح تغنيه فصاحته عن التفصح، ولم يتزيد أحد قط إلا لنقص يجده في نفسه».

ووضع القاعدة الكلية لطالب البلاغة فقال له: «وقد علمنا أن من يقرض الشعر ويتكلف الإسجاع، ويؤلف المزدوج، ويتقدم في تحبير المنثور، وقد تعمل في المعاني، وتكلف إقامة الوزن، والذي تجود به الطبيعة وتعطيه النفس سهوًا رهوًا[2]، مع قلة لفظه وعدد هجائه -أحمد أمرًا، وأحسن موقعًا من القلوب، وأنفع للمستمعين من كثير خرج بالكد والعلاج، ولأن التقدم فيه، وجمع النفس له، وحصر الفكر عليه، لا يكون إلا ممن يحب السمعة، ويهوي الفَلْج[3] والاستطالة».

تخوّف الجاحظ من فساد كبير بدأ يعرض لبلاغة هذه اللغة عندما شرعت العرب بنقل كتب العلوم القديمة إلى العربية، وقد شاهد النقلة ضعافًا في البيان،

---

(١) الطغام، كسحاب: أوغاد الناس، والحشوة (بكسر الحاء وضمها): العوام.

(٢) الرهو: السير السهل، والسهو: السهل.

(٣) الفلج: الظفر والفوز كالإفلاج، والاسم بالضم كالفلجة.

واقرب إلى الركاكة في الألفاظ وسبكها، حتى أفسدوا المعاني وأبهموها فعميت على الناس، وكان يعتقد أن هذه العلوم لا يفهمها في الحقيقة إلا من عاناها مهما تأنق ناقلوها في نقلها. قال: «إن كتاب المنطق لو قرئ على جميع خطباء الأمصار وبلغاء الأعراب، لما فهموا أكثره، وكذلك كتاب أقليدس، وهو عربي وقد صُفّي، لو سمعه بعض الخطباء لما فهمه، ولا يمكن أن يفهمه من يريد تعلمه، لأنه يحتاج إلى أن يكون قد عرف جهة الأمر، وتعود اللفظ المنطقي الذي استخرج من جميع الكلام». وقال: «ويد الإنسان لا تكون إلا خرقاء، ولا تصير صَناعًا[1]، ما لم تكن المعرفة ثقافًا لها، واللسان لا يكون أبدًا ذاهبًا في طريق البيان، متصرفًا في الألفاظ، إلا بعد أن تكون المعرفة متخللة به، منقلة له، واضعة له في مواضع حقوقه، وعلى أماكن حظوظه».

وهاك الآن منزعه في الترجمة والنقل، وما ينبغي لهما من البلاغة، وما السبيل إليها: «وقال بعض من ينصر الشعر ويحوطه ويحتج له: إن الترجمان لا يؤدي أبدًا ما قال الحكيم على خصائص معانيه، وحقائق مذاهبه، ودقائق اختصاراته، وخفيات حدوده، ولا يقدر أن يوفيها حقوقها، ويؤدي الأمانة فيها، ويقوم بما يلزم الوكيل ويجب على الجريّ[2]، وكيف يقدر على أدائها وتسليم معانيها، والإخبار عنها، على حقها وصدقها، إلا أن يكون في العلم بمعانيها، واستعمال تصاريف ألفاظها، وتأويلات مخارجها، مثل مؤلف الكتاب وواضعه؛ فمتى كان -رحمه الله تعالى- ابن البطريق وابن ناعمة وأبو قرة وابن فهر وابن وهيلي وابن المقفع مثل أرسطاطاليس، ومتى كان خالد مثل أفلاطون. ولا بد للترجمان من أن يكون بيانه في نفس الترجمة، في وزن علمه في نفس المعرفة؛ وينبغي أن يكون أعلم الناس باللغة المنقولة والمنقول

(١) يقال رجل صنع اليدين بالكسر والتحريك وصنيع اليدين وصناعهما: حاذق في الصنعة من قوم صنعى الأيدي بضمة وبضمتين وبفتحتين وبكسرة وأصناع الأيدي.

(٢) الجري: الوكيل، للواحد والجمع والمؤنث، والرسول والأجير والضامن.

إليها، حتى يكون فيها سواءً وغاية؛ ومتى وجدناه أيضًا قد تكلم بلسانين، علمنا أنه قد أدخل الضيم عليهما؛ لأن كل واحدة من اللغتين تجذب الأخرى، وتأخذ منها وتعترض عليها، وكيف يكون تمكن اللسان منهما مجتمعين فيه، كتمكنه إذا انفرد بالواحدة، وإنما له قوة واحدة، فإن تكلم بلغة واحدة استفرغت تلك القوة عليها؛ وكذلك إن تكلم بأكثر من لغتين على حساب ذلك تكون الترجمة لجميع اللغات، وكلما كان الباب من العلم أعسر وأضيق، والعلماء به أقل، كان أشد على المترجم وأجدر أن يخطئ فيه، ولن تجد مترجمًا يفي بواحد من هؤلاء العلماء. هذا قولنا في كتب الهندسة والتنجيم والحساب واللحون؛ فكيف لو كانت هذه الكتب كتب دين وإخبار عن الله عز وجل؟».

وما عجب أبو عثمان من رجل عرف لغتين، فكان إمامًا في البلاغة، غير موسى بن سيار الأسواري، قال: إنه كان من أعاجيب الدنيا، وكانت فصاحته بالفارسية في وزن فصاحته العربية، وكان يجلس في مجلسه المشهور به، فيقعد العرب عن يمينه، والفرس عن يساره، فيقرأ الآية من كتاب الله، ويفسرها للعرب بالعربية، ثم يحول وجهه إلى الفرس فيفسرها لهم بالفارسية، فلا يدري بأي لسان هو أبين، واللغتان إذا التقتا في اللسان الواحد أدخلت كل واحدة منهما الضيمَ على صاحبتها.

وقال في معنى الترجمة ومسخها بلاغة الشعر المنقول، وكيف يُحيل النقل المباني والمعاني: «وفضيلة الشعر مقصورة على العرب، وعلى من تكلم بلسان العرب. والشعر لا يستطاع أن يترجم، ولا يجوز عليه النقل، ومتى حُوّل تقطع نظمه، وبطل وزنه، وذهب حسنه، وسقط موضع التعجب منه، وصار كالكلام المنثور؛ والكلام المنثور المبتدأُ على ذلك أحسن من المنثور المنقول من موزون الشعر. وقد نُقلت كتب الهند، وتُرجمت حِكم اليونان، وحوّلت آداب الفرس، فبعضها ازداد حسنًا، وبعضها

ما انتقص شيئًا، ولو حُوّلت حكمة العرب لبطل ذلك المعجز الذي هو الوزن، ثم إنهم لو حولوها لم يجدوا في معانيها شيئًا لم تذكره العجم في كتبهم التي وضعت لمعاشهم وفطنهم وحكمهم. وقد نقلت هذه الكتب من أُمة إلى أُمة، ومن قرن إلى قرن، ومن لسان إلى لسان، حتى انتهت إلينا، وكنا آخر من ورثها ونظر فيها».

إنا إذا تأملنا قول الجاحظ في النقل، وما يجب أن يكون عليه الناقل من المقدرة، لينقل فيجيد من لغة إلى لغة ثانية، نسجل أن رأيه هذا لا يختلف عن أحدث الآراء في عصرنا، وكأنك إذا تدبرت ما قاله في هذا المعنى، تقرأُ رأيًا لرجل أنفق عمره في الترجمة والنقل، ولا تبعد كثيرًا عن محجة الصواب إذا حكمت بعد ذلك أن الجاحظ كان يترجم إلى لغته عن لغة أخرى في الأحايين. والأرجح أن هذه اللغة هي الفارسية، وفي ذلك إشارات في البيان والتبيين، وقد رأيناه يعجب من موسى بن سيار ببلاغته في اللغتين عند تفسيره القرآن للعرب والفرس، وصعب أن يحكم هذا الحكم الصريح من لم يحسن اللغتين، ومن لم يكن جهبذًا في البلاغة وما يقتضي لأعلى طبقة منها من اللفظ الجزل المأنوس والسبك المتين.

جدله ونقده:

لا يرى الجاحظ، صاحب العقيدة الراسخة والإيمان الصحيح، طريق النجاة للناس، إلا إذا فهموا الإسلام على حقيقته كما فهمه هو، وكان أبدًا حربًا على من خالفوا الدين، وحربًا على المنحدين والكافرين. أنحى على الشيع التي انفصلت من الإسلام، وعبثت بشيء من فروعه، فردَّ على المشبهة وعلى الجهمية وعلى العثمانية وعلى الرافضة وغيرهم، وجادل اليهود والنصارى من أهل الكتاب بالتي هي أحسن. وأهم ما اهتم به الرد على الزنادقة والمانوية والمرتدين، والطعن على من

حاولوا من أرباب النحل القديمة أن يعيدوا في ملتهم من امتلوا ملة الإسلام[١]؛ مثل رده على من ألحد في كتاب الله، ورده الذي عنن له [٢] «بصيرة غنام المرتد» وغير ذلك.

كتب الجاحظ كل هذا، وبعض المتنطسين من الحشوية، أو المتنطعين في الدين والمتنمسين[٣] فيه، يعدونه مقصرًا ويطلقون ألسنتهم فيما كتب، وليس لهم ما يؤيد افتراءهم عليه غير دعواهم المجردة، وقاموا في عصره وبعده يكذبون عليه، ومنهم من بلغت به القحة أن يخرجه من الدين، ومنهم من بلغ به السخف أن يخرجه من الإنسانية، ومن الغريب أن أولئك الغُيَّر على الإسلام لم تحدثهم أنفسهم أن يكتبوا فصلًا واحدًا في دفع أعدائه؛ وراحوا، ورأس مالهم الباطل، يعترضون من دون حياء على من كان في مثل قوة الجاحظ في تصديه لرد شبه المخالفين. أما أرباب العقول المستنيرة، المنزهون عن الأغراض في الحكم على الجاحظ، فقد كان يعيدون ظهوره في ذاك العصر، عصر تسرب الشبهات والمجاذبات الدينية، نعمة عظيمة على الإسلام والمسلمين.

وأغرب من هذا دعوي بعض أصحاب الجرح والتعديل أن الجاحظ كان إذا روي حجج من يجادلهم من النصاري أوردها برمتها، وقصر عمد في أقوالهم، تاركًا بعض النواحي الضعيفة في جوابه، وهو يرمي بروايته مقالات المخالفين ثم نقضها إلى أن ينصف الخصم فيضع أمام الأنظار حججه، ثم ينقدها بتؤدة لا حدة بها ولا غضب، وقد يسخر ممن ينقده ويتهكم به، وبمن يقول بقوله تهكم أدب وتهذيب. ورسالته في الرد على النصارى تنادي بأفصح لسان أن خصومه ظلموه وما أنصفوه،

---

(١) الملة بالكسر: الشريعة أو الدين. وتملل وامتل: دخل فيها.

(٢) عنّ الكتاب وعنته وعنونه وعناه: كتب عنوانه.

(٣) تنطس في الكلام: تأنق فيه، وتنطع في كلامه إذا تفصح فيه وتعمق. التنميس: التلبيس والاحتيال.

وما كان لمؤلف أن يضع تأليفه ليرضي به حتى المتعنتين، ومراض العقول وأصحاب الأهواء. ولولا أن الجاحظ كان الحجة الثبت في هذا الموضوع بين علماء عصره، ما حثه الفتح بن خاقان الوزير العالم على التعجيل بتأليف رده على النصارى. «وهَمُّكَ من رجل، وناهيك من عالم، وشرعك[1] من صدوق» إن جادل أفحم، وإن ألف كان الأعلم والأحكم.

أجاب الجاحظ بعض من شنعوا عليه لنقله كلام المخالفين ثم تفرغه للرد عليهم بقوله: «وعبتني بحكاية قول العثمانية والضرارية كما سمعتني أقول في أول كتابي: وقالت العثمانية والضرارية، كما سمعتني أقول: قالت الرافضة والزيدية، فحكمت عليَّ بالنَّصْب لحكايتي، فهلا حكمت عليَّ بالتشيع لحكايتي، وهلا كنت عندكَ من الغالية لحكايتي حجج الغاية، كما كنت عندك من الناصبة لحكايتي قول الناصبة. وقد حكينا في كتابنا قول الأباضية والصُّفرية، كما حكينا قول الأزارقة والزيدية، وعلى هذه الأركان الأربعة بنت الخارجية وكل اسم سواها فإنما هو فرع ونتيجة، واشتقاق منها ومحمول عليها، وإلا كنا عندك من الخارجية، كما صرنا عندك من الضرارية والناصبة، فكيف رضيت بأن تكون أسرع من الشيعة إلى أعراض الناس من الخارجية، اللهم إلا أن تكون وجدت حكايتي عن العثمانية والضرارية أشبع وأجمع، وأتم وأجود، وعبتني بكتاب العباسية، فهلا عبتني بحكاية مقالة من أبى وجوب الإمامة، ومن يرى الامتناع من طاعة الأئمة الذين زعموا أن ترك الناس سدًى بلا قيم أردّ عليهم، وهملًا بلا راع أربح لهم، وأجدر أن يجمع لهم ذلك بين سلامة العاجل وغنيمة الآجل».

---

(١) يقال مررت برجل شرعك من رجل: أي حسبك، يستوي فيه الواحد والجميع، ومثله: وهذا رجل همك من رجل وهمتك من رجل: حسبك.

وفي كتابه حجج النبوة: «والعجب من ترك الفقهاء تمييز الآثار، وترك المتكلمين القول في تصحيح الأخبار، وبالأخبار يعرف الناس النبي من المتنبي، والصادق من الكاذب، وبها يعرفون الشريعة من السنة، والفريضة من النافلة، والحظر من الإباحة، والاجتماع من الفرقة، والشذوذ من الاستفاضة، والرد من المعارضة، والنار من الجنة، وعامة المفسدة والمصلحة».

وقال: «إن كل منطيق محجوج، والحجة حجتان: عيان ظاهر، وخبر قاهر. فإذا تكلمنا في العيان وما يفرغ منه، فلا بد من التعارف في أصله والتعارف في فرعه، فالعقل هو المستدل، والعيان والخبر هما علة الاستدلال وأصله، ومحال كون الفرع مع عدم الأصل، ويكون الاستدلال مع عدم الدليل، والعقل مضمن بالدليل، والدليل مضمن بالعقل، ولا بد لكل واحد منهما من صاحب، وليس لإبطال أحدهما وجه مع إيجاب الآخر. والعقل نوع واحد، والدليل نوعان: أحدهما شاهد عيان يدل على غائب، والآخر مجيء خبر يدل على صدق».

كان الجاحظ محيطا بما يجول في قلوب أولئك الناقدين الناقمين، يعرف أنهم يبغون له العثرة، ويقفون له كل حين بالمرصاد فيترفع عن مجادلتهم، لوقوفه على نياتهم، ومثل هاته الطبقة كان على الأغلب يهزأ بها ويرحمها وليس بعد الجهل ذنب، كما قيل: ليس بعد الكفر ذنب. وقد وصف من كانوا يعترضون سبيله ويحسدونه حسد لؤم وغباوة، بقوله: «إني ربما ألفت الكتاب المحكم المتقن في الدين والفقه والرسائل والسيرة والخطب والخراج والأحكام، وسائر فنون الحكمة، وأنسبه إلى نفسي، فيتواطأ على الطعن فيه جماعة من أهل العلم، بالحسد المركب فيهم، وهم يعرفون براعته ونصاحته[1]، وأكثر ما يكون هذا منهم، إذا كان الكتاب مؤلفًا لملك

(١) نصح: خلص.

معه القدرة على التقديم والتأخير، والحط والرفع، والترهيب والترغيب، فإنهم يهتاجون عند ذلك اهتياج الإبل المغتلمة[١]؛ فإن أمكنتهم الحيلة في إسقاط ذلك الكتاب عند السيد الذي ألف له، فهو الذي قصدوه وأرادوه، وإن كان السيد المؤلف فيه الكتاب نحريرًا نقابًا ونقريسًا[٢] بليغًا، وحاذقًا فطنًا، وأعجزتهم الحيلة سرقوا معاني ذلك الكتاب وألفوا من أعراضه وحواشيه كتابًا وأهدوه إلى ملك آخر، ومَتوا[٣] إليه به، وهم قد ذموه وثلبوه، لما رأوه منسوبًا إليَّ وموسومًا بي. وربما ألفت الكتاب الذي هو دونه في معانيه وألفاظه، فأترجمه باسم غيري، وأحيله على من تقدمني عصره، مثل ابن المقفع والخليل وسلم صاحب الحكمة ويحيى بن خالد والعتابي، ومن أشبه هؤلاء من مؤلفي الكتب، فيأتيني أولئك القوم بأعيانهم، الطاعنون على الكتاب الذي كان أحكم من هذا الكتاب، لاستنساخ هذا الكتاب وقراءته عليَّ، ويكتبونه بخطوطهم، ويصيرونه إمامًا يقتدون به ويتدارسونه بينهم، ويتأدبون به ويستعملون ألفاظه ومعانيه في كتبهم وخطاباتهم، ويروونه عني لغيرهم من طلاب ذلك الجنس، فتثبت لهم به رياسة يأتم بهم قوم فيه؛ لأنه لم يترجم باسمي، ولم ينسب إلى تأليفي».

هكذا سبر الجاحظ عقول حاسديه بمسبار علمه، وضحك وأضحك من لؤمهم وغبائهم، وأبت نفسه أن يحاورهم، وهو جدّ عارف بقدر ما يكتب، وبما يرمي إليه من المقاصد في وضع أسفاره. ولطالما وطَّن نفسه على استماع سخف السخفاء في أحكامهم المتجانفة[٤] عن الحق، قال: «لأن كل من التقط كتابًا جامعًا،

---

(١) المغتلمة من الإبل: التي غلبت عليها شهوة الضراب.

(٢) النقاب بكسر النون: الرجل العلامة، أو النافذ في الأمور كما في الأساس، والتقريس بكسر النون أيضًا: الطبيب الماهر النظار المدقق كالنقرس.

(٣) مت إليه بحرمة متًّا: توسل بقرابة أو دالة.

(٤) تجانف: مال.

وبابًا من أمهات العلم مجموعًا، كان له غنمه، وعلى مؤلفه غُرمه، وكان له نفعه، وعلى صاحبه كدّه، مع تعرضه لمطاعن البغاة، ولاعتراض المنافسين، ومع عرضه عقله المكدود على العقول الفارغة، ومعانيه على الجهابذة، وتحكيمه فيه المتأولين والحسدة». وبديهي أن المتأولين والحسدة لا يرضيهم منه إلا أن ينقطع عن التأليف ليساويهم في قصورهم، ولذلك من الطبيعي أن لا يناقشهم لأنهم طلقوا المنطق في حواره، وأبهموا وما أبانوا في وجوه اعتراضهم على أفكاره، والكلام المجمل يحتاج إلى تفصيل، وهم عاجزون عن الإدلاء بحق، وهو في غنية عن أن يعرض لكلام من قتلهم الحسد.

على أنه عرض في الحيوان لأولئك الذين ينالون منه بالباطل بقوله: «ولولا سوءُ ظني بمن يظهر التماس العلم في هذا الزمان، ويظهر اصطناع الكتب في هذا الدهر، لما احتجت في مداراتهم واستمالتهم، وتوفيق نفوسهم، وتشجيع قلوبهم، مع كثرة فوائد هذا الكتاب، إلى هذه الرياضة الطويلة، وإلى كثرة هذا الاعتذار، حتى كأن الذي أُفيدهم إياه أستفيده منهم، وحتى كأن رغبتي في صلاحهم، رغبة من رغب في دنياهم».

وقال في غرض كتاب آخر: «وقد جمعنا في هذا الكتاب جملًا التقطناها من أفواه أصحاب الأخبار، ولعل بعض من لم يتسع في العلم، ولم يعرف مقادير الكلام، يظن أن تكلفنا له من الامتداح والتشريف، ومن التزيد والتجويد، ما ليس عنده، ولا يبلغه قدره. كلّا والذي حرَّم التزيد[1] على العلماء، وقبح التكلف عند الحكماء،

(١) التزيد في الحديث: الكذب.

وبهرج[١] الكذابين عند الفقهاء، لا يظن هذا إلا من ضلَّ سعيه». وما أحلى هذا القسم وما أجمل مغزاه.

ولما كان المعتزلة يتشددون في الحديث وتأويله وروايته، ويردون كثيرًا مما لم يثبت من طرق موثوق بصحتها، ويسمون المكثرين منه على علاته الحشوية، أبت نفس الجاحظ بالضرورة أن يكون في الحديث حاطب[٢] ليل، فما كان من الأحاديث مرضي الإسناد الصحيح المخرج قَبِله، وما كان مسخوط[٣] الإسناد فاسد المخرج نبذه. وكان الشهاب الزهري يقول عن الحديث وروايته: يخرج الحديث من عندنا شبرًا، ويعود في العراق ذراعًا. وكان مالك بن أنس يقول: إذا جاوز الحديث الحرَّتين ضعفت شجاعته. وكان يسمي الكوفة دار الضرب؛ لأنها تضع الأحاديث كما تضرب النقود. وكان أحمد بن حنبل يشك في التفسير ويقول: ثلاثة ليس لها أصل: التفسير والملاحم والمغازي.

هكذا روى أبو عثمان الحديث وأرواه، وفهم (تأويل الأحاديث، وأي ضرب يكون مردودًا، وأي ضرب منها يكون متأوّلًا، وأي ضرب منها يقال إن ذلك إنما هو حكاية عن بعض القبائل). وقال: «لولا مكان المتكلمين لهلكت العوام واختطفت واسترقت، ولولا المعتزلة لهلك المتكلمون».

غلب الصدق على الجاحظ حتى ليتحاشى الحط على أحد من أهل الملل والنحل، وما جوّز التقول على من يخالفه أيًّا كان وكانت نحلته، (ولم يذكر محاسن

(١) البهرجة: أن يعدل بالشيء عن الجادة القاصدة إلى غيرها.
(٢) حاطب ليل: مخلّط في كلامه.
(٣) المسخوط: المكروه.

الخوارج، ولم يخبر عن مآثرهم لأنه يتولاهم[1]، ولا لأنه يميل إليهم، ولكنه خبر أنهم مع مروقهم من الدين وخروجهم عنه وجهلهم به، أحسن اقتصادًا من الرافضة، فخبر عن توقيهم للكذب على من عاداهم، وجرأة الرافضة على الكذب على أعدائهم، وخبر عن شعر الخوارج ونواحهم على ذنوبهم، ووصف أصحابهم بالنسك والفضل، ثم خبر عن شعر عمران بن حطان وحبيب بن خُدرة وأشباههما من شعراء الخوارج). قال الخياط: «وهذا شعر السيد فانظروا فيه لتعلموا صدق الجاحظ، وأنه لم يتزيد على الرافضة حرفًا واحدًا، وقال: إن الجاحظ بيَّن في كتاب فضيلة المعتزلة أن الرافضة يقتطعون آل أبي طالب عن العلم والعمل جميعًا، ويوهمونهم أن المعاصي لا تضرهم، وأن الواحد منهم يشفع فيمن أراد أن يشفع، وأنه لم يسلم جلة أصحاب رسول الله من المهاجرين والأنصار من شتمهم وعداوتهم، ولم يسلم من تولوه من آل علي من تثبيطهم عن العلم، وتزهيدهم في العمل الصالح المقرّب لهم إلى الله، فلم ينج منهم ولي ولا عدو». ومن أجل هذا قال المسعودي في كتب الجاحظ: إنها حسنة (إن لم تدع إلى نَصْب)؛ وأهل النصب هم المتدينون ببغضة علي بن أبي طالب فإنهم نصبوا له؛ أي عادوه ومنهم الخوارج. والمعتزلة يختلفون في أمير المؤمنين عثمان بعد الأحداث التي أحدثها، وأكثرهم تولاه وتأول له؛ ومعظمهم على البراءة من معاوية وعمرو بن العاص ومن شايعهما، ولا نعرف السر في انحرافهم عن بني أمية، مع أن المعتزلة كانوا معتدلين في الحكم على عليّ بن أبي طالب، يعطونه حقه من دون زيادة، ومعاوية وآله وأنصاره جمعوا شمل الإسلام. ولا نعتقد مع هذا أن رسالة النابتة التي نسبت إليه وفيها إقذاع بالأمويين هي من تأليفه، كما لا نعتقد أن كتاب التاج وكتاب الأخلاق هما له أيضًا.

---

(١) تولاه: اتخذه وليًا.

يقول شيخنا طاهر الجزائري: إن الجاحظ قد يسلك طريق التمويه كما سجل عليه ذلك بعض عصريه من أبناء نحلته كأبي جعفر الإسكافي. وتمويه الجاحظ تمويه عاقل ذي بصيرة، إذا موّه يكاد يظهر الحق من خلال تمويهه، وقد يصرح بغير ذلك في موضع آخر؛ فالعاقل ذو البصيرة ينتفع بكلامه كيف كان. ونقل ابن أبي الحديد أن الجاحظ ألّف كتاب العثمانية انتصر فيه للخلفاء الراشدين إلا أنه أظهر ما يشعر بالنصب، لما اقتضته طينة البصرة على زعم بعضهم، فتصدى له من أبناء نحلته الإمام أبو جعفر الإسكافي فنقض كتابه، وأطلق لسانه في الجاحظ؛ ومن ذلك قوله: القول ممكن، والدعوى سهلة سيما على مثل الجاحظ... قوله لغو ومطلبه سجع، وكلامه لعب ولهو؛ يقول الشيء وخلافه، ويحسن القول وضده. قال قاضي القضاة عبد الجبار في طبقات المعتزلة: نقض الإسكافي كتاب الجاحظ في العثمانية في حياته، فدخل الجاحظ الوراقين ببغداد فقال: من هذا الغلام السوادي الذي يلغني أنه تعرض لنقد كتابي؟ وأبو جعفر جالس، فاختفى منه حتى لم يره. وكان أبو جعفر علويَّ الرأي محققًا منصفًا، قليل العصبية، ألف سبعين كتابًا في علم الكلام. اهـ.

وقول أستاذنا: إن الجاحظ قد يعمد إلى التمويه، وتمويهه تمويه العاقل، كلام يحتاج إلى شرح قليل. فإن الجاحظ قد ينقل بعض المسائل على علاتها لا يعرض لها بنقد كما وقع له أن نال من أميري المؤمنين عمر بن عبد العزيز ومعاوية بن أبي سفيان، فنسب إلى معاوية في رسالته القيان ما يقدح في عدالته، وما كان معاوية بالمستهتر ولا بالمتهتك، ولم يجرؤ خصومه أن يتهموه بشيء من ذلك. وغريب من أبي عثمان إطلاقه هذا القول مع حبه للحق حتى في مقارعة أعدائه. ولقد شهدناه يدافع عن الخوارج لما أعجبه نسكهم وامتناعهم عن الكذب على من خالفهم، وإن لم يقل بقولهم في إكفار من رضي بالتحكيم، وحط من الرافضة لما رآهم يضعون ما لا يحل

من الكذب على الرسول وعلى مخالفيهم، وأصلاهم نارًا من نقده لما وضعوا آل علي في منزلة لا يرضاها العقلاء من ذريته، فقالوا بعصمتهم وأن المعاصي لا تضرهم.

ومن هذا الضرب إشارته إلى ما وقع بين أحمد بن حنبل والمعتصم في مسألة خلق القرآن. قال الجاحظ: وبعد فنحن لم نكفر إلا من أوسعناه حجة، ولم نمتحن إلا أهل التهمة، وليس كشف المتهم من التجسس، ولا امتحان الظنين من هتك الأستار، ولو كان كل كشف هتكًا، وكل امتحان تجسسًا، لكان القاضي أهتك الناس لستر، وأشد الناس كشفًا لعورة، والذين خالفوا في العرش، إنما أرادوا نفي التشبيه فغلطوا، والذين أنكروا أمر الميزان إنما كرهوا أن تكون الأعمال أجسامًا وأجرامًا غلاظًا، فإن كانوا قد أصابوا فلا سبيل عليهم، وإن كانوا قد أخطئوا فإن خطأهم لا يتجاوز بهم إلى الكفر، وقولهم وخلافهم بعد ظهور الحجة تشبيه للخالق بالمخلوق، فبين المذهبين أبين الفرق. وقد قال صاحبكم للخليفة المعتصم يوم جمع الفقهاء والمتكلمين والقضاة والمحصلين إعذارًا وإنذارًا: امتحنتني وأنت تعرف ما في المحنة وما فيها من الفتنة، ثم امتحنتني من بين جميع هذه الأمة. قال المعتصم: أخطأت بل كذبت. وجدت الخليفة قبلي قد حبسك وقيدك، ولو لم يكن حبسك على تهمة لأمضى الحكم فيك، ولو لم يَخَفْك على الإسلام ما عرض لك، فسؤالي إياك عن نفسك ليس من المحنة ولا من طريق الاعتساف، ولا من طريق كشف العورة، إذ كانت حالك هذه الحال، وسبيلك هذه السبيل. وقيل للمعتصم في ذلك المجلس: ألا تبعث إلى أصحابه حتى يشهدوا إقراره ويعاينوا انقطاعه، فينقض ذلك استبصارهم فلا يمكنه جحد ما أقر به عندهم؟ فأبى أن يقبل ذلك وأنكره، إلى آخر ما ذكر.

مذهب الجاحظ في الدين كمذهبه في العلم، مذهب العقل وصدق الحس لا يُحكّمُ غيرهما، ولا يحْكُمُ بسواهما. لا جرم أن اختلاف أهل السنة والجماعة مع المعتزلة اختلاف لا يعتد به كثيرًا، والمسائل المختلف فيها لا تعبث بأصل من أصول الدين، فمن قال مثلًا بأن الله يُرى في الآخرة له أدلته من الكتاب، ومن قال بأن الله لا يُرى تأول بعض الآيات لإثبات قضيته، ومن قال: إن الفاسق يخلد في النار أو لا يخلد، فلا يتعلق على كلامه كبير أمر في الدين. يقول ابن حزم: «إن أقرب فرق المعتزلة إلى أهل السنة أصحاب الحسين بن محمد النجار وبشر بن غياث المريسي، ثم أصحاب ضرار بن عمرو، وأبعدهم أصحاب أبي هذيل».

ومن ثبتت له كالجاحظ كل هذه الحسنات في الدفاع عن الدين، لا يضيره إذا رأى رأي غيره في مسائل طفيفة. والناس منذ كانت الدنيا لا يتفقون في كل الأمور. فقد شهدنا الجاحظ نفسه يخالف أحد أساتذته في بعض الآراء فما قدح ذلك فيهم، ولا عُدّ عمله من سوء الأدب. وإذا أدركنا أن معظم ما كتبه في الدين قد فُقد نتخيل مبلغ سعة الدعاية التي دُبرت عليه وعلى كتبه خاصة وعلى المعتزلة عامة. يقول ابن أبي الحديد: إن المرتضى لما راى الجاحظ وافق غرضه مرة استجاد قوله فكناه، مع أنه ما كناه أصلًا قال: «فسبحان الله ما أشد حب الناس لعقائدهم».

رأينا الجاحظ يجادل أهل الكتاب بالحسنى فينفي عن النصارى لما جاء يحاجهم معرفة الفلسفة، ويقول: ليس لهم «إلا حكمة الكف من الخرط والنجر والتصوير وحياكة البزيون[1]. وكُتب المنطق والكون والفساد، وكتاب العُلوي والمجسطي والهندسة والطب ليست للنصارى، بل هي لأرسطاطاليس وبطليموس وأقليدس وجالينوس وديمقراط وابقراط وغيرهم». «هؤلاء الناس من أُمة قد بادوا وبقيت

(١) البزيون: السندس.

عقولهم، وهم اليونان؛ ودينهم غير دينهم، وادبهم غير أدبهم: أولئك علماء وهؤلاء صناع؛ أخذوا كتبهم لقرب الجوار، وتداني الدار، فمنها ما أضافوه إلى أنفسهم؛ ومنها ما حولوه إلى ملتهم». وقال: «إن أكثر من قتل من الزنادقة -ممن كان ينتحل الإسلام ويظهره- هم الذين آباؤهم وأمهاتهم نصارى، على أنك لو عددت اليوم أهل الظنة، ومواضع التهمة لم تجد أكثرهم إلا كذلك». قال: «ومما عظَّم النصارى في قلوب العوام، وحبّبهم إلى الطّغام، أن منهم كُتّاب السلاطين، وفراش الملوك، وأطباء الأشراف، والعطارين والصيارفة. ولا تجد اليهودي إلا صباغًا أو دباغًا أو حجامًا أو قصابًا أو شعابًا[١]».

وذكر أن المسلمين يبجلون النصارى أكثر من اليهود؛ لأن النصرانية كانت فاشية في العرب وعليها غالبة، إلا مُضَر، فلم تغلب عليها يهودية ولا مجوسية، ولم تفشُ فيها النصرانية إلا ما كان من قوم منهم، نزلوا الحيرة يسمون العبَّاد، فإنهم كانوا نصارى وهم مغمورون[٢] مع نبذ[٣] يسير في بعض القبائل، ولم تعرف مضر إلا دين العرب ثم الإسلام، وغلبت النصارى على ملوك العرب وقبائلها: على لخم وغسان والحارث بن كعب بنجران وقُضاعة وطيء في قبائل كثيرة وأحياء معروفة، ثم ظهرت في ربيعة فغلبت على ثعلب وعبد القيس وأفناء[٤] بكر ثم في آل ذي جَدَن[٥] خاصة. وجاء الإسلام وليست اليهودية بغالبة على قبيلة، إلا ما كان من ناس من اليمانية، ونبذ يسير من جميع إياد وربيعة، ومعظم اليهودية إنما كان بيثرب وحِمْيَر وتيماء ووادي القرى في ولد هارون دون العرب، فعطف قلوب دهماء العرب على

(١) الشعاب: الملثم وحرفته الشعابة.

(٢) المغمور: الخامل.

(٣) النبذ: الشيء القليل اليسير.

(٤) الفنأ محركة: الكثرة، وبالسكون: الجماعة.

(٥) قيل من أقبال حمير.

النصاري، المُلْكُ الذي كان فيهم، والقرابة التي كانت لهم، ثم رأت عوامنا أن فيهم ملكًا قائمًا، وأن فيهم عربًا كثيرة، وأن بنات الروم وَلَدن لملوك الإسلام، وأن في النصاري متكلمين وأطباء ومنجمين، فصاروا بذلك عندهم عقلاء وفلاسفة حكماء، ولم يروا ذلك في اليهود.

وقال في وصف حال الفلسفة عند اليهود: «إنهم يرون أن النظر في الفلسفة كفر، والكلام في الدين بدعة، وأنه مجلبة لكل شبهة، وأنه لا علم إلا ما كان في التوراة وكتب الأنبياء، وأن الإيمان بالطب وتصديق المنجمين من أسباب الزندقة، والخروج إلى الدهرية، والخلاف على الأسلاف وأهل القدوة، حتى إنهم ليهرجون المشهور بذلك، ويحرمون كلام سالك سبيل أولئك».

وقال في علاقة المسلمين بالنصارى: «على أن هذه الأمة لم تبتلِ باليهود ولا المجوس ولا الصابئين، كما ابتليت بالنصارى، وذلك أنهم يتبعون المتناقض من أحاديثنا، والضعيف الإسناد من روايتنا، والمتشابه من آي كتابنا، ثم يخلون بضعفائنا ويسألون عنها عوامنا، مع ما قد يعلمون من مسائل الملحدين والزنادقة الملاعين، وحتى مع ذلك ربما تبرءوا إلى علمائنا وأهل الأقدار منا، ويشْغَبون على القوى، ويُلَبّسون على الضعيف، ومن البلاء أن كل إنسان من المسلمين يرى أنه متكلم، وأنه ليس أحد أحق بمحاجة الملحدين من أحد».

وتفسير هذا أن الجاحظ عُني بالرد على من نال من الإسلام، فلم يتخل حتى عن الكتابيين، وأحسن تعليل صلات النصارى بالمسلمين، واعترف بأن من دانوا بالنصرانية يعرفون كيف يدخلون الشبه على عقول العوام من المسلمين، وقال: إن النصارى ليسوا أهل حكمة، وإن الحكمة خاصة باليونان، وإنما النصارى أهل صناعات وقع إلى بلادهم شيء من علوم اليونانيين، واليونان مخالفون للنصارى في

دينهم وتاريخهم وأدبهم، واليهود لا يعرفون شيئًا غير التوراة، وينبذون ما عداها من العلوم، وصناعاتهم حقيرة، وصناعات النصارى شريفة، وإنه ما عطف قلوب جمهور المسلمين على أبناء النصرانية إلا الصلات الكثيرة التي تأصلت بين النصارى والعرب بالمصاهرة والاختلاط ولأن فيهم ملكًا قائمًا.

كثر الزنادقة في عهد الجاحظ واهتم لذلك الخلفاء، فقال هو بالضرب على أيديهم قائلًا: «أجمعوا على أن قتل البعض إحياء للجميع، وأن إصلاح الناس في إقامة جزاء الحسنة والسيئة، ولكم في القصاص حياة، والقَوَد حياة؛ وهذا شيء تعمل به الأمم كلها غير الزنادقة، والزنادقة لم تكن قط أُمة، ولا كان لها مُلك ومملكة، ولم تزل بين مقتول وهارب ومنافق».

وأجاب من قال له: إن الزنادقة كانوا حرصى على كتب المقالات بالورق النقي الأبيض، والحبر الأسود واستجادة الخط: «إن إنفاق الزنادقة على تحصيل الكتب، كإنفاق النصارى على البيع، ولو كانت كتب الزنادقة كتب حكم، وكتب فلسفة، وكتب مقاييس، وسنن نبيين وتبيين، أو لو كانت كتبهم كتبًا تعرف الناس أبواب الصناعات، أو سبل الكسب والتجارات، أو كتب ارتفاقات ورياضات، أو بعض ما يتعاطاه الناس من الفطن والآداب؛ وإن كان ذلك لا يقرب من غنًى ولا يبعد من مأثم؛ لكانوا ممن قد يجوز أن يظن بهم تعظيم البيان، والرغبة في التبيين، ولكنهم ذهبوا فيها مذهب الديانة على طريق تعظيم الملة، فإنما إنفاقهم في ذلك، كإنفاق المجوس على بيت النار، وكإنفاق النصارى على صلبان الذهب، وكإنفاق الهند على سَدَنة البددة[1]... والذي يدل على ما قلنا أنه ليس في كتبهم مثل سائر، ولا خبر

(١) البد: الصنم معرب بت (ج) بددة وأبداد بيت الصنم، والسدنة واحدها سادن وهو خادم الصنم، وأطلق في الإسلام على خادم الكعبة.

طريف، ولا صنعة أدب، ولا حكمة غريبة، ولا فلسفة، ولا مسألة كلامية، ولا تعريف صناعة، ولا استخراج آلة، ولا تعليم فلاحة، ولا تدبير حرب، ولا منازعة عن دين، ولا مناضلة عن نحلة، وجلُّ ما فيها ذكر النور والظلمة، وتناكح الشياطين، وتسافد العفاريت... لا ترى فيها موعظة حسنة، ولا حديثًا مونقًا، ولا تدبير معاش، ولا سياسة عامة، ولا ترتيب خاصة، فأي كتاب أجهل، وأي تدبير أفسد من كتاب يوجب على الناس الإطالة والتخرج بالديانة على جهة الاستبصار والمحبة، وليس فيه صلاح معاش ولا تصحيح دين والناس لا يحبون إلا دينًا أو دنيا... وكل دين يكون أظهر فسادًا احتاج من الترقيع والتمويه، ومن الاحتشاد له، والتغليظ فيه، إلى أكثر، وقد علمنا أن النصرانية أشد انتشارًا من اليهودية تعبدًا، فعلى حسب ذلك يكون تريدهم في توكيده، واحتفالهم في إظهار تعليمه».

وقال فيهم وفيمن يحب مشاكلتهم: «وربما سمع أحدهم ممن لا معرفة عنده ولا تحصيل له أن الزنادقة ظرفاء، وأنهم عقلاء وأدباء، وأنهم عباد، وأصحاب اجتهاد، وأن لهم البصائر في دينهم، والبذل لمهجهم، وأن هناك علمًا وتمييزًا، وإنصافًا وتحصيلًا، فينزو نحوهم نزو المُهر الأرن[1]، ويحن إليهم حنين الواله العجول، ويتصبى فيهم صبابة العاشق المتيم، ويرى أنه متى اتهم بهم فقد قضى له بذلك كله، فلا يزال كذلك حتى يسهل في طباعه، ويرجح عنده أن يزعم أنه زنديق».

وقال في نعت الدهريين: «فإن الذي ينفي الرب، ويحيل الأمر والنهي، وينكر جواز الرسالة، ويجعل الطينة قديمة، ويجحد الثواب والعقاب، ولا يعرف الحلال والحرام، ولا يقرُّ بأن في جميع العالم برهانًا يدل على صانع ومصنوع، وخالق ومخلوق، ويجعل الفلك الذي لا يعرف نفسه من غيره، ولا يفصل بين الحديث والقديم، وبين

(١) الأرن: الهائج، وينزو: يثب.

المحسن والمسيء، ولا يستطيع الزيادة في حركته ولا النقصان من دورانه، ولا معاقبة للسكون بالحركة، ولا الوقوف طرفة عين، ولا الانحراف عن الجهة، هو الذي يكون به جميع الإبرام والنقض، ودقيق الأمور وجليها، وهذه الحكم العجيبة والتدابير المتقنة، والتآليف البديعة، والتركيب الحكيم، على حساب معلوم، ونسق معروف على غاية من حقائق الحكمة، وإحكام الصنعة. لأن الدهري ليس يرى أن في الأرض دينًا أو نحلة أو شريعة أو ملة، ولا يرى للحلال حرمة ولا يعرفه، ولا للحرام نهاية ولا يعرفه، ولا يتوقع العقاب على الإساءة، ولا يتوخى الثواب على الإحسان، وإنما الصواب عنده والحق في حكمه، أنه والبهيمة سيان، وأنه والسبع سيان، ليس القبيح عنده إلا ما خالف هواه، وإن مدار الأمر على الإخفاق والدَّرْك، وعلى اللذة والألم، وإنما الصواب فيما نال من المنفعة، وإن قَتَل ألف إنسان صالح لمنالة[1] الدرهم الرديء...».

وقال في المنانية أصحاب ماني: «إن أناسًا حين جهلوا الأسباب والمعاني، وقصروا في الخلقة عن تأمل الصواب والحكمة فيها خرجوا إلى الجحود والتكذيب حتى أنكروا خلق الأشياء، وزعموا أن كونها بإهمال لا صنعة فيه ولا تقدير، فكانوا بمنزلة عميان دخلوا دارًا قد بنيت أتقن بناء، وفرشت أحسن فرش، وأُعدَّ فيها من ضروب الأطعمة والأشربة والمآدب، ووضع كل شيء من ذلك في موضعه على صواب وتقدير، فجعلوا يسعون فيها محجوبة أبصارهم فلا يبصرون هيئة الدار وما أُعدَّ فيها، وربما عثر الواحد منهم بالشيء قد وضع في موضعه وأعد لشأنه، وهو جاهل بالمعنى فيه، فتذمر وتسخط وذم الدار وبانيها.

---

(١) النال والمنال والمنالة: مصدر نلت أنال.

فهذه حال هذا الصنف في إنكارهم ما أنكروا من الخلقة، وأنهم لما غبيت أذهانهم عن معرفة الأسباب والعلل في الأشياء، صاروا يجولون في هذا العالم كالحيارى لا يفقهون ما هو عليه في إتقان خلقته، وصواب هيئته، وربما وقف الواقف منهم على الشيء يجهل سببه والأرب فيه، فيسرع إلى ذمه وعيبه ووصفه بالخطأ والإحالة، كالذي أقدمت عليه وجاهرت به المنانية الكفرة، وأشباههم من أهل الضلال، فحق على من أنعم الله عليه بمعرفته، ووفقه لتأمل هذه الخليقة، والوقوف على ما في خلقها من لطف التدبير، وصواب التقدير، بالدلائل القائمة فيها، أن لا يقصر في إظهار ما بلغه علمه من ذلك، بل يجهد في نشره وإذاعته وإيراده على المسامع والأذهان، لتقوى دواعي الإيمان، وتخيب مكيدة الشيطان».

هذه نموذجات من أساليب الرد على من خالفوا الإسلام ولا سيما المانوية والزنادقة والملحدون ممن كانوا يعملون على هدم كل معتقد، فيتأذى الإسلام بدعوتهم، وتسري في أذهان العوام. وقال في المجوسية: ولم تر قط ذا دين تحول إلى المجوسية عن دينه، ولم يكن ذلك المذهب إلا في ضعفة من أهل فارس والجبال، وخراسان كلها فارسية فإن عجبت من استسقاطي لعقل كسرى ابرويز وآبائه وأحبابه وقرابته وكتابه وأطبائه وحكمائه وأساورته، فإني أقول في ذلك قولًا لا يعرف به أنني ليس إلى العصبية ذهبت.

رأى أبو عثمان إنزال العقوبات في العابثين بالأديان فقال: «من لم يعمل بإقامة جزاء السيئة والحسنة، وقتَل في موضع القتل، وأحيا في موضع الإحياء، وعفا في موضع العفو، وعاقب في موضع العقوبة، ومنع ساعة المنع، وأعطى ساعة الإعطاء، خالف الرب في تدبيره، وظن أن رحمته فوق رحمة ربه؛ وقد قالوا: بعض القتل إحياء للجميع، وبعض العفو إغراء، كما أن بعض المنع إعطاء، ولا خير فيمن كان خيره

محضًا، وشرٌّ منه من كان شره صرفًا، ولكن أخلط الوعد بالوعيد، والبشر بالعبوس، والإعطاء بالمنع، والحلم بالإيقاع، فإن الناس لا يهابون ويصلحون إلا على الثواب والعقاب، والإطماع والإخافة، ومن أخاف ولم يقع وعرف بذلك، كان كمن أطمع ولم ينجز وعرف بذلك، ومن عرف بذلك دخل عليه بحسب ما عرف منه؛ فخير الخير ما كان ممزوجًا، وشر الشر ما كان صرفًا. ولو كان الناس يصلحون على الخير وحده، لكان الله عز وجل أولى بذلك الحكم، وفي إطباق جميع الملوك وجميع الأئمة في جميع الأقطار، وفي جميع الأعصار، على استعمال المكروه والمحبوب، دليل على أن الصواب فيه دون غيره؛ وإذا كان الناس إنما يصطلحون على الشدة واللين، وعلى العفو والانتقام، وعلى البذل والمنع، وعلى الخير والشر، عاد لك الشر خيرًا، وذلك المنع إعطاء، وذلك المكروه محبوبًا».

وراعني سمعك في تلاوة الجملة الآتية يرد على من لم يحسن من العلماء تعليل أمية رسول الله، وكيف حاجه فأحسن حجاجه، ودله على قصور علمه وضعف منطقه، قال: «وكان شيخ من البصريين يقول: إن الله إنما جعل نبيه أُميًّا لا يكتب، ولا يحسب ولا ينسب، ولا يقرض الشعر، ولا يتكلف الخطابة، ولا يتعمد البلاغة، لينفرد الله بتعليمه الفقه وأحكام الشريعة، ويقصره على معرفة مصالح الدين، دون ما تتباهى به العرب من قيافة الأثر، وعيافة الطير، ومن العلم بالأنواء وبالخيل، وبالأنساب والأخبار، وتكلف قول الأشعار، ليكون إذا جاء القرآن الكريم، وتكلم بالكلام العجيب، كان ذلك أدل على أنه من الله، وزعم أن الله لم يمنعه معرفة آدابهم وأخبارهم وأشعارهم، ليكون أنقص حظًّا من الحاسب والكاتب، ومن الخطيب الناسب ولكن ليجعله نبيًّا، وليتولى أمر تعليمه بما هو أزكى وأنمى؛ فإنما نقصه ليزيده، ومنعه ليعطيه، وحجبه عن القليل ليجلي له الكثير».

قال الجاحظ: «وقد أخطأ هذا الشيخ ولم يرد إلا الخير، وقال بميلغ علمه ومنتهى رأيه، ولو زعم أن أداة الحساب والكتابة، وأداة قرض الشعر وجميع النسب قد كانت فيه تامة وافرة مجتمعة كاملة، ولكنه صلى الله عليه وسلم صرف تلك القوى وتلك الاستطاعة إلى ما هو أزكى بالنبوة وأشبه بمرتبة الرسالة، وكان إذا احتاج إلى البلاغة كان أبلغ البلغاء، وإذا احتاج إلى الخطابة كان أخطب الخطباء، وأنسب من كل ناسب، وأقوف من كل قائف، ولو كان في ظاهره، والمعروف من شأنه، أنه كاتب حاسب، وشاعر ناسب، ومتفرس قائف، ثم أعطاه الله برهانات الرسالة وعلامات النبوة، لما كان ذلك مانعًا من وجوب تصديقه، ولزوم طاعته، والانقياد لأمره، على سخطهم ورضاهم، ومكروههم ومحبوبهم، ولكنه أراد أن لا يكون للشاعر مُتَعَلَّق عما دعا إليه، حتى لا يكون دون المعرفة بحقه حجاب وإن رق، وليكون ذلك أخف في المؤنة، وأسهل في المحنة؛ فلذلك صرف نفسه عن الأمور التي كانوا يتكلفونها ويتنافسون فيها، فلما طال هجرانه لقرض الشعر وروايته، صار لسانه لا ينطق به، والعادة توأم الطبيعة، فأما في غير ذلك، فإنه إذا شاء كان أنطق من كل منطيق، وأنسب من كل ناسب، وأقوف من كل قائف، وكانت آلته أوفر، وأداته أكمل، إلا أنها كانت مصروفة إلى ما هو أبعد، وبين أن يضيف إليه العادة الحسنة وامتناع الشيء عليه من طول الهجران له فَرْقٌ».

قال: «ومن العجب أن صاحب هذه المقالة لم يره عليه السلام في حال معجزة قط، بل لم يره إلا وهو وإن طال الكلام قصر عنه كل مطيل، وإن قصر القول أتى على غاية كل خطيب، وما عدم منه إلا الخط وإقامة الشعر، فكيف ذهب ذلك المذهب، والظاهر من أمره عليه السلام غير ما توهم».

ويخيل إلى من يتدبر هذا الكلام أنه لم يفهم من أُمية الرسول عالم من المحدثين والقدماء ما أدركه الجاحظ من هذه الصفة الشريفة في النبي خاصة، وإذا فهمه فيستحيل عليه أن يكتب فكره بهذا البيان.

انظر إليه ينتقد على السلف في تقصيرهم في سيرة الرسول، يقول: «إن السلف الذين جمعوا القرآن في المصاحف بعد أن كان متفرقًا في الصدور، والذين جمعوا الناس على قراءة زيد بعد أن كان غيرها مطلقًا غير محظور، والذين حصنوه ومنعوه الزيادة والنقصان، لو كانوا جمعوا علامات النبي صلى الله عليه وسم وبرهانه ودلائله وآياته، وصنوف بدائعه، وأنواع عجائبه، في مقامه وظعنه، وعند دعائه واحتجاجه في الجمع العظيم وبحضرة العدد الكثير، الذين لا يستطيع الشك في خبرهم إلا الغبي الجاهل والعدو المائل، لما استطاع اليوم أن يدفع كونها وصحة مجيئها لا زنديق جاحد، ولا دهري معاند، ولا متظرف ماجن، ولا ضعيف مخدوع، ولا حدث مغرور، ولكان مشهورًا في عوامنا كشهرته في خواصنا، ولكان استبصار جميع أعياننا في حقهم كاستبصارهم في باطل نصاراهم ومجوسهم، ولما وجد الملحد موضع طمع في غبي يستميله وفي حدث يموه له، ولولا كثرة ضعفائنا مع كثرة الدخلاء فينا الذين نطقوا بألسنتنا واستعانوا بعقولنا على أغبيائنا وأغمارنا لما تكلفنا كشف الظاهر وإظهار البارز والاحتجاج الواضح». اهـ.

كان الجاحظ على سعة صدره، وطول أناته، لا يغتفر التخليط لأي كان ممن عاصرهم أو تقدموا زمنه، يناقشهم ويحاسبهم، خصوصًا إذا قصروا في الكلام وادعوا ما ليس فيهم، وخاضوا فيما لا يحسنون الخوض فيه؛ فقد رأيناه آنفًا ينحي إنحاء شديدًا على الخليل بن أحمد وعلى عبد الله بن المقفع، لأنهما كتبا في الكلام أمورًا عدها جرأة على العلم، ومن رأيه أن الرجل إذا أتقن الصنف والصنفين من العلوم

يجب أن لا يدعي غيرهما، ويحجم عن مقامات العلوم الأخرى، فلا يتطاول إلى ما لا يعلم، فالخليل بن أحمد صاحب العروض والنحو كان يجب أن يبقى في فنه لا يتعداه، وكذلك عبد الله بن المقفع كان المفروض فيه، وهو ما هو في البلاغة والحكمة واختراع المعاني، أن لا يتعدى ذلك إلى البحث في الكلام ولذلك أوجع الجاحظ هذين المؤلفين العظيمين لأنهما تعديا اختصاصهما في العلم، ونقدهما بشدة لم يشفع فيهما ذكاؤهما النادر، وجهة إخصائهما في الفنون الأخرى. قال في كتابه طبقات المغنين بعد أن ذكر أن الخليل بن أحمد واضع علم العروض: فلما أحكمه وبلغ منه ما بلغ أخذ في تفسير اللحون فاستدرك منه شيئًا ورسم له رسمًا احتذى عليه من خلفه، واستعمله من عنى به، وكان إسحاق بن إبراهيم الموصلي أول من حذا حذوه وامتثل هديه، واجتمعت له في ذلك آلات لم تجتمع للخليل بن أحمد قبله. وقال في الموصلي: إنه ألف في الغناء كتبًا معجبة (وسهل له فيها ما كان مستصعبًا على غيره، فصنع الغناء بعلم فاضل، وحذق راجح، ووزن صحيح).

مقاتل المرء تبدو متى عالج عملًا ليس منه بسبيل؛ فقد كتب المسعودي في سنان بن ثابت الحراني لما وضع كتابًا في الأخلاق يقول: «إنه انتحل ما ليس من صناعته، واستنتج ما ليس من طريقته، وهو وإن أحسن فيه، ولم يخرجه عن معانيه، فإنه عيب لأنه خرج عن صناعته، وتكلف ما ليس من مهنته، ولو أقبل على علمه الذي انفرد به من أنواع الفلسفة، لكان قد سلم مما تكلفه، وأتى بما هو أليق بصنعته، ولكن العارف بقدره معوز، والعالم بمواضع الخلة مفقود».

كل هذا يعالجه الجاحظ في نطاق الإنصاف والأدب بأسلوب لا يخلو من لذع وتهكم. ومن أقواله: وإن امرًا اجتمعت عليه المعتزلة والشيعة والخوارج والمرجئة لظاهر الصواب واضح البرهان، على اختلاف أهوائهم وبغيتهم لكل ما ورد عليهم؛

فإن قال قائل: هذه الروافض بأسرها تأبى ذلك وتنكره، وتطعن فيه وترى تغييره؛ قلنا: إن الروافض ليست منا بسبيل، لأن من كان أذانه غير أذاننا، وصلاته غير صلاتنا، وطلاقه غير طلاقنا، وعتقه غير عتقنا، وحجه غير حجنا، وفقهاؤه غير فقهائنا، وإمامه غير إمامنا، وقراءته غير قراءتنا، وحلاله غير حلالنا، وحرامه غير حرامنا، فلا نحن منه ولا هو منا.

فنه:

سئل الجاحظ مرة: ما تأويل هذه الآية {وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد}؟ فقال: تأويلها تلاوتها. ونحن إذا سألنا ما هي الصنعة أو التثقيف أو الفن في كلام الجاحظ؟ نقول: تدبروا كلامه تدركوا مبلغه من الصنعة. وإذا كان لا بد من تحليل صنعته نقول: كان اتساع أبي عثمان في اللغة لا يشبه اتساع اللغويين، استبطن من أسرارها ما يقل استبطان مثله على غيره، وعرف طوائف من الألفاظ تصلح في الأدب، وطوائف تصلح في الزراعة وأخرى للصناعات وأعمال الحياة، وغيرها للدينيات ومطالب العقبى، عدا ما خص بمعرفته من الألفاظ الصالحة لكل شأن. كان جدّ عارف بما يختار ويطرح، يقدر اللفظة بجرسها ورنتها، وما يتوقع من تأثير توقيعها وتلحينها إذا قرنت إلى أختها، ويميز الثقيلة والخفيفة، والمأنوسة من الوحشية، فيختار ما يؤدي جملته حق الأداء؛ فإبداعه في فنه يرجع أولًا إلى ما يختار من الألفاظ. كان نحاتًا وبناءً في آن واحد: يجوّد نحت أحجاره، ويحسن رصفها في البناء، والمهارة كل المهارة في إبراز المتماثل من المواد إلى جانب ما يوائمها، وقد يتسجيد الباني أجمل الأحجار لبنائه، فإذا لم يحسن الهندسة فقد البناء روعته المشعرة بأن الباني عليم بالجمال. يقول العسكري: «إن المعاني مشتركة بين العقلاء، فربما وقع المعنى الجيد للسوقي والنبطي والزنجي، وإنما يتفاضل الناس في الألفاظ ورصفها وتأليفها ونظمها».

أعظم ما تدور حوله صنعة الجاحظ إذًا لباقة في تصديه من بحر اللغة المتلاطمة أمواجه في صدره. هو لم يستعمل إلا ما عذب في المذاق، وحلي في السمع، وما تحذلق قط فأكره خشن الألفاظ على أداء ضعيف المعاني، وما عمد إلى سهل اللفظ للإفصاح عن سهل المعاني، وهواه أبدًا أن يتخير الفاظا لمعانيه، لا معاني لألفاظه. يسير مع الطبع، ولا يتكلف السجع، ويكتفي منه بما جاء عفوًا في الأحايين، متجافيًا عن خشونة التعمل، ووعوثة[1] التعقيد، وآية صنعته ولوعه بتصوير المعاني، وتقريبها من الأذهان ليخرج التالي بشيء يبقى في نفسه. إذا عرفنا كل هذا كشف لنا بعض الغطاء عن تناهيه في إبداعه وفنه.

وقد أفصح عن صنعته بقوله: «ومتى اتكل صاحب البلاغة على الهوينا والوكال[2]، وعلى السرقة والاحتيال، لم ينل طائلًا [3]، وشق عليه النزوع[4]، واستولى عليه الهوان واستهلكه سوء العادة. والوجه الضار أن يحفظ ألفاظًا بعينها من كتاب بعينه، أو من لفظ رجل، ثم يود أن يعد لتلك الألفاظ قسمها من المعاني، فهذا لا يكون إلا بخيلًا فقيرًا وحائفًا سروقًا، ولا يكون إلا مستكرهًا لألفاظه، متكلفًا لمعانيه، مضطرب التأليف، متقطع النظام، فإذا مر كلامه بنُقاد الألفاظ وجهابذة المعاني استخفوا عقله، وبهرجوا علمه. ثم اعلم أن الاستكراه في كل شيء سمج، وحيث ما وقع فهو مذموم، وهو في الظرف أسمج، وفي البلاغة أقبح، وما أحسن حاله ما دامت الألفاظ مسموعة من فمه، مسرودة في نفسه، ولم تكن مخلدة في كتبه، وخير الكتب ما إذا أعدت النظر فيه زادك في حسنه». ومعنى قوله هذا أن خير

(١) وعث الطريق، كسمع وكرم: تعسر سلوكه، والوعث: المكان السهل الدهس تغيب فيه الأقدام، والطريق العسر.

(٢) الوكال: هو الاتكال من تواكلوا مواكلة ووكالًا: إذا اتكل بعضهم على بعض.

(٣) الطول والطائل والطائلة: الفضل والقدرة والغنى والسعة.

(٤) النزوع: التشبه.

الكتَّاب، من لم يستظهر ألفاظًا بعينها، ليكرهها على الاندماج في تراكيبه، ومن لا يستعمل من الألفاظ إلا السهل، حتى يحوز رضا النقاد، وأن يجعل تصفحه لدواوين المعاني لا لدواوين الألفاظ (وشر البلغاء من هيأ رسم المعنى قبل أن يهيئ المعنى) عشقًا للفظ الذي يريد إقحامه. ولعل السبب في أنه لم يأت من اللغويين كُتَّاب عظماء كونهم حصروا أذهانهم في الألفاظ، وما عبئوا بمواطن الاستعمال، ملئوا حافظتهم بالجيد والرديء، وعدوه كله من الجيد، لأنه كان من محفوظهم، فإذا جاءوا ينشئون استعملوا كل ما وجدوا أمامهم أو ذكروه، فقصروا في البيان، وانقطعوا عن اللحاق بالبلغاء.

وفي نظره «ليس الكتاب إلى شيء أحوج منه إلى إفهام معانيه، حتى لا يحتاج السامع لما فيه إلى الروية، ويحتاج من اللفظ إلى مقدار يرتفع به عن ألفاظ السفلة[1] والحشوة، ويحوطه من غريب الأعراب ووحشي الكلام، وليس له أن يهذبه جدًّا، وينقحه ويصفيه ويروّقه، حتى لا ينطق إلا بلب اللب، وباللفظ الذي قد حذَفَ فضوله، وتعرَّفه وأسقط زوادئه، حتى عاد خالصًا لا شَوْب فيه، فإنه إن فعل ذلك لم يفهم عنه، إلا بأن يُجِدَّ لهم إفهامًا، مرارًا وتكرارًا، لأن الناس كلهم قد تعودوا المبسوط من الكلام، وصارت أفهامهم لا تزيد عن عاداتهم، إلا أن يعكس عليها ويؤخذ بها».

فالطريقة عنده إذًا ألا يكثر المنشئ من التصفية والترويق في الألفاظ، ولا يرسل كلامه في الناس مفتونًا بما جادت به قريحته بادئ الرأي. هو يريد التنقيح، ولكنه لا يوصي بالإكثار منه؛ لأن في التعمق الزلل. ولما كان على علم بأن (فتنة الرجل بشعره، وفتنته بكلامه وكتبه، فوق فتنته بجميع نعمته) أوصى من يكتب كتابًا (أن لا يكتبه

(١) سفلة الـ س (بكسر السين) وكفرِحة: أسافلهم وغوغاؤهم.

إلا على أن الناس كلهم له أعداء، وكلهم عالم بالأمور، وكلهم متفرغ له)، قال أبو زيد البلخي ما أحسن ما قال الجاحظ: «عقل المنشئ مشغول، وعقل المتصفح فارغ». قال أبو عثمان: «ثم لا يرضى بذلك حتى يدع كتابه غفلًا ولا يرضى بالرأي الفطير، فإن لابتداء الكتب فتنة وعجبًا؛ فإذا سكنت الطبيعة، وهدأت الحركة، وتراجعت الأخلاط، وعادت النفس وافرة، أعاد النظر فيه، فتوقف عند فصوله، توقف من يكون وزن طبعه في السلامة، أنقص من وزن خوفه من العيب». دل الكاتبَ بهذا على الوقت المناسب لإعادة النظر فيما كتب. أما هو فكان يحسن اختيار الزمن ليبرز كلامه في قوالبه المعهودة إحسانه اختيار موضوعه.

وقد حكى تلميذه المبرد عنه قال: رأيت الجاحظ يكتب شيئًا فتبسم؛ فقلت: ما يضحكك؟ قال: إذا لم يكن القرطاس صافيًا، والمداد ناميًا، والعلم مواتيًا، والقلب خاليًا، فلا عليك أن تكون غائبًا. وهذا الكلام لايصدر عن غير متفنن، ومن عيار الجاحظ؛ ولذلك جاءت كتبه كثيرة الحيوية والمائية؛ تبسم وتغازل وترقص وتغني.

قال الجاحظ: «وليس في الأرض إنسان إلا وهو يطرب من صوت نفسه، ويعتريه الغلط في شعره وفي ولده، إلا أن الناس في ذلك على طبقات من الغلط: فمنهم المغرق المغمور، ومنهم من قد نال من الصواب ونال من الخطأ، ومنهم من يكون خطؤه مستورًا لكثرة صوابه، فما أحسن حاله ما لم يمتحن بالكشف، ولذلك احتاج العاقل في استحسان كتبه وشعره من التحفظ والتوقي، ومن إعادة النظر والتهمة إلى أضعاف ما يحتاج إليه في سائر ذلك».

وانظر إليه بعد هذا يصور لك كاتبًا (خلا بعلمه عند فقد خصومه، وأهل المنزلة من صناعته). ويقول: إن «صاحب القلم يعتريه ما يعتري المؤدب عند ضربه وعقابه، فما أكثر من يعزم على خمسة أسواط فيضرب مائة، لأنه ابتدأ الضرب وهو

ساكن الطباع، فأراه السكون أن الصواب في الإقلال، فلما ضرب تحرك دمه فأشاع فيه الحرارة، فزاد في غضبه، فأراه الغضب أن الرأي في الإكثار؛ وكذلك صاحب القلم، فما أكثر من يبتدئ الكتاب، وهو يريد مقدار سطرين ويكتب عشرة».

بهذا تمت مزية الجاحظ من الصنعة مقرونة إلى موهبة الفطرة المفطور عليها: لا يطيل كلامه ولا يختزله، ولا يرسله حالًا، يسيل سيلًا، بل ينظر فيه إذا خلا بنفسه، فيحذف فضوله، وإذا أضاف إلى ذلك تخير العذب السائغ من الألفاظ للإفصاح عن المعاني الصريحة، كان في ذلك البلاغة وجماع الصنعة المعجزة. انظره مثلًا في كلامه على الخصاء في الإنسان كيف يعبر في جملة قصيرة عن معانٍ كثيرة دقيقة، ويقول في سهولة وتهكم: «وكل خصاء في الدنيا فإنما أصله من قِبَل الروم، ومن العجيب أنهم نصارى، وهم يدَّعون من الرأفة والرحمة ورقة القلب والكبد، ما لا يدعيه أحد من جميع الأصناف»؛ فبهذا الإيجاز واللفظ المنتقى، صوَّر المعنى الذي يريد لنقض دعوى النصارى التفرد بالرحمة والشفقة، وقال: إنهم المنفردون بين الأمم في ارتكاب هذه الكبيرة.

وشرح هذه العادة في الرد على الروم بقوله: «ومما يدل على قلة رحمتهم، وفساد قلوبهم، أنهم أصحاب الخصاء من بين جميع الأمم؛ والخصاء أشد المُثلة، وأعظم ما ركبه الإنسان، ثم يفعلون ذلك بأطفال لا ذنب لهم ولا دفع عندهم، ولا نعرف قومًا يُعرفون بخصاء الناس حيث ما كانوا إلا ببلاد الروم والحبشة، وهم في غيرهما قليل وأقل قليل، على أنهم لم يتعلموا إلا منهم، ولا كان سبب في ذلك غيرهم...».

لا جرم أن فن الجاحظ بحسن تصويره، لا يترك مجالًا لأن يدعي عليه القارئ أقل قصور، يصور لك كالمصور المبدع بالعبارة، وقد يبسطها أو يقبضها، ويصوّر الإشارة، وبالشاهد والواقع، حتى لا تخرج من كلامه إلا وقد وعيت أمورًا تخيل

إليك أنك سُحرت، لما عُمر به صدرك وقلبك بما أملى عليك. ومن أهم ما في الجاحظ من صنعة أن كلامه قليل الاستعارات والكنايات والمجازات والتشبيهات، لا يأخذ منها إلا بقدر معلوم عند الحاجة، لأن صفاء ديباجته، ونصاعة معانيه، لا يحوجانه إلى الاستعانة بما يبرقش به جمله. والقوي في امتلاك ناصية الكلام في غُنية عن هذه التهاويل والزخرف[1]. والطلاء يَنْصُل، وإن حسُن في العين للنظرة الأولى، والعبرة بما تحته من التقاطيع والقسامة. وليس معنى هذا أنه أسقط الكناية والاستعارة والمجاز والتمثيل جملة، فإنها الأقطاب التي تدور البلاغة عليها كما قال عبد القاهر، وهي التي نوه بذكرها البلغاء، ورفع من أقدارها العلماء، وصنفوا فيها الكتب حتى صار الكلام فيها نوعًا من العلم مفردًا خصوصًا الاستعارة والمجاز. وخَصلة أخرى وهي أن الجاحظ ليس من أرباب الخيال الواسع ولا الضيق، هو خليق أن يعد في جماعة المحسوسات أرباب الفلسفة الحسية، ولذلك كان تبريزه في النثر. أما شعره فلا يتعدى حد الحكاية، وتصوير حال وحَدَث، ولطالما تناشده وتذوقه.

للجاحظ فصول كثيرة تحله المحل الأرفع من الإبداع في تصويره، ومقامه في وصفه لا يقلُّ عن مقامه في الحكاية والرواية. انظر إلى حكاياته ورواياته في كتاب البخلاء، وأمعن النظر فقط في أقوال الكندي، وحيل من يستأجرون الدور وأخلاقهم وتلاعبهم، تدرك قوة الجاحظ على الإبانة في شئون الحياة. وانظره في رسالته مدح النبيذ وصفة أصحابه، يدلي إليك بحججه في المدح، وحججه في الذم، ثم يحكي لك ولا يبالي أن حذاق الملوك وأصحاب العنايات التامة، احتاجوا أن يداووا نفوسهم بالسماع الحسن، ويشدُّوا من مَتْنهم بالشراب الذي إذا وقع في

(١) الزخرف بالضم: الذهب وكمال حسن الشيء، ومن القول حسنه بترقيش الكذب، ومن الأرض ألوان نباتها، والتهاويل: الألوان المختلفة، وزينة التصاوير والنقوش والحلي.

الجوف حرَّك الدم، وإذا حرَّك الدم حرك طباع السرور، ثم لا يزال زائدًا في مكيال الدم، زائدًا في الحركة المولّدة للسرور. قال: «هذه صفة الملوك وعليه بنوا أمرهم، جهل ذلك من جهله وعلمه من علمه». تأمل قوله: «جهل ذلك من جهله وعلمه من علمه» فإن فيه صنعة، وينطوي على معانٍ كثيرة.

كتب رسالة النبيذ إلى صديقفه الحسن بن وهب، ومما قال في مدح النبيذ: إنه «إذا تمشى في عظامك، والتبس بأجزائك، ودب في جنانك، مَنَحك صدق الحس، وفراغ النفس، وجعلك رخي البال، خليَّ الذرع، قليل الشواغل قرير العين، واسع الصدر، فسيح الهم، حسن الظن، ثم سد عليك أبواب التهم، وحسن دونك الظن وخواطر الفهم، وكفاك مؤونة الحراسة، وألم الشفقة، وخوف الحدثان، وذل الطمع، وكد الطلب، وكل ما اعترض السرور وأفسد اللذة، وقاسم الشهوة، وأخل بالنعمة، وهو الذي يرد الشيوخ في طبائع الشبان، ويرد الشبان في نشاط الصبيان، وليس يخاف شاربه إلا مجاوزة السرور إلى الأشر، ومجاوزة الأشر إلى البطر، ولو لم يكن من أياديه ومننه، ومن جميل آلائه ونعمه، إلا أنك ما دمت تمزجه بروحك، وتزاوج بينه وبين دمك، فقد أعفاك من الجد ونصبه، وحبَّب إليك المزاح والفكاهة، وبغَّض إليك الاستقصاء والمحاولة، وأزال عنك تعقد الحشمة، وكد المروءة، وصار يومه جَمامًا لأيام الفكرة، وتسهيلًا لمعاودة الروية، لكان في ذلك ما يوجب الشكر ويطنب الذكر». وبالفن الذي حواه هذا الكلام حبب تعاطي النبيذ حتى لمن لا يتعاطاه!

وأنت إذا نظرت إلى رسالته في القيان تراه إذا وصف لك الوجه الحسن تكاد تبصره بعينك، وإذا عرض للقبيح ينفرك منه أي نفور. ألا تعجب منه إذا تنوت فيه أسطرًا قليلة في وصف حال المغنية في عصره، إذ يقول: «وكيف تسلم القَيْنة من الفتنة، أو يمكنها أن تكون عفيفة، وإنما تكتسب الأهواء، وتتعلم الألسن والأخلاق

بالمنشأ، وهي إنما تنشأ من لدن مولدها إلى أوان وفاتها، بما يصد عن ذكر الله من لهو الحديث، وصنوف اللعب والأخابيث، وبين الخلعاء والمجان، ومن لا يُسمع منه كلمة جِدّ، ولا يَرجع إلى فقه ولا دين، ولا صيانة مروءة، وتروي الحاذقة منهن أربعة آلاف صوت فصاعدًا، يكون الصوت فيما بين البيتين إلى أربعة أبيات، عدد ما يدخل في ذلك من الشعر، إذا ضُرب بعضه ببعض عشرة آلاف بيت، ليس فيها ذكر الله إلا عن غفلة، ولا ترهيب عن عقاب، ولا ترغيب في ثواب، وإنما بنيت كلها على ذكر الزنا والقيادة، والعشق والصبوة، والشوق والغلمة، ثم لا تنفك من الدراسة لصناعتها، منكبة عليها، تأخذ من المطارحين الذين طرحهم كله تجميش[1]، وإنشادهم مراودة، وهي مضطرة إلى ذلك في صناعتها، لأنها إن جفتها تفلتت، وإن أهملتها نقصت، وإن لم تستفد منها وقفت، وكل واقف فإلى نقصان أقرب، وإنما فرق ما بين أصحاب الصناعات، وبين من لا يحسنها التزيد فيها، والمواظبة عليها، فهي لو أرادت الهدى لم تعرفه، ولو بغت العفة لم تقدر عليها. وإن ثبتت حجة أبي الهُذَيْل فيما يجب على المتفكر زال عنها خاصة، لأن فكرها وقلبها ولسانها وبدنها مشاغيل بما هي فيه، وعلى حسب ما اجتمع عليها من ذلك في نفسها لمن بُلي بمجالستها عليه وعليها».

ألست تتلمس في مفردات هذا الكلام ومركباته فن الجاحظ، تأمل قوله: «إن جفتها تفلتت، وإن أهملتها نقصت»، وقوله: «تأخذ عن المطارحين الذين طرحهم كله تجميش وإنشادهم مراودة»، وقوله: «وكل واقف فإلى نقصان أقرب». ونحن إذا أكثرنا من إيراد الشواهد من أقوال أبي عثمان، فذلك لنخرج منها بدليل حسي نسقط به حجة خصومه في دعواهم أنه كان يقول الشيء ونقيضه، على أن هذا أيضًا ضرب

(١) التجميش كالجمش: المغازلة والملاعبة، والمطارحون: من يعلمون الغناء، يقال: طرحت عليه المسألة، وطارحته العلم والغناء وتطارحناه.

من البلاغة، وأسلوب من أساليب الصنعة، ولا يتيسر مثله لغير أفراد في البلغاء، فقد يوفّق الكاتب موضوعه عند نفسه، ويلوّنه للوصول إلى تعريفه ألوانا مُغْرية، ولكنه قد لا يُرضي غيره ولا يبلغ حاجته لأمور تنقصه.

استمع للجاحظ قطعة أخرى ينفض إليك فيها جملة حال النساك ويصنف لك طبقاتهم، ويصف لك الدواعي التي أهابت بهم إلى التنسك المصنع، فتركوا الكدح في الحياة، ورضوا أن يكونوا حَلمة طفيلية تمتص رزق غيرها، قال: «وجدنا لجميع أهل النقص، ولأهل كل صنف منهم نسكًا يعتمدون عليه في الأعمال، ويحتسبون به في الطاعة وطلب المثوبة، ويفزعون إليه على قدر فساد الطباع، وضعف الأصل، واضطراب الفرع، مع خبث المنشأ، وقلة التثبت والتوقف، ومع كثرة التقلب والإقدام مع أول خاطر، فنسكُ المريب المرتاب من المتكلمين أن يتحلى برمي الناس بالريبة، ويتزين بإضافة ما يجد في نفسه إلى خصمه، خوفًا من أن يكون قد فطن له، فهو يستر ذلك الداء برمي الناس به، ونسكُ الخارجي الذي يتحلى به ويتزيًّا بجماله، إظهار استعظام المعاصي، ثم لا يتلفت إلى مجاوزة المقدار، وإلى ظلم العباد، ولا يقف على أن الله تعالى لا يحب أن يظلم أظلم الظالمين، وأن في الحق ما وسع الجميع، ونسكُ الخراساني أن يحج وينام على قفاه، ويفقد الرياسة، ويتهيأ للشهادة، ويبسط لسانه بالحسبة. وقد قالوا: إذا نَسَك الشريف تواضع، وإذا نسك الوضيع تكبر، وتفسيره قريب واضح؛ ونسك الكوفي والجندي طرح الديوان وزيارة السلطان، ونسك دهاقين السواد ترك شرب المطبوخ، ونسك الخصي لزوم طرسوس وإظهار مجاهدة الروم، ونسك الرافضي ترك النبيذ، ونسك البستاني ترك سرقة الثمر، ونسك المغني الصلاة في الجماعة، وكثرة التسبيح والصلاة على النبي، ونسك اليهودي التشدد في السبت وإقامته، والصوفي إظهار النسك بين المسلمين إذا كان فَسْلًا[1]

(١) الفسل: الرذل الذي لا مروءة له كالمفسول، (ج) أفسل وفسول.

ببعض العمل تظرف وأظهر تحريم المكاسب وعاد سائلًا، وجعل مسألته وسيلة إلى تعظيم الناس له؛ وإذا كان النصراني فسلًا نذلًا مبغضًا للعمل ترهب ولبس الصوف، لأنه واثق أنه متى لبس وتزيًا بذلك الزي وتحلى بذلك اللباس، وأظهر تلك السيماء أنه قد وجب على أهل اليسر والثروة منهم أن يعولوه ويكفوه، ثم لا يرضى بأن ربحَ الكفاية باطلًا حتى استطال بالمرتبة. فإذا رمى المتكلم المريب أهل البراءة ظن أنه قد حول ريبته إلى خصمه، وحول براءة خصمه إليه؛ وإذا صار كل واحد من هذه الأصناف إلى ما ذكرنا فقد بلغ الأمنية ووقف على النهاية، فاحذر أن تكون منهم».

وزاد في مكان آخر ذاكرًا الدواعي التي دعت الخصيان إلى التنسك، فقال: «إن نسك الخصي غزو الروم لما أن كانوا هم الذين خصوه؛ وقال: إن نسك المتكلم التسرع إلى إكفار أهل المعاصي، وأن يرمي الناس بالجبر أو بالتعطيل أو بالزندقة، يريد أن يوهم أمورًا منها أن ذلك ليس إلا من تعظيمه للدين والإغراق فيه، ومنها أن يقال: لو كان نَطِفًا[1] أو مرتابًا أو مجتنحًا[2] على بلية لما رمى الناس ولرضي منهم بالسلامة، وما كان ليرميهم إلا للعز الذي في قلبه، ولو كان هناك من ذل الريبة شيء لقطعه ذلك عن التعرض لهم، أو التنبيه على ما عسى أن حركهم له أن يتحركوا، ولم نجد في المتكلمين أنطف ولا أكثر عيوبًا ممن يرمي خصومه بالكفر».

أرأيتم أبا عثمان يختم جملته الجميلة بقوله: «فاحذر أن تكون منهم»؛ يأتي بها بعد أن وصف النساك ووصف سخفهم ومضرتهم، وبعد أن ثلبهم وأسقطهم حذَّر منهم. أسمعتموه يقول: «ولم نجد في المتكلمين أنطف ولا أكثر عيوبًا ممن يرمي

(١) النطف: المتهم بريبة والفاسد.

(٢) يجتنح عليه: يعتمد.

خصومه بالكفر». والمتكلمون هنا رجال الدين؛ ولِمَ لا يكره النساك ويدعو الناس إلى كراهتهم وهو الذي لا يقول بغير العمل في المجتمع البشري؟ ومن مذهبه أن البارئ تعالى منح عبده عقلًا وعرّفه طرق الخير والشر وهو مسئول عن عمله؛ ولعلك أدركت أيضًا أن خطاب الجاحظ في النسك كان موجهًا لكل من يقرأ كلامه عربيًّا كان أم أعجميًّا، مسلمًا كان أم كتابيًّا، موافقًا كان أم مخالفًا؛ لأن الكاتب كاره للنساك على هذا لوجه مهما كانت صورتهم ونحلتهم، يعتقد المضارَّ التي يجلبونها على المجتمع الإنساني عامة؛ وكلام الجاحظ فيهم يُبقي في نفسك أثرًا إذا تدبرته، وهذا من صنعته وفنه، ويد صَناع كيده لا تجري في غير إبداع، فقد عقد فصلًا في الشعر يكثر ويقل في القبيل الواحد لدواعٍ وبواعث، لا لمكان الخصب من أرضهم، ولا لأنهم أهل مدر وأكالو تمر، وقد يكون غذاء بعضهم رديئًا ويأتي فيهم الشاعر (وإنما ذلك على قدر ما قسم الله لهم من الحظوظ والغرائز، والبلاد والأعراق مكانها)؛ وقد ختم كلامه بقوله: «وما أعلم في الأرض نعمة بعد ولاية الله أعظم من أن يكون الرجل ممدوحًا».

وكذلك تأمل صنعته في إبانته عن رأيه في عدم تغليظ حجاب النساء: «ثم لم يزل للملوك والأشراف إماءٌ يختلفن في الحوائج ويدخلن في الدواوين، ونساء يجلسن للناس.. ثم كن يبرزن للناس أحسن ما كنَّ وأشد ما يتزيَّن به، فما أنكر ذلك منكر ولا عابه عائب... والدليل على أن النظر إلى النساء كلهن ليس بحرام أن المرأة المغنية تبرز للرجال فلا تحتشم من ذلك، فلو كان حرامًا وهي شابة لم يحل إذا غنت، ولكنه أمر أفرط فيه المعتدون حدّ الغَيْرة، إلى سوء الخلق وضيق العطَن[1]، فصار عندهم كالحق الواجب»؛ تدبر قوله: ولكنه أفرط فيه... إلخ، فإن فيه صنعة، وكذلك قوله في كتاب النساء: ولسنا نقول، ولا يقول أحد ممن يعقل، أن النساء فوق الرجال، أو

(١) يقال: فلان واسع العطن: إذا كان رحب الذراع.

دونهم بطبقة أو طبقتين أو بأكثر، ولكننا رأينا أُناسًا يزرون عليهن أشد الزراية، ويحتقرونهن أشد الاحتقار، ويبخسونهن أكثر حقوقهن؛ وإن من العجز أن يكون الرجل لا يستطيع توفير حقوق الآباء والأعمام، إلا بأن ينكر حقوق الأمهات والأخوال، فلذلك ذكرنا جملة ما للنساء من المحاسن، ولولا أن ناسًا يفخرون بالجَلَد وقوة المُنَّة، وانصراف النفس عن حب النساء، حتى جعلوا شدة حب الرجل لأمَتِه وزوجته وولده دليلًا على الضعف، وبابًا من الخَوَر، لما تكلفنا كثيرًا مما شرطناه في هذا الكتاب؛ قال: ونحن وإن رأينا أن فضل الرجل على المرأة في جملة القول في الرجال والنساء أكثر وأظهر، فليس ينبغي لمن عظم حقوق الآباء أن يصغر حقوق الأمهات، وكذلك الإخوة والأخوات والبنون والبنات، وأنا وإن كنت أرى أن حق هذا أعظم فإن هذه أرحم. انظر أيضًا هذه الجملة بل مجموع العبارة، ألا ترى فيه جنسًا من الكلام لا يحسنه كل إنسان؟

دع هذا واستمع إلى أبي عثمان يكتب في رسالته التبصر بالتجارة: «كل ثوب من اللباس والفرش، إذا كان ألين وأنعم وأسنى كان أرفع، وكل عِلق من الجواهر والأحجار، إذا كان أصفى وأضوأ فهو أنفس، وكل حيوان من الوحشية والأهلية، إذا كان أجسم وأطوع فهو آثر وأفخر، وكل إنسان من الشريف والوضيع، إذا كان أعقل وأسهل فهو أجمل، وكل امرأة حرة أو أَمة، إذا كانت أكثر سكونًا، وأجمل حالًا وأنزر طمعًا، وأشكر للناس فهي أصون، وكل طير من السهلية والجبلية، إذا كان آلف كان آثر، وكل طارف وتالد، إذا كان أزكى وأجلّ فهو أهنأُ، وكل عدو صغير أو كبير، إذا كان حميًا فهو أعدى وأشد حسدًا، ومن لم يُعرف مأواه فمحذور قربه». تأمل هذه القوانين التي لا تتخلف، وأنعم النظر في قوله: «من لم يعرف مأواه فمحذور قربه». أمَا هو من شريف القول الذي يستسيغه كل أحد ويذهب في تأويله مذاهب؟ ثم تراه في هذا الفصل يعود فيقول: والدول تنتقل، والأرزاق مقسومة،

فأجملوا في الطلب، وارحموا المسكين، واعطفوا على الضعيف، تجازوا به وتثابوا، والقضاء جالب يجلب الأمور، وخير النوم ما يذهب الإعياء والكسل. ومعرفة الأشياء بالحواس الخمس، جودة الشيء بالنظر أن يكون حسنًا رائقًا، وبالخيشوم إذ كان طيبًا أرجًا، وبالمذاق إذ كان حلوًا عذبًا، وبالسمع أن يكون صافي الوقع والصوت، وباللمس أن يكون لينًا ناعمًا. وكانت العجم تقول: القلب والبصر شريكان، والطعم والحس متفقان، والفطنة والحفظ رفيقان، والسمع والمنطق مجتمعان.. وزعم سابور الملك أنه ليس ينبغي للعاقل أن يعتد بقول سبعة من الناس: بقول السكران والدَّلال والمضحك والعليل والعرَّاف والنمام والنساء.

الجاحظ متعة النفس في صنعته، كيف قلَّب براعته فكتب، وريحانة الأنس إذا وجد وهزل، تتجلى صنعته في وصفه وروايته وحكايته، وفي جداله وتقريره، وفي تحقيقه ونقله، وتطلُّ الأنفس على روحه من كل باب، وحيث تقلبتَ في رياض كلامه تشرف على ألوان الإحسان، ويأسر عقلك إذا طالت عشرتك له فتستسلم إليه مؤمنًا، وإن كنت من ضعاف الإيمان فيما يحاول سوقك إليه، واستتباعك فيه.

ونختم هذا بفصل صغير رسم فيه الجاحظ صورة أخرى من صور صنعته، في موضوع جد ألبسه صورة الهزل وهو في وصف الذباب ينال من قاضي البصرة، ووصفه في الحق «نهاية الفصاحة والاتساع». قال: «كان لنا بالبصرة قاضٍ يقال له: عبد الله بن سوار، لم ير الناس حاكمًا زميتًا[1] ركينًا ولا وقورًا حليمًا، ضبط من نفسه، وملك من حركته مثل الذي ضبط وملك. كان يصلي الغداة في منزله، وهو قريب الدار من مسجده، فيأتي مجلسه فيحتبي ولا يتكئ، فلا يزال منتصبًا لا يتحرك له

(١) الزميت: الوقور، وكالسكيت أوقر منه.

عضو، ولا يتلفت ولا يحلُّ حبوته، ولا يُحلُّ[١] رِجْلًا على أخرى، ولا يعتمد على أحد شقيه، حتى كأنه بناء مبني، أو صخرة منصوبة، فلا يزال كذلك حتى يقوم إلى صلاة الظهر، ثم يعود إلى مجلسه، فلا يزال كذلك حتى يقوم إلى صلاة العصر ثم يرجع لمجلسه، فلا يزال كذلك حتى يقوم لصلاة المغرب، ثم ربما عاد إلى مجلسه، بل كثيرًا ما كان يكون ذلك، إذا بقي عليه شيء من قراءة العهود والشروط[٢] والوثائق، ثم يصلي العشاء الآخرة وينصرف. فالحق يقال لم يقم في طول تلك المدة والولاية مرة واحدة إلى الوضوء، ولا احتاج إليه، ولا شرب ماء ولا غيره من الشراب، كذلك كان شأنه في طوال الأيام وفي قصارها، وفي صيفها وفي شتائها. وكان مع ذلك لا يحرك يدًا ولا عضوًا، ولا يشير برأسه، وليس إلا أن يتكلم ثم يوجز، ويبلغ باليسير من الكلام إلى المعاني الكثيرة.

فبينا هو كذلك ذات يوم (في مجلسه) وأصحابه حواليه، وفي السماطين بين[٣] يديه، سقط على أنفه ذباب فأطال المكث، ثم تحول إلى موق عينه، فرام الصبر في سقوطه على الموق، وصبر على عضته، ونفاذ خرطومه، كما رام الصبر على سقوطه على أنفه، من غير أن يحرك أرنبته، أو يغضّن وجهه، أو يذب بإصبعه، فلما طال ذلك عليه من الذباب، وشغله وأوجعه وأحرقه، وقصد إلى مكان لا يحتمل التغافل، أطبق جفنه الأعلى على جفنه الأسفل فلم ينهض، فدعاه ذلك إلى أن يوالي بين الإطباق والفتح، فتنحى ريثما سكن جفنه، ثم عاد إلى موقه بأشد من مرته الأولى، فغمس خرطومه في مكان، كان قد آذاه فيه قبل ذلك، فكان احتماله أقل، وعجزه عن الصبر

---

(١) في رواية: ولا يحوّل رِجْلًا عن رجل، والحبوة بالفتح والضم اسم من احتبى بالثوب: اشتمل أو جمع بين ظهره وساقيه بعمامة ونحوها.

(٢) في رواية: من قراءة السجلات.

(٣) في رواية: والسماط بين يديه، وسماط القوم بالكسر: صفهم.

عليه في الثانية أقوى، فحرك أجفانه، وزاد في شدة الحركة، وألحَّ في فتح العين، وفي تتابع الفتح والإطباق، فتنحى عنه بقدر ما سكنت حركته، ثم عاد إلى موضعه، فما زال يلحُّ عليه حتى استفرغ صبره وبلغ مجهوده، فلم يجد بدًّا من أن يذبَّ عن عينه بيده ففعل، وعيون القوم ترمقه، وكأنهم لا يرونه، فتنحى عنه بقدر ما رد يده، وسكنت حركته، ثم عاد إلى موضعه، ثم ألجأه إلى أن ذب عن وجهه بطرف كمه، ثم ألجأه إلى أن تابع ذلك، وعلم أن فعله كله بعين مَن حضره من أُمنائه وجلسائه، فلما نظروا إليه قال: أشهد أن الذباب ألجُّ من الخنفساء، وأزهى من الغراب، قال: وأستغفر الله، فما أكثر من أعجبته نفسه، فأراد الله عز وجل أن يعرفه من ضعفه ما كان عنه مستورًا، وقد علمتم أني -عند نفسي وعند الناس- من أرزن الناس، فقد غلبني وفضحني أضعف خلقه، ثم تلا قوله تعالى: {وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب}؛ وكان بيِّن اللسان، قليل فضول الكلام، وكان مهيبًا في أصحابه، وكان أحد من لم يطعن عليه في نفسه، ولا في تعريض أصحابه للمنالة».

ولا ينقص هذه الصورة البديعة إلا أن يمسك الجاحظ بريشة المصوّر، ويعمد إلى أصباغه وليقته، ليصوّر القاضي بقده وتقاطيع وجهه ورأسه وعينيه ووجنتيه ولحيته وسبلاته ويديه ورجليه وعمامته وقلنسوته أو دنيته وجبَّته وقفطانه وسراويله وحزامه وحذائه، ليضيف إلى صورته صورة أخرى. صوَّر قاضي البصرة صورة لا يصل إليها المصور المبدع؛ صوَّر لنا معنوياته ساعة سطا عليه الذباب، وصور ما بدر منه، وما انطوى عليه من وقار في جميع حالاته، ثم أثنى على حسن سيرته وقلة فضوله، في جد كان الهزل في معانيه وإشاراته، لا في ألفاظه ورصفها.

تقرينا جمال فن الجاحظ واستجليناه يتناول كل موضوع من عامة أطرافه، لا يبقي حاجة في نفس سامع وتالٍ، شهدناه مهما تعنت متعنت من جهابذة النقد يستحيل عليه أن يقول: إنه قال كذا، وكان الأولى أن يقول كذا، وهذا من بُعد مرماه في الصنعة.

علمه وبحثه:

تقدم أن الجاحظ لم تقف معارفه عند حد المنقول، وأنه تعداها إلى الأخذ من كل معقول، وأن العلوم التي اتجهت إليها همته، أحذقته فأخرجت منه عالمًا فوق العلماء، ولم يكن صَحَفِيًّا يأخذ من الكتب ما اتفق، بل كان نظّارًا محققًا يدرس الأشياء، ويقتلها بحثًا وتنقيبًا. كان منهاجه في العلم مطولًا واسعًا، وهو في كل ما خاض عبابه إخصائي وأعظم من كل إخصائي، يتناول كل ما يقع عليه الحس، وتنظره العين، وتتسوف إليه النفس. وليس نظره في كل ما عانى النظر المجرد، بل نظر (الفلسفة والغرائب التي صححتها التجربة، وأبرزها الامتحان، وكشف قناعها البرهان). لا تراه وهو يفكر فيجيد التفكير، ويبحث فيكشف عن الحقائق، إلا داعيًا إلى استعمال العقل، وتجويد التفكير، لأن (مع عدم الفكرة يكون عدم الحكمة)، وفي التفكير (مشحذة للأذهان، ومنبهة لذوي الغفلة، وتحليل لعقدة البلادة، وسبب لاعتياد الروية، وانفساح في الصدور، وعزاء في النفوس، وحلاوة تقتاتها الروح، وثمرة تغذو العقل). قال: «إن كثرة السماع للأخبار العجيبة، والمعاني الغريبة، مشحذة للأذهان، ومادة للقلوب، وسبب للتفكير، وعلة للتنقير عن الأمور، وأكثر الناس سماعًا أكثرهم خواطر، وأكثرهم خواطر أكثرهم تفكرًا، وأكثرهم تفكرًا أكثرهم علمًا، وأكثرهم علمًا أرجحهم عملًا، كما أن أكثر البصراء رؤية للأعاجيب أكثرهم تجارب، ولذلك صار البصير أكثر خواطر من الأعمى، وصار البصير السميع أكثر خواطر من البصير الأصم».

قال: «والذي صير الإنسان إلى استحقاق قول الله عز وجل: {وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعًا} ليس هو الصورة، وأنه خلقه من نطفة، وأن أباه خُلق من تراب، وأنه يمشي على رجليه، ويتناول حوائجه بيديه، لأن هذه الخصال كلها مجموعة في البله والمجانين، والأطفال والمنقوصين. والفرق الذي هو الفرق، إنما هو الاستطاعة، والتمكن من وجوه الاستطاعة، وجودة العقل والمعرفة، أفتظن أن الله عز وجل يخص بهذه الخصال بعض خلقه دون بعض، ثم لا يطالبهم إلا كما يطالب بعض من أعدمه ذلك وأعراه منه؟ فلِمَ أعطاه العقل إلا للاعتبار والتفكر؟ ولِمَ أعطاه المعرفة إلا ليؤثر الحق على هواه؟ ولم أعطاه الاستطاعة إلا لإلزام الحجة؟».

وحذر المرء من الاغترار بما أَلِف وبما يعرض لقلبه بادئ الرأي. ورأى (أن الناس يحتاجون إلى طبيعة، ثم إلى معرفة، ثم إلى إنصاف، وأول ما يبتدئ به صاحب الإنصاف أمره، أن لا يعطي نفسه فوق حقها، وأن لا يضعها دون مكانها، وأن يتحفظ من شيئين، فإن نجاته لا تتم إلا بالتحفظ منهما، أحدهما تهمة الإلف، والآخر تهمة السابق إلى القلب). وقال: «فلا تذهب إلى ما تريك العين، واذهب إلى ما يريك اعقل، وللأمور حكمان: حكم ظاهر للحواس، وحكم باطن للعقول، والعقل هو الحجة». «ولعمري إن العيون لتخطئ، وإن الحواس لتكذب، وما الحكم القاطع إلا للذهن، وما الاستبانة الصحيحة إلا للعقل، إذ كان زمامًا على الأعضاء، وعيارًا على الحواس».

دعا إلى التفكير ودعا إلى الملاحظة، قائلًا: «لا تشفيني إلا الملاحظة» ودعا إلى الشك؛ ومن لم يشك لم ينظر، ومن لم ينظر لم يبصر، ومن لم يبصر بقي في العمى والحيرة كما قال الغزالي. أما هو فيقول: «اعرف مواضع الشك وحالاتها الموجبة لها، تعرف بها مواضع اليقين والحالات الموجبة له، وتعلَّم الشك في المشكوك فيه تعلمًا،

فلو لم يكن ذلك إلا تعرف التوقف ثم التثبت، لقد كان ذلك مما يحتاج إليه، ثم اعلم أن الشك في طبقات عند جميعهم، ولم يُجمعوا على أن اليقين طبقات في القوة والضعف». وقبله قال شيخه النظام: «الشاك أقرب إليك من الجاحد، ولم يكن يقين قط حتى صار فيه شك، ولم ينتقل أحد من اعتقاده إلى اعتقاد غيره حتى يكون بينهما حال شك».

ومع اعتقاده بما يكشفه العقل من حقائق الكون لم يتجاوز إلى أكثر مما كتب له إدراكه، قال: «ولو وقفت على جناح بعوضة وقفة معتبر، وتأملته تأمل متفكر، بعد أن تكون ثاقب النظر، سليم الآلة، غواصًا على المعاني، لا يعتريك من الخواطر إلا على حسب صحة عقلك». وقال: «والإنسان وإن أُضيف إلى الكمال، وعرف بالبلاغة، وناتش العلماء، فإنه لا يكمل أن يحيط علمه بكل ما في جناح بعوضة أيام الدنيا، ولو استمد بكل نظار عظيم، واستعان بكل بحاث واعٍ، وكل نقّاب في البلاد ودراسة للكتب، وما أشك أن عند الوزراء في ذلك ما ليس عند الرعية من العلماء، وعند الخلفاء ما ليس عند الوزراء، وعند الأنبياء ما ليس عند الخلفاء، وعند الملائكة ما ليس عند الأنبياء، وما عند الله عز وجل أكثر، والخلق في بلوغه أعجز». قال: «لو كان الأمر على ما يشتهيه الغرير[1]، والجاهل بعواقب الأمور، لبطل النظر وما يشحذ عليه وما يدعو إليه، ولتعطلت الأرواح من معانيها، والعقول من ثمارها، ولعدمت الأشياء حظوظها وحقوقها».

أهاب بالنفوس أن لا تغتر بما ألفت وسمعت، وأن لا تهوى الغرائب إلا بامتحانها والنظر فيها، وحبب التكشيف والتنقيب، ودعا إلى العقل في النطاق الذي يتأتى الخوض فيه قائلًا: «وباب من هذا الشكل فيكم أعظم حاجة إلى أن تعرفوه،

(١) الغرير: المخدوع أو الشاب لا تجربة له.

وتقفوا عنده، وهو ما يضع الخبر السابق إلى السمع، ولا سيما إذا صادف من السامع قلة تجربة، فإن قرن بين قلة التجربة وقلة التحفظ، دخل ذلك الخبر السابق إلى مستقره دخولًا سهلًا، وصادف موضعًا وطيئًا، وطبيعة قابلة، ونفسًا ساكنة، ومتى صادف القلب كذلك رسخ رسوخًا لا حيلة في إزالته». وقال: «إن الناس قد استغنوا عن التدبر، وكفوا مؤونة البحث و التنقير، لقلة اعتبارهم، ومن قلَّ اعتباره قلَّ علمه، ومن قلَّ علمه قلَّ فضله، ومن قلَّ فضله كثر نقصه، ومن قلَّ علمه وفضله وكثر نقصه لم يحمد على خير أتاه، ولم يذم على شر جناه، ولم يجد طعم العز، ولا سرور الظفر، ولا روح الرجاء، ولا برد اليقين، ولا راحة الأمن».

كان إذا رأى أن (ليس إلى رد الخبر سبيل لمواوترته ومرادفته، ولأن العيان قد حققه، والتجربة قد ضمت إليه) زاد اعتقادًا فيما كان لا يعتقده ولا يعتقده كثير غيره. ويريد الناس أبدًا أن يجربوا بأنفسهم فقد ذكر عند كلامه على أقوال العلماء أن عرق الخال أنزع من عرق العم، وأن نصيب الأمهات في الأولاد أكثر، وأنها على الشبه أغلب - أن أكثر ما تلد الأمهات الإناث، وكذلك الناس وجميع الحيوانات قال: فإذا أردت أن تعرف حق ذلك من باطله فأخص سكان عشر دور من يمينك وعشر من شمالك، وعشر من خلفك وعشر من أمامك، فانظر أيها أكثر: رجالهم أو نساؤهم.

ونبَّه أرباب العقول إلى من يعبث بها، فقال: «وقد ابتلينا بضربين من الناس، ودعواهما كبيرة؛ أحدهما أن يبلغ من حبه للغريب أن يجعل سمعه هدفًا لتوليد الكذابين، وقلبه قرارًا لغرائب الزور، ولكلفه بالغريب وشغفه بالطُّرف، لا يقف على التصحيح والتمييز، فهو يدخل الغث في السمين، والممكن في الممتنع، ويتعلق بأدنى سبب، ثم يدفع عنه كل الدفع، والصنف الآخر هو أن بعضهم يرى أن ذلك لا

يكون منه عند من يسمعه يتكلم، إلا من خاف التقذر[١] من الكذب». وقال في التحذير من صنف من هذه الأصناف المضرة: «وهؤلاء وما أشبههم يفسدون العلم، ويتهمون الكتب، وتضرهم كثرة أتباعهم، ممن لا تجده مُستهترًا بسماع الغريب، ومغرمًا بالطرائف والبدائع، ولو أعطوا بدلًا من هذا الاستهتار نصيبًا من التثبت، وحظًّا من التوقي؛ لسلمت الكتب من كثير من الفساد».

ويحذركَ جهرة من تخويف المخرفين من العوام، والمضللين ممن كان بسبيلهم من الخواص، لأن في الخواص دجالين أيضًا، وإن كانوا مؤلفين ومشهورين، قال: إنهم «لا يدينون بالحقيقة، ولا يحمدون إلا ظاهر الحيلة، ومن الدليل على نذالة طبعهم، والعلم بسفالة رأيهم، تقديمهم بالفضل لمن لا يفهمونه، وقضاؤهم بالعلم لمن لا يعرفونه» وهو يرى بعض الخواص أضرَّ على سير العقل من العوام، ولطالما حزّت بلاهة الخواص في قلبه، وهو لا يبرح يهزأ بهم، ويبين مناشئ المضعوف من رواياتهم ويعلم (أن الناس موكلون بحكاية كل غريب، وميسرون للإخبار عن كل عظيم، وليسوا للحسن أحكى منهم للقبيح، ولا لما ينفع أحكى منهم لما يضر، وعلى قدر كبر الشيء تكون حكايتهم له واستماعهم إليه)، (وقد ترك هذا الجمهور الأكبر والسواد الأعظم التوقف عند الشبهة، والتثبت عند الحكومة[٢] جانبًا، وأعرضوا عنه صفحًا، فليس إلا لا أو نعم؛ إلا أن قولهم لا، موصول منهم بالغضب، وقولهم نعم، موصول منهم بالرضا، وقد عزل الحق جانبًا، ومات ذكر الحلال والحرام، ورفض ذكر القبيح والحسن).

(١) التقذر: الاجتناب، من قذر الشيء كرهه واجتنبه.

(٢) الحكومة: القضاء.

وعلل التخريف في الناس، وفشو الجهل فيهم بقوله: «الناس لم يؤتوا في اعتقادهم الخطأ المكشوف من جهة النظر، ولكن للناس تأس وعادات، وتقليد للآباء والكبراء، ويعملون على الهوى، وعلى ما يسبق إلى القلوب، ويستثقلون التحصيل، ويهملون النظر، حتى يصيروا في حال متى عاودوه وأرادوه، نظروا بأبصار كليلة وأذهان مدخولة[1]، مع سوء عادة، والنفس لا تجيب إذا كانت مستكرهة، وكان يقال: الطبع إذا كره عمي، ومتى عمي الطبع جسا[2] وغلظ وأُهمل، حتى يألف الجهل، ولم يكن يفهم ما عليه وله». فهو من هذا النظر يربأُ بمن يحاول تعليمه عن تقليد من يرى تقليدهم، ويريده أبدًا، على أن ينظر بعقله، ويستثبت الأخبار، ولا يستمع لنقلة الغرائب منها، وأن يستند أبدًا على التجربة والملاحظة، وأن يرى الأمور مع عللها وبرهاناتها، يريده على أن يلاحظ ويتدبر ويحس، ويكون في حسه صادقًا حازمًا، لا يمتهن شيئًا في عالم الكون والفساد، يهتم للذرة كما يهتم للدُّرة ويقول: أوصيك أيها القارئ المتفهم، وأيها المستمع المنصت المتصفح، أن لا تحقر شيئًا أبدًا لصغر جثته، ولا تستصغر قدره لقلة ثمنه، ثم اعلم أن الجبل ليس بأدل على الله من الحصاة، ولا الفلك المشتمل على عالمنا هذا بأدل على الله من بدن الإنسان، وأن صغير ذلك ودقيقه كعظيمه وجليله».

فكأن الفيلسوف ديكارت في القرن السابع عشر -وكان يقول بعدم التسليم بشيء إلا بعد فحصه بنور العقل وتحقق وجوده، ويرفض كل ما قام على الظن والتخمين، وما ألفته العادة وأتى من العُرف- كأنه قرأ الجاحظ وعرف فلسفته في هذا الشأن، ونغمتها في هذا المعنى متشابهة، كأن الواحدة متممة للأخرى، أو الأخرى أُخذت عن الأولى.

---

(١) المدخول: المهزول ومن في عقله دخل، ونخلة مدخولة: عفنة.

(٢) جسا كدعا جسوًا: صلب، وجاساه: عاداه.

وكأن الجاحظ وهو يدعوك إلى الاستنباط لا إلى الحفظ والاستظهار يقول برأي أحدث علماء التربية من أهل الحضارة اليوم؛ وعبارته: «وكرهت الحكماء الرؤساء أصحاب الاستنباط والتفكير جودة الحفظ لمكان الاتكال عليه، وإغفال العقل من التمييز، حتى قالوا: الحفظ عذق الذهن لأن مستعمل الحفظ لا يكون إلا مقلدًا، والاستنباط هو الذي يفضي بصاحبه إلى برد اليقين، وعز الثقة، والقضية الصحيحة، والحكم المحمود، أنه متى أدام الحفظ أضر ذلك بالاسنباط، ومتى أدام الاستنباط أضر ذلك بالحفظ».

الجاحظ يردم المنافذ التي تتسرب منها الجهالات، وينحى على من يضلل الناس، ويبيع منهم سلعًا فاسدة؛ وقد بلغ من حريته في البحث، وغيرته على العلم، وبُعد نظره في المسائل، أن ردَّ على شيخه النظام وقال: إن عيبه الذي لا يفارقه سوء ظنه، وجودة قياسه على العارض، والخاطر السابق الذي لا يوثق بمثله، وأنه كان يظن الظن ثم يقيس عليه، وينسى أن بدءَ أمره كان ظنًّا، فإذا أتقن ذلك وأيقن جزم عليه، وحكاه عن صاحبه حكاية المستبصر في صحة معناه. وقال مرة في شيخه الآخر أبي عبيدة: «ولولا أن أكون عيابًا ثم للعلماء خاصة، لصورت لك بعض ما سمعت من أبي عبيدة ومن هو أبعد في وهمك من أبي عبيدة». ويلوم من ينقلون الأخبار بدون نقد، وممن لامهم على ذلك: أبو زيد الأنصاري، وثقه من جهة وأنكر عليه من أخرى تساهله في التعليق على الروايات المدخولة. فهو يرى العلم وصحة النظر فوق كل اعتبار، ولا كبير عنده أمام النقد، وفي ميدان الجدال وإحقاق الحق، قال في رجل نظر بعض النظر تصويب العلماء لبعض الشكاك حتى زعم أن الأمور كلها يعرف حقها وباطلها بالأغلب: إنه «مات ولم يخلف عقبًا، ولا واحدًا يدين بدينه، فلو ذكرت اسمه مع هذه الحال لم أكن أسأت، ولكني على حال أكره التنويه بذكر من

تحرم بحرمة الكلام، وشارك المتكلمين في أسماء الصناعة، ولا سيما إن كان ممن ينتحل تقديم الاستطاعة».

وقال مرة: «ورأينا أقوامًا يدعون في كتبهم الغرائب الكثيرة والأمور البديعة، ويخاطرون من أجل ذلك بمروءتهم، ويعرضون بأقدارهم، ويسلطون السفهاء على أعراضهم، ويجرون سوء الظن إلى أخبارهم، ويحكمون حساد النعم في كتبهم، ويمكنون لهم من مقاليدهم، وبعضهم ينظر على حسن الظن بهم، أو على التسليم لهم والتقليد لدعواهم، وأحسنهم حالًا من يحب أن يتفضل عليه ببسط العذر له، ويتكلف بالاحتجاج عنه، ولا ينافي أن يمنَّ بذلك على عقبه، أو من دان بدينه، أو اقتبس ذلك العلم من قبل كتبه».

وناقش غير مرة أرسطو في كتاب الحيوان ورد عليه في بعض استقراءاته وقال فيه: «وزعم صاحب المنطق في كتاب الحيوان فيما سلف من الدهر أن ثورًا سفد وألقح من ساعته بعد أن خُصي» قال: «فإذا أفرط المادح في المدح، وخرج من المقدار، وأفرط المتعجب في التعجب، وخرج من المقدار، احتاج صاحبه إلى أن يثبته بالعيان، أو بالخبر الذي لم يكذب مثله، وإلا فقد تعرض للتكذيب، ولو جعلوا بدل حركتهم خبرًا وحكاية، وتبرءوا عن عينه ما ضرَّهم ذلك، ولكان أصون لأقدارهم وأتم لمروآت كتبهم». وردّ عليه دعواه في أن إناث العصافير أطول أعمارًا، وأن ذكورها لا تعيش إلا سنة. وردَّ عليه زعمه أن في بلدة طبقون[1] حية صغيرة شديدة اللذع، إلا أن تعالج بحجر يخرج من بعض قبور قدماء الملوك، فقال: لم أفهم هذا ولِمَ كان؟ ورد عليه زعمه أن الطير الكبير الذي يسمى باليونانية اعيتوليس يجلب الدارصيني[2] من

(١) لعلها طيسفون مدينة كسرى التي فيها الإيوان على ثلاثة فراسخ من بغداد، وطيسفون أيضًا قرية بمرو، أما طيفون أو طيقون فلم نجد لها ذكرًا.

(٢) الدارصيني: شجر هندي يكون بتخوم الصين كالرمان تعريب دارجيني؛ أي: شجرة الصين.

موضعه فيفرش به عشه فقال: «لست أدفع خبر صاحب المنطق من خبر الدارصيني، وإن كنت لا أعرف الوجه في أن طائرًا ينهض من وكره في الجبال أو بفارس أو باليمن فيؤم ويعمد نحو بلاد الدارصيني وهو لم يجاوز موضعه ولا قرب منه، وليس يخلو هذا الطائر أن يكون من الأوابد، وإن كان من القواطع[1]، فكيف يقطع الصحصحان[2] الأملس وبطون الأودية وهضاب[3] الجبال بالتدويم في الجواء والمضي على السمت، لطلب ما لم يره ولم يشمه ولم يذقه، وأخرى فإنه لا يجلب منه بمنقاره ورجليه ما يصير فراشًا له ومهادًا إلا بالاختلاف الطويل، وليس بالوطيء الوثير، ولا هو له بطعام. فأنا وإن كنت لا أعرف العلة، فلست أنكر الأمور من هذه الجهة فأنكر هذا».

والجاحظ ينظر إلى الحيوان في تولده ونُشأته وموطنه وخصائصه وتربية صغاره وزقها وإطعامها من لبن أو لعاب أو نبات أو غير ذلك، ويعرف تأثره بالحر والبرد وبالشمس والظل، وحَذَره من الآدميين إلى غير ذلك، فكيف يجوز له عقله أن يقطع ذاك الطير ألوفًا من الأميال ليبني عشه بمادة ليست له طعامًا ولا هي ما يستلينه، ما دام عقله رائده الذي لا يكذب، وخليله بحثه ونظره.

وقال في رأي أرسطو وزعمه أن ولد الفيل يخرج من بطن أمه نابت الأسنان لطول مكثه في بطنها: «وهذا جائز في ولد الفيل غير منكر، لأن جماعة نساء معروفات الآباء والأبناء قد ولدن أولادهن، ولهم أسنان نابتة كالذي رووا في شأن

---

(١) قال أبو زيد الأنصاري: إذا كان الشتاء قطعت إلينا الطير والغربان (أي جاءت) من بلادها، فهي قواطع، وإذا كان الصيف رجعت فيه، فهي رواجع، والطير التي تقيم بأرضنا صيفًا وشتاء: أوابد.

(٢) الصحصح والصحصاح والصحصحان: ما استوى من الأرض.

(٣) الهضبة: الجبل المنبسط على الأرض أو جبل خلق من صخرة واحدة (ج) هضب وهضاب وأهاضيب.

مالك بن أنس ومحمد بن عجلان وغيرهما، وقد زعم ناس من أهل البصرة أن خاقان بن عبد الله الأهتم استوفى في بطن أمه ثلاثة عشر شهرًا، وقد مُدح بذلك وهُجي، وليس ذلك بالمستنكر، وإن كنت لم أرَ قط قابلة تقرُّ بشيء من هذا الباب، وكذلك الأطباء، وقد رووه كما علمت، ولا أقر أن الولد يخرج رأسه من بطن أمه حتى يأكل شبعه ثم يدخل رأسه، ولست أراه محالًا ولا ممتنعًا في القدرة ولا في الطبيعة، وأرى جوازه موهوبًا غير مستحيل، إلا أن قلبي ليس يقبله. وليس من كونه ظلم ولا عيب ولا خطأ، ولا يقصر في شيء من الصفات المحمودة، ولم نجد القرآن ينكره والإجماع يدفعه، والله هو القادر دون خلقه، ولست أبت بإنكاره، وإن كان قلبي شديد الميل إلى رده، وهذا مما لا يعلمه الناس بالقياس، ولا يعرف إلا بالعيان الباهر، والخبر المتظاهر»؛ أي أنه في هذه المسألة سأل القابلات والأطباء فما صححوا له هذا الخبر، ولذلك رده قلبه مع أن القدرة لا تدفعه، والطبيعة لا تنكره، والشريعة لا ترده، وإن كان من الأمور التي لا تعرف بالقياس بل بالعيان.

مثال آخر من نقده العلمي: هزأ ببعض المفسرين في دعواهم أن السنور خُلق من عطسة الأسد، وأن الخنزير خُلق من عطسة الفيل عندما زعموا (أن أهل سفينة نوح لما تأذوا من كثرة الفار وشكوا، سأل ربه الفرج، فأمره أن يأمر الأسد فيعطس، فلما عطس خرج من منخريه زوج سنانير من ذكر وأنثى، خرج الذكر من المنخر الأيمن، والأنثى من المنخر الأيسر، فكفاهم مؤونة الجرذان، ولما تأذوا برائحة نجوهم[1] شكوا ذلك إلى نوح، فشكا إلى الله -تبارك وتعالى- فأمره أن يأمر الفيل فيسلح فسلح خنازير، فكفوهم مؤونة رائحة ذلك النجو) قال: «وهذا الحديث نافق عند العوام، وعند بعض القصاص».

(١) النجو: ما يخرج من البطن من ريح أو غائط، والسلاح كغراب، وسلح: كمنع وأسلح.

مثال غيره: وقد قال الناس في قوله تعالى: {إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم طلعها كأنه رءوس الشياطين}، فزعم ناس أن رءوس الشياطين ثمر شجرة تكون ببلاد اليمن لها منظر كريه، والمتكلمون لا يعرفون هذا التفسير. وقالوا ما عنى إلا شياطين معروفين بهذا الاسم من فسقة الجن ومَرَدتهم، فقال: أهل الطعن والخلاف كيف يجوز أن يضرب المثل لشيء لم نره فنتوهمه؟ ولا وصف لنا صورته في كتاب ناطق أو خبر صادق، ومخرج الكلام يدل على التخويف بتلك الصورة والتفزيع منها، وعلى أنه لو كان شيء أبلغ في الزجر من ذلك لذكره، فكيف يكون إنسان كذلك، والناس لا يفزعون إلا من شيء هائل شنيع قد عاينوه، أو صوّره لهم واصف، صادق اللسان، بليغ في الوصف، ونحن لم نعاينه ولا صورها لنا صادق... (وكل قول يكذبه العيان، فهو أفحش خطأ، وأسخف مذهبًا، وأدل على معاندة شديدة، أو غفلة مفرطة).

وبعد فإنك ترى الجاحظ وهو يطلق العنان لقلمه في كتاب الحيوان، يزيف الخرافات والترهات في عصره وقبل عصره، ويورد عليك نقداته ومباحثاته، فيقع في نفسك أنه لو جاء كثير مثله في عقلاء العلماء لخلت كتب الأقدمين من الإسرائيليات والسخافات، مما تخيله من دخلوا في الإسلام حقائق أو رقائق، وأنه لا يضر الدين إذا جعل على هامشه، فوسعوا بها وضعوا دائرة الخيالات، وبهرجوا دينًا ساذجًا، وما كان ما أدخلوه فيه من أصله ولا من متنه.

ثم تأمل قوله: «رووا عن وائلة إياس بن معاوية، أنه زعم أن من الدليل على أن الشبوط كالبغل، أن الناس لم يجدوا في طول ما أكلوا الشبابيط في جوفها بَيْضًا قط، فإن كان هذا الخبر عن هذا الرجل المذكور بشدة العقل، المنعوت بثقوب الفراسة، ودقة الفطنة صحيحًا، فما أعظم المصيبة علينا فيه، وما أخلق الخبر أن يكون

صحيحًا...» ومثله قوله في رد قول العوام في الكركدن وضربهم المثل به في الشدة والقوة. قال: «وتزعم أنه ربما نطح الفيل فرفعه بقرنه الواحد الذي في وسط جبهته، فلا يشعر بمكانه ولا يحس حتى ينقطع على الأيام، وهذا القول بالخرافة أشبه. وأعجب من القول في ولد الكركدن، ما يخبرنا به ناس من أهل النظر والأدب وقراءة الكتب، وذلك أنهم يزعمون أن النمرة لا تضع ولدها أبدًا إلا وهو متطوق بأفعى، وأنها تعيش وتنهش، إلا أنها لا تقتل». قال: «ولو كنت أجسر في كتبي على تكذيب العلماء، ودرّاس الكتب لبدأت بصاحب هذا الخبر».

ومما قال: «وفي السمندل لآية غريبة، وصفة عجيبة، وداعية إلى التفكر وسبب التعجب، وذلك أنه يدخل أتون النار فلا تحترق له ريشة». وقال في مكان آخر: «خبرت عن فأرة البيش[1] واغتذائها السموم، وعن الطائر الذي يدعي السمندل وطيرانه في جاحم الأتون، فلا السم المجهز يضر بتلك الفأرة، ولا النار المضطرمة تحرق من ذلك الطائر زغبة». وقال: «هذا الطائر في طباعه وفي طباع ريشه مزاج من طلاء النفاطين، وأظن هذا الطلاء من طَفَل وخِطمى ومَغْرَة. وقد كنت رأيت عودًا يؤتى به من ناحية كرمان لا يحترق، وكان عندنا نصراني في عنقه صليب منه، وكان يقول لضعفاء الناس: هذا العود من الخشبة التي كان المسيح صُلب عليها، والنار لا تعمل فيه، فكان يكتسب بذلك، حتى فطن له وعورض بهذا العود. وزعم ثمامة أن الإنسان إن أخذ من هذا الطحلب الذي يكون على وجه الماء في مناقع المياه فجففه في الظل وأحرقه فإنه لا يحترق».

---

(١) البيش بالكسر: نبات كالزنجبيل رطبًا ويابسًا، وربما نبت فيه سم قتال لكل حيوان وترياقه فأرة البيش، وهي فأرة تتغذى به والسماني تتغذى به أيضًا ولا تموت، ودواء المسك يقاومه (القاموس).

ومما قال: «ومما لا أكتبه لك من الأجناس العجيبة التي لا يجسر عليها إلا كل وَقاح أخبار بعض العلماء، وبعض من يؤلف الكتب ليقرأها الناس، ويدارس أهل البصرة ويحفظها، زعموا أن الضبع يكون عامًا ذكرًا وعامًا أنثى، وسمعت هذا من جماعة منهم من لا أستجيز تسميته...».

من جملة علوم الجاحظ الطب والكيمياء والظواهر الجوية والطبيعية والأخلاق وعلم النفس، ألَّف في المعادن والأصباغ كما ألَّف في التجارة، ونقل عن حُنين بن إسحاق وبختيشوع وسلمويه وغيرهم من علماء عصره. وكان يعرف النقص في كتب الأطباء والعلوم حتى قال: «وما كان أحوجنا وأحوج جميع المرضى أن يكون جميع الأطباء متكلمين، وإلى أن يكون المتكلمون علماء، فإن الطب لو كان من نتائج حذاق المتكلمين ومن تلقيحهم له لم نجد في الأصول التي يبنون عليها من الخلل ما نجد». وكان يتوفر على تربية بعض الأشجار والنبات توفره على تربية بعض الدواجن وغيرها من الحيوانات، ليصدر إذا كتب عن خبرة. وقد ألَّف في الأشجار كتابًا قالوا: إنه بإمتاعه ككتاب الحيوان. وكان شعاره: «إذا سمعت الرجل يقول ما ترك الأول للآخر شيئًا فاعلم أنه ما يريد أن يفلح»، وقال: «وكلام كثير قد جرى على ألسنة الناس، وله مضرة شديدة وثمرة مرة، فمن أضرّ ذلك قولهم: لم يدع الأول للآخر شيئًا، قال: فلو أن علماء كل عصر مذ جرت هذه الكلمة في أسماعهم، تركوا الاستنباط لما لم ينته إليهم عمن قبلهم لرأيت العلم مختلًّا».

من أجل هذا توسع الجاحظ في بحثه، وكان على علمه الفياض يسأل جميع طبقات الناس عما يهمه ويريد أن يتفهمه، فيصف الماديات والمحسوسات، ويسترشد حتى بآراء الحراس، ويتحدث حتى إلى الحُواة والجزارين وأرباب الصناعات، ويسأل الحشوة وأرباب البطالة، وقد يأخذ بآراء البحريين إذا رووا له غرائب قَبِلها

عقله، أو يردها ولا يقرها إذ كانت حديث خرافة. ويتحدث إلى كل من عنده (ظرائف من الكلام، وعجائب من الأقسام)، وقد روى أشياء كثيرة عن الأعراب في البادية وعن العامة في المدن، فالحكمة ضالته يلتقطها حيث يجدها.

قال في رسالة «الحنين إلى الأوطان»: رأيت عبدًا أسود حبشيًّا لبني أسد قدِم من شق اليمامة فصار ناطورًا، وكان وحشًا مجنونًا لطول الغربة مع الإبل، وكان لا يلقى إلا أكرة فلا يفهم عنهم ولا يستطيع إفهامهم، فلما رآني سكن إليَّ وسمعته يقول: لعن الله أرضًا ليس بها عرب، قاتل الله الشاعر حيث يقول:

حـــر الثـــرى مـــستعرب الـــتراب

أبا عثمان إن هذا العريب في جميع الناس كمقدار القرهة في جلد الفرس، فلولا أن الله رقّ عليهم فجعلهم في حشاة لطمست هذه العجم آثارهم. اهـ.

فالجاحظ لم يحتقر هذا الحديث الذي بدر عن لسان عبد مستوحش وأورده مثالًا على موضوعه في الوحشة التي تعتري النازح عن وطنه. ونحن بذا الحديث القصير أيضًا أدركنا أن العراق لم يكن تعَرّب كله في طرفي المائة الثانية والثالثة، وأن أكرته وفلاحيه ظلوا على سريانيتهم، وأن العرب كانوا إلى قلة على كل حال.

ولم نرى أبا عثمان على كثرة ما خاض غماره من الأبحاث مس الموضوعات التاريخية بالمعنى الذي بدأ المؤرخون في عصره يخوضون فيه، على طريقة الرواية وتصحيح السند. وربما لم يهمه ذكر الحروب ووصف الملوك في عدلهم وجورهم ومولدهم وتوليهم وموتهم، ولا حديث أعدائهم وفتن بلادهم ومشاغبهم ومتاعبهم ومؤامراتهم ودسائسهم، ولا طبقات الرجال في موالدهم ووفياتهم، وما صرفوا فيه عقولهم وأعمارهم وخلفوه من مآثرهم، بل كان التاريخ الذي شغل قلمه

وقلبه وصف الناس وذكر أخبار من عاصرهم مما فيه تعليم وتثقيف، فهو المؤرخ الاجتماعي في عصره، يورد لك من مشاهداته ومروياته ما يوسع أُفق نظرك، ويدلك على مواطن الحسنات والسيئات، ولعلَّ هذا ما دعا السخاوي المؤرخ إلى أن عدّ الجاحظ من المؤرخين.

رأى الجاحظ التاريخ السياسي وتاريخ الرجال ضيق المضطرب، وقد تسربت إليه أخطاء لا يقرها، فأرَّخ للأمة، والكلام فيها واسع المجال، وكما كان في التاريخ هو في الفلسفة، قرأ ما كُتب وتُرجم في عصره، فما نقل آراء أرسطو مستحسنًا لها كلها، ولا شغف بأفلاطون ولا بغيره من فلاسفة اليونان، بل طبق العلوم المادية وعلوم الحياة والأحياء وعلم الاجتماع على النظر الفلسفي، فأهمه من الفلسفة روحها، وابتعد عما قد يكون فيها من خيال ومحال، وبعبارة ثانية أنه كان من أصحاب النظر العملي، وما تعدى في الإلهيات حيز المنطق الصحيح، والمصادر السليمة التي تدعمها الحجة ولا ينكرها إلا مكابر.

يقول لك حينًا: إن «غرائب الدنيا كثيرة عند كل من كان كلِفًا بتعرافها وكان له في العلم أصل، وكان بينه وبين التبيين نصيب، وأكثر الناس لا تجدهم إلا في حالتين: إعراض عن التبيين، وإهمال النفس، وإما في حالة تكذيب وإنكار وتسرع إلى أصحاب الاعتبار، وتتبع الغرائب، والرغبة في الفوائد. ثم يرى بعضهم أن له بذلك التكذيب فوائد، وأن ذلك من باب التوقي، وجنس من استعظام الكذب، وأنه لم يكن كذلك إلا من حاز الرغبة في الصدق، أو تبين الشيء معاندة للإقرار وقهرًا بالحق».

ومن استقرائه العلمي في الذباب قوله: «وعندنا بالبصرة في الذباب أعجوبة، لو كانت بالشامات[1] أو بمصر لأدخلوها في باب الطلسم؛ وذلك أن التمر يكون مصبوبًا في بيادر التمر في شق البساتين، فلا ترى على شيء منها ذبابة، لا في الليل ولا في النهار، ولا في البرد ولا في أنصاف النهار. نعم وقد تكون المعاصر، ولأصحاب المعاصر ظلال، ومن شأن الذباب الفرار من الشمس إلى الظل، وإنما تلك المعاصر بين ثمرة رطبة ودبس، ثم لا تكاد ترى في تلك الظلال والمعاصر في انتصاف النهار، وفي وقت طلب الذبان الكنَّ، إلا دون ما تراه في المنزل الموصوف بقلة الذبان. وهذا شيء يكون موجودًا في جميع الشق الذي فيه البساتين، فإن تحول شيء من تلك البادية إلى جميع ما يقابلها في نواحي البصرة غشيه من الذبان ما عسى أن لا يكون بأرض الهند أكثر منه. وليس بين جزيرة دُبيس وبين موضع الذبان إلا فيض البصرة، ولا بين ما يكون من ذلك بنهر أذرب وبين موضع الذبان مما يقابله إلا فرسخان، وهو ذلك التمر وتلك المعصرة، ولا تكون تلك المسافة إلا مائة ذراع أو أزيد شيئًا أو أنقص شيئًا.

وأعجوبة أخرى، وهي عندي أعجب من كل شيء صدَّرنا به جملة القول في الذبان. فمن العجب أن يكون بعض الحيوان لا ينام كالعصافير والتنوط، فإنهما إذا كان الليل فإن أحدهما يتدلى من غصن الشجرة ويضم عليه رجليه وينكس رأسه، ثم لا يزال يصيح حتى يبرق النور، والآخر لا يزال ينتقل في زوايا بيته، ولا يأخذه القرار خوفًا على نفسه، فلا يزال كذلك، وقد نتف قبل ذلك مما على ظهور الأشجار ما يشبه بالليف، فنفشه ثم فتل منه حبلًا، ثم عمل منه كهيئة القفة، ثم جعله مدلًّى بذلك الحبل، وعقده بطرف غصن من تلك الأغصان، إلا أن ذلك بترصيع ونسج ومداخلة عجيبة، ثم يتخذ عشه فيه، ويأوي إليه مخافة على نفسه».

---

(١) الشامات: بلاد الشام.

كأن الجاحظ كان كالطائر يتنقل من شجرة إلى شجرة، ومن حديقة إلى حديقة، يلتقط الزهرة والحبة، ومن كان يظن أن الرجل الذي يؤلف في علوم الدين والجدل والرد على المخالفين، وهو في أصله إمام ديني وصاحب مذهب وعلم من أعلام الشريعة.

من كان يظن أنه يؤلف في الحيوان وفي الزرع وفي الشجر والنخل، وفي كل ما يعرض له من الموضوعات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية والأدبية.

من كان يظن أن للجاحظ كتابًا في الأمصار وعجائب البلدان أشبه بكتاب البلدان لابن الفقيه رآه المسعودي ووصفه بأنه في نهاية الحسن، قال: «وإن كان الرجل لم يسلك البحار، ولا أكثر الأسفار ولا تقرى[1] الممالك والأمصار» نعم ما رحل الجاحظ رحلات المسعودي، واقتصر على التنقل في أرض العراق والشام والجزيرة وفارس والروم وبلاد العرب فقط، وليس من الميسور لكل إنسان في دهره أن يطوف الأرض، فإن هذا ما كان يتيسر إلا للفرد بعد الفرد، وفي العصر بعد العصر.

وصف الجاحظ الأهواز وهواءها وتأثيرها في الطباع والأجسام، ووصف تأثير الهواء في الإنسان والحيوان في حرّة بني سُليم في عالية نجد، فقال بتأثير البيئة في الكائنات الحية. فإن كان وصفه الأمصار في جغرافيته كوصفه أهل الأهواز، وهو ما نعتقده، فإنه من أحسن ما كتب في الجغرافيه الإنسانية والطبيعية والوصفية. قال في الأهواز: «إنها قلبت كل من نزلها من بني هاشم إلى كثير من طباعهم وشمائلهم، ولا بد للهاشمي قبيح الوجه كان أو حسنًا، أو دميمًا كان أو بارعًا رائعًا، من أن يكون

(١) يقال قرا الأمر واقتراه: تتبعه، وقروت البلاد قروًا: تتبعتها أرضًا أرضا وسرت فيها كاقتريتها واستقريتها.

لوجهه وشمائله طبائع يبين بها من جميع قريش وجميع العرب. فلقد كانت البلدة تنقل ذلك فتبدله، ولقد تحيفه وتدخل الضنى عليه، وتبين أثرها فيه، فما ظنك بصنيعها في سائر الأجناس، ولفساد عقولهم، ولؤم طبع بلادهم، لا تراهم مع تلك الأموال الكثيرة، والضياع الفاشية، يحبون من البنين والبنات ما يحبه أوساط أهل الأمصار، على الثروة واليسار، والمال مَنْبَهة كما تعلمون؛ وقد يكتسب الرجل من غيرهم المويل اليسير فلا يرضى لولده حتى يفرض له المؤدبين، ولا يرضى للسانه بمثل الذي كان يرضاه قبل ذلك. وليس في الأرض صناعة مذكورة، ولا أدب شريف، ولا مذهب محمود لهم في شيء منه نصيب وإن حَسُن، ولم أرَ بها وجنة حمراء لصبي ولا صبية، ولا دمًا ظاهرًا ولا قريبًا من ذلك، وهي قتالة للغرباء، على أن حُمَّاها خاصة ليست للغريب بأسرع منها إلى القريب، ووباها وحماها في وقت انكشاف الوباء ونزوع الحمى عن جميع البلدان، وكل محموم في الأرض فإن حماه لا تنزع عنه ولا تفارقه، وفي بدنه منها بقية. فإذا نزعت عنه فقد أخذ منها عند نفسه البراءة إلى أن يعود إلى الخلط، وأن يجمع في جوفه الفساد، وليست كذلك الأهواز لأنها تعاود من نزعت عنه من غير حدث، كما تعاود أصحاب الحدث لأنهم ليسوا يؤتون من قِبَل النهم، ومن قبل الخلط والإكثار، وإنما يؤتون من عين البلدة». وقال أيضًا: «رب بلد يستحيل فيه العطر وتذهب رائحة كقصبة الأهواز».

وقال في حرَّة بني سليم: «إنهم ليتخذون المماليك للرعي والسقي والمهنة والخدمة من الروميين والصقالبة مع نسائهم، فما يتوالدون ثلاثة أبطن حتى تقلبهم الحرة إلى ألوان بني سُليم. ولقد بلغ من أمر هذه الحرة أن ظباءها ونعامها وذئابها وثعالبها وحميرها وخيلها كلها سود، قال: والسواد والبياض هما من قبل خلقة البلدة، وما طبع الله عليه الماء والتربة، ومن قبل قرب الشمس وبعدها، وشدة حرها ولينها، وليس ذلك من قبل مسخ ولا عقوبة، ولا تشويه ولا تقبيح، على أن حرة

بني سُليم تجري مجرى بلاد الترك، فإنك إذا رأيت الترك، ورأيت إبلهم ودوابهم، وكل شيء لهم حسبته شيئًا واحدًا، وكل شيءٍ لهم تركي المنظر».

وبهذا رأيناه يقول بتطور الأحياء بحسب البيئة وتعاقب الأيام، ويعلل ذلك تعليلًا مقبولًا كما يعلل أشياء أخر مثل عذوبة المطر والثلج، وملوحة مياه البحر. ومعظم ما وصفه من أنواع الحيوان وصفه وصفًا دقيقًا، كأنه رآه المرة بعد المرة وأجرى تجاربه عليه ودقق فيه، ونظر ما قاله فيه من قبله، فما وافق الحس والعقل من أقوالهم قَبِله، وما لم يوافق عليه ردّه مع إيراد الأسباب الداعية له إلى رده.

ومما قال: «بالبصرة ثلاث أعجوبات ليست في غيرها من البلدان، منها أن عدد المد والجزر في جميع الدهر شيء واحد، فيقبل عند حاجتهم إليه، ويرتد عند استغنائهم عنه. ثم لا يبطئُ عنها إلا بقدر هضمها واستمرائها وجمامها واستراحتها، لا يَقتلها عطشًا ولا غرقًا، ولا يُغبها ظمًا ولا عطشًا، يجيءُ على حساب العلوم، وتدبير منظوم، وحدود ثابتة وعادة قديمة، يزيدها القمر في امتلائه، كما يزيدها في نقصانه فلا يخفى على أهل الغلات متى يتخلفون، ومتى يذهبون ويرجعون، بعد أن يعرفوا مواضع القمر، وكم مضى من الشهر، فهي آية وأعجوبة، ومفخرة وأُحدوثة، لا يخافون المحل، ولا يخشون الحَطْمة[1]».

وقال أيضًا: «من شأن الملوك أن يطمسوا على آثار من قبلهم، وأن يميتوا ذكر أعدائهم، فقد هدموا بذلك السبب المدن وأكثر الحصون، كذلك كانوا أيام العجم وأيام الجاهلية، وعلى ذلك هم في أيام الإسلام، كما هدم عثمان صومعة غُمدان، وكما هدم الآطام التي كانت بالمدينة، وكما هدم زياد كل قصر ومصنع كان لابن عامر، وكما هدم أصحابنا (العباسيون) بناء مدن الشامات لبني مروان».

---

(١) الحطمة ويضم والحاطوم: السنة الشديدة.

يكلمك الجاحظ تارة في رغبات الناس في العلوم، ويذكّرك بأنه لم تظهر له العلة فيها، إلا أنه يعجب من الوسط في صناعته، ومن كانت فطرته غير مؤاتية، فيقول: «صار طلب الحساب أخفّ على بعضهم، وطلب الطب أحبَّ إلى بعضهم، وكذلك النزاع إلى الهندسة، وشغف أهل النجوم بالنجوم، فتجد واحدًا يلهج بطلب الغناء واللحون وآخر يلهج بشهوة القتال، حتى يكتب مع الجند، وآخر يختار ورّاقًا، وآخر يختار طلب الملك، وتجد حرصهم على قدر العلل الباطنة المحركة لهم، ثم لا تدري كيف عرض لهذا هذا السبب دون الآخر، إلا بجملة من القول، ولا تجد المختار لبعض هذه الصناعات على بعض، يعلم لما اختار ذلك في جملة ولا تفصيل، إذا كان لم يجرِ منه على عِرق[1]، ولا اختاره على إرث، وليس العجيب من رجل في طباعه سبب يصل بينه وبين بعض الأمور، ويحركه في بعض الجهات، ولكن العجب ممن يموت مغنيًا، وهو لا طبع له في معرفة الوزن، وليس له جرم حسن، فيكون إن فاته أن يكون معلمًا ومغني خاصة، أن يكون مطربًا ومغني عامة...».

احتج للإماء، «قال بعض من احتج للعلة التي من أجلها صار أكثر الإماء أحظى عند الرجال من أكثر المهيرات[2]، أن الرجل قبل أن يملك الأمَةَ قد تأمل كل شيء منها وعرفه، ما خلا حظوة الخلوة، فأقدم على ابتياعها بعد وقوعها الموافقة، والحرة إنما يستشار في جمالها النساء، والنساء لا يُبصرن من جمال النساء وحاجات الرجال وموافقتهن قليلًا ولا كثيرا؛ والرجال بالنساء أبصر، وإنما تعرف المرأة من المرأة ظاهر الصفة، وأما الخصائص التي تقع بموافقة الرجال فإنها لا تعرف ذلك؛ وقد تحسن المرأة تقول: كأن أنفها السيف، وكأن عينها عين غزال، وكأن عنقها إبريق

(١) العرق: أصل كل شيء.

(٢) المهيرة: الحرة الغالية المهر.

فضة، وكأن ساقها جُمَّارة، وكأن شعرها العناقيد، كأن أطرافها المداري. وما أشبه ذلك، وهناك أسباب أُخر بها يكون الحب والبغض».

وقال في رسالته في النساء: «ورأيت أكثر الناس من البصراء بجواهر النساء الذين هم جهابذة هذا الأمر يقدمون المجدولة، والمجدولة من النساء تكون في منزلة بين السمينة والممشوقة، ولا بد من جودة القد، وحسن الخرط، واعتدال المنكبين، واستواء الظهر، ولا بد من أن تكون كاسية العظام، بين الممتلئة والقضيفة[1]، وإنما يريدون بقولهم: مجدولة[2]، جودة العصب وقلة الاسترخاء، وأن تكون سليمة من الزوائد والفضول، ولذلك قالوا: خمصانة وسفيانة[3]، وكأنها جان، وكأنها جَدْل عنان، وكأنها قضيب خيزران، والتثني في مشيها أحسن ما فيها، ولا يمكن ذلك للضخمة والسمينة، وذات الفضول والزوائد، على أن النحافة في المجدولة أعم، وهي بهذا تحبب على السمان الضخام، وعلى الممشوقات والقضاف، كما يحبب هذه الأصناف على المجدولات، ووصفوا المجدولة بالكلام المنثور، فقالوا: أعلاها قضيب، وأسفلها كثيب». ونحن بعد كلامه هذا يحق لنا أن ندعي أن الجاحظ كان يعرف كل شيء.

ومما قاله: «قلَّ معنى سمعناه في باب معرفة الحيوان من الفلاسفة، وقرأناه في كتب الأطباء والمتكلمين، إلا ونحن قد وجدنا قريبًا منه في أشعار العرب، وفي معرفة أهل لغتنا وملتنا».

---

(١) القضافة والقضف محركة وكعنب: النحافة وهو قضيف (ج) قضفان.

(٢) المجدول: اللطيف القصب المحكم الفتل.

(٣) رجل خمصان بالضم وبالتحريك، وخميص الحشي: ضامر البطن، وهي خمصانة وخميص من خمائص. ورجل سيفان: ممشوق ضامر، والأنثى سيفانة وهي الشطبة كأنها نصل سيف، قالوا: ولا يوصف به الرجل.

ولذلك رأيناه يقرِّب الفلسفة من الأذهان ويمزجها بالأدب وأشعار العرب ليخرجها عن جفائها؛ ورأيناه مع وقوفه على العلوم اليونانية ينقد بعض ما لم يدخل في دائرة الحس والعقل، ولا يأخذه قضايا مسلمة كفعله في إنكار أحاديث الجن وما روي من الشعر في رؤيتهم، فقال: إن للناس في هذا ضروبًا من الدعاوى، وعلماء السوء يظهرون تجويزها وتحقيقها؛ ومن استقراءاته قوله: «إنهم أحصوا أصناف نخل البصرة، دون نخل المدينة، ودون مصر واليمامة والبحرين وعمان وفارس وكرمان، ودون الكوفة وسوادها وخيبر وذواتها، والأهواز وما بها، أيام المعتصم، وإذا ثلثمائة وستون ضربًا من مُغل معروف، وخارجي موصوف، وبديع غريب، مع طيب هجيب».

وقال في كتابه الأمصار: أكثر الدور غلة ثلاث: دار البطيخ بسرّ من رأى، ودار الزبير بالبصرة، ودار القطن ببغداد. ومما قاله في رصف البصرة: إنه لا يعرف مصر جاهلي ولا إسلامي أفضل من البصرة، وإنها قلب الدنيا وواسطة الأرض وفرضة البحر.

ومن ملاحظاته: واعلم أن الله تعالى إنما خالف بين طبائع الناس ليوفق بينهم، ولم يحب أن يوفق بينهم فيما يخالف مصلحتهم، لأن الناس لو لم يكونوا مسخرين بالأسباب المختلفة، وكانوا مجبرين في الأمور المتفقة والمختلفة، لجاز أن يختاروا بأجمعهم الملك والسياسة، وفي هذا ذهاب العيش وبطلان المصلحة، والبوار والتواء، ولو لم يكونوا مسخرين بالأسباب مرتهنين بالعلل لرغبوا عن الحجامة أجمعين وعن البيطرة والقصابة والدباغة، ولكن لكل صنف من الناس مزين عندهم ما هم فيه، ومسهل ذلك عليهم، فالحائك إذا رأى تقصيرًا من صاحبه، أو سوء حذق أو خرقًا قال له: يا حجام، والحجام إذا رأى تقصيرًا من صاحبه قال له: يا حائك، ولذلك لم

يُجمعوا على إسلام أبنائهم في غير الحياكة والحجامة والبيطرة والقصابة؛ ولولا أن الله تعالى أراد أن يجعل الاختلاف سببًا للاتفاق والائتلاف، لما جعل واحدًا قصيرًا وآخر طويلًا، وواحدًا حسنًا وآخر قبيحًا، وواحدًا غنيًّا وآخر فقيرًا، وواحدا عاقلًا وآخر مجنونًا، وواحدا ذكيًّا وآخر غبيًّا، ولكن خالف بينهم ليختبرهم، وبالاختبار يطيعون، وبالطاعة يسعدون، ففرق بينهم ليجمعهم، وأحب أن يجمعهم على الطاعة ليجمعهم على المثوبة، فسبحانه وتعالى ما أحسن ما أبلى وأولى، وأحكم ما صنع وأتقن ما دبر، لأن الناس لو رغبوا كلهم عن عار الحياكة لبقينا عراة، ولو رغبوا بأجمعهم عن كد البناء لبقينا بالعراء، ولو رغبوا عن الفلاحة لذهبت الأقوات، ولبطل أصل المعاش، فسخرهم على غير إكراه، ورغبهم من غير دعاء، ولولا اختلاف طبائع الناس وعللهم لما اختاروا من الأشياء إلا أحسنها، ومن البلاد إلا أعدلها، ومن الأمصار إلا أوسطها، ولو كان كذلك لتناجزوا على طلب الواسط، وتشاجروا على البلاد العليا، ولما وسعهم بلد، ولما تم بينهم صلح، فلقد صار بهم التسخير إلى غاية، وكيف لا يكون كذلك، وأنت لو حوّلت ساكني الآجام إلى الفيافي، وساكني السهول إلى الجبال، وساكني الجبال إلى البحار، وساكني الوبر إلى المدر، لأذاب قلوبهم الهمُّ، ولأتى عليهم فرط النزاع.

ومما استقراه قوله لما تولى خالد بن الوليد كسر الأصنام التي كانت قريش تعبدها، ورمى عُزّى بالشرر حتى أحرقت عامة فخذه: «وما أشك في أنه قد كانت للسدنة[1] حيل وكمين؛ ولو سمعت أو رأيت بعض ما أعد الهند من هذه المخاريق في بيوت عباداتهم لعلمت أن الله تعالى قد منَّ على جملة المسلمين بالمتكلمين الذين نشأوا فيهم»؛ قال: «وما زالت السدنة تحتال للناس من جهة النيران بأنواع الحيل كاحتيال رهبان كنيسة الرُّها لمصابيحها، حتى أن زيت قناديلها ليستوقد لهم من غير

(١) سدن سدنًا وسدانة: خدم الكعبة أو بيت الصنم وعمل الحجابة، فهو سادن (ج) سدنة.

نار في بعض ليالي أعيادهم، وبمثل ذلك احتال السادن لخالد بن الوليد حين رماه بالشرر ليوهمه أن ذلك من الأوثان عقوبة على ترك عبادتها وإنكارها والتعرض لها حين قال: يا عُزّى كفرانك لا سبحانك، إني رأيت الله قد أهانك»؛ قال: «وجعلت قريش وقد أهوى خالد بسيفه إلى العُزّى تصيح: يا عُزّى خَبِّليه، يا عزّى عزّريه، وليس ينثني من تهاويلهم، وعلاها بالسيف حتى كسرها».

وقال في الرد على من زعم أن خالد بن سنان لم يكن من ولد إسماعيل نبي قبله: «المتكلمون لا يؤمنون بهذا، ويزعمون أن خالدًا كان أعرابيًا وبريًا، ولم يبعث الله قط نبيًا من الأعراب ولا من أهل الوبر، وإنما بعثهم من أهل القرى وسكان الجزر، والله أعلم حيث يجعل رسالته».

وذكر الشياطين في بعض كتبه، ومما قال: «إنا وإن كنا لم نر شيطانًا قط، ولا صوَّره لنا صادق، ففي إجماع العرب والمسلمين وكل ما لقيناه متفق على ضرب المثل بقبح الشيطان، وهو دليل على أنه في الحقيقة أقبح من كل قبيح، والكتاب إنما نزل على الذين ثبت هذا في طبائعهم غاية الثبات»؛ وقال: «ليس من الناس من رأى شيطانًا قط على صورته، لكن لما كان الله جعل في طبائع جميع الأمم استقباح صورة الشيطان واستسماجه وكراهته، وأجرى هذا على ألسنة جميعهم ضرب المثل به في ذلك، رجع بالإيحاش والتنفير وبالإخافة والتفريع إلى ما جعله في طبائع الأولين والآخرين والشيوخ والصبيان والرجال والنساء....».

وأنكر انشقاق القمر كما هو رأي كثير من أهل الذكر، فقال: إنه لم يتواتر الخبر به، وإنه لو انشق حتى صار بعضه في جبل أبي قبيس لوجب أن تختلف التقويمات بالزيجات لأنه قد علم سيره في كل يوم وليلة، فلو انشق القمر لكان وقت انشقاقه لا يسير، فأما قوله تعالى: {اقتربت الساعة وانشق القمر} فإن معناه سينشق.

ومن ملاحظاته: «لا تليق ثلاثة أسماء بأعيانها إلا في الملوك والسادة، ألا ترى أن بهرام بن بهرام بن بهرام في ملوك العجم، والحارث بن الحارث بن الحارث في ملوك غسان، والحسن بن الحسن بن الحسن في سادة الإسلام». وقال: «ثلاثة بنو أعمام في زمان واحد، يسمى كل واحد منهم عليًّا، وكل واحد منهم فقيه عالم عابد يصلح للإمامة: علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب، وعلي بن الحسين بن علي بن أبي طالب بن عبد المطلب، وعلي بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، ثم بنوهم ثلاثة بنو أعمام ويسمى كل واحد منهم محمدًا، وكل منهم فقيه عالم عابد يصلح للإمامة: محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب، ومحمد بن علي بن الحسين بن أبي طالب بن عبد المطلب، ومحمد بن علي بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، وهو من أغرب ما يتهيأ في العالم، ويتفق في الأزمنة، وهذه فضيلة لا يشركهم فيها أحد». نقول: وهذا من معرفته بالأنساب أيضًا فاهتدى من الغرائب فيها إلى ما لم يهتد إليه غيره، ولا وقع في خاطره.

ومن استدلالاته أيضًا: «قد علمنا أن داعي استفاضة النجدة في جميع أصناف الخوارج وتقدمهم فيها إنما هو بسبب الديانة، لأنا نجد عبيدهم ومواليهم ونساءهم يقاتلون مثل قتالهم، ونجد السجستاني وهو عجمي، واليمامي والنجراني والجزري وهم عرب، ونجدُ تاهرت وهي بلاد عجم، كلهم في القتال والنجدة سواء وفي ثبات العزيمة والقوة والشدة متكافئين، فاستوت حالاتهم في النجدة مع اختلاف أنسابهم وبلدانهم، أفما في هذا دليل على أن الذي سوى بينهم هو التدين بالقتال؟» وهذا ضرب من كشف روح المتمذهبين بالمذاهب لا نعرفه لأحد ممن كتب في عصره في فلسفة الدينيين والأديان.

وقال في نار المجوس: «ما زال الناس كافة، والأمم قاطبة، حتى جاء الله بالحق، مولعين بتعظيم النار، حتى ظن كثير من الناس لإفراطهم أنهم يعبدونها. ويزعم أهل الكتاب أن الرب أوصاهم بها فقال: لا تطفئوا النار في بيوتي، ولذلك لا تجد الكنائس والبيع وبيوت العبادات تخلو من نار أبدًا ليلًا ونهارًا. فأما المجوس فإنها لم ترض بمصابيح أهل الكتاب حتى اتخذت البيوت للنيران، وأقامت عليها السدنة، ووقفت عليها الغلات الكثيرة، وسجدت لها على جهة التعبد والمحبة، وإيجاب الشكر على النعمة، وقد ضرب المثل بنار المجوس من صحب قومًا فلم يرعوا حق صحبته بهم وخدمته إياهم فقال:

عمـــري لقـــد جـــربتكم ... فوجـــدتكم نـــار المجـــوس

وذلك أنها لا تفرق بين من يعبدها ويسجد لها، وبين من يبزق فيها ويبول عليها، بل تعم الجميع بالإحراق إذا أمكنها».

وقال: «الأمم كلها تضرب مثلًا بالعنقاء في الشيء الذي يسمع به ولا يرى كما قال أبو نواس:

ومـــا خبـــزه إلا كَعَنقَـــاء مُغْـــرب ... يُـصَوَّر في بـسط الملـوك لهـا مثـلُ
يحـدث عنهـا النـاس مـن غـير رؤيـة ... سـوى صـورة مـا إن تمـر ولا تحلـو

وما أكثر من ينكر أن يكون في الدنيا حيوان يسمى كركند وعنقاء مغرب، وإن كانوا يرون صورة العنقاء مصورة في بسط الملوك وحيطان قصورهم، واسمها عندهم مسموع». ومن غريب تحقيقه في النمل قوله: «والنمل ربما أجلى أمة من الأمم عن بلادهم»، ومن تحقيقاته: «ويزعم أهل الشرع أنهم لم يجدوا في ضروب الحيوان أشبه بالإنسان تركيبًا وأعضاء وجوارح، ولم يروا أقرب منه خلقة وصورة وأدنى إليه شبها ومشاكلة من القرد، وأن من تقدم جالينوس من الأطباء لم يفصلوا

قط انسيًّا، ولم يشرّحوا آدميًّا، وإنما عرفوا تلك الأمور الغامضة والسرائر الكامنة بما فصلوا من أجسام القرود، وبعض مَن وُجد من القتلى على ندرة في بعض معارك الملوك».

وقال في عجائب البحر: «وليس ذلك بأعجب من شيء عاينه جميع من يركب البحر وذلك أن الطائر من طَيْره يطير في الهواء، فيبعث به طائر صغير، فإذا أحرجه ذلك ذرق، فتلقاه الطائر فابتلعه، فلا هو يخطئ بذلك الذرق حلق الطائر الصغير، ولا الطائر الصغير يجهل مكان ذرقه، وما يعيِّشه من ذلك الطائر الكبير، والدُّخس من دواب البحر ومما يعايش السمك وليس بسمك، وهو يعرف الغريق ويدنو منه حتى يضع الغريق يده على ظهره فيسبح به، والغريق يذهب معه، ويستعين بالاعتماد عليه والتعلق به، حتى ينجيه، وهذا عند البحريين مشهور لا يتدافعونه».

وقال في علة فشو الفاحشة في بعض الناس: «ولو كانت هذه الشهوة شائعة في الأعراب لتعشقوا الغلمان، ولو تعشقوهم لنسبوا بهم، ولجاءهم فيه باب من النسيب، ولتهاجوا به وتفاخروا، ولتنافسوا في الغلمان، ولجرى في ذلك ما لا يخفى، ولحدثت فيه أشعار وأخبار، والذي يدل على سلامتهم من ذلك عدم هذه المعاني، وإن كان هناك شيء من هذا فليس هو إلا في بعض من ينزل قارعة الطريق أو يمرب الأسواق، وهؤلاء ليس فيهم من خصال الأعرابية إلا الجوهرية، فأما الأخلاق والفصاحة والأنفة والفروسية فهم على خلاف ذلك كله...».

هذا ما تيسر الاستدلال به من كلام أبي عثمان على مبلغ علمه وطول درسه، وبذلك يسهل علينا وضعه في الصف الأول من الباحثين من العلماء الذين خاضوا في العلوم التي كانت معهدهم وضربوا فيها كلها بسهم صائب.

كتبه ورسائله:

ليس في وسع الباحث تعيين حد لعلم الجاحظ، ينتهي منه إلى معرفة ما غلب عليه؛ وما أشبه تآليفه بمعلمة من معلمات العلم في عصره تبحث في جميع المطالب بحثًا ممتعًا، فلا ترى في مقالاتها خللًا، ولا في وضعها وتصنيفها غثاثة؛ ولقد رأينا معلمات زماننا بلغات لعلم الحديث يؤازر فيها عشرات وربما مئات من العلماء والباحثين، حتى تكتب لها الإجادة، وتقع من نفوس أرباب المدارك موقع الاستحسان، ومعلمة الجاحظ كتبها بنفسه، لم يشاركه مشارك في إعداد موادها، ولا في وضع أبوابها، وابتكار فصولها، وكلها ابنة درسه وبحثه، يصدرها في اتساق متقن، وتحقيق بالغ؛ وربما كان من أبحاثها ما اقترح عليه الخوض فيه، فكتب ما أراد وما أُريد منه؛ وكأنه المفتي الحجة يُستفتى في علوم الدنيا والآخرة، فلا يلحق غباره أحد، وهو أبدًا الفارس المجلّى في كل حلبة، لم يلحقه أحد في طريقته، وحاول تقليده غير واحد في العصور التالية.

الإكثار من التأليف مع الإجادة فيه هو وجه الغرابة في الجاحظ، ألَّف خمسين وثلاثمائة مؤلف، بين رسالة في بضع صفحات وكتاب في بضعة مجلدات، رأها كلها سبط ابن الجوزي في أول القرن السابع في مشهد أبي حنيفة ببغداد. ألَّف كل هذا وجوَّده، وطريقته كما قال عن نفسه أن لا يصل الصدق بالكذب، ولا يتكثر بقول الزور، ولا يلتمس تقوية ضعفه باللفظ الحسن، وستر قبح كلامه بالتأليف المونق، ولا يستعين على إيضاح الحق إلا بالحق، وعلى إيضاح الحجة إلا بالحجة، ولا يستميل إلى دراسة تآليفه واقتنائها، ويستدعي إلى تفضيلها والإشادة بذكرها، بالأشعار المولدة، والأحاديث الموضوعة، والأسانيد المدخولة، وبما لا شاهد عليه إلا دعوى قائله، ولا مصدق له من لا يوثق بمعرفته. وقد نصح لمن يتكلفون قراءة الكتب

ومدارسة العلم، أن لا يقفوا على الكلمة الضعيفة، واللفظة السخيفة، وعلى مواضع من تآليفه قد عرض له شيء من استكراه، ويقول لمن هذا حاله: «لو جعل بدل شغله بقليل ما يرى من المذموم، تنقله بكثير ما يرى من المحمود، كان ذلك أشبه بالأدب المرضي، والخيم[1] الصالح، وأشد مشاكلة للحكمة، وأبعد من سلطان الطيش، وأقرب إلى عادة السلف وسيرة الأولين، وأجدر أن يهب الله تعالى له السلامة في كتبه، والدفاع عن حجته، يوم مناضلة خصومه، ومقارعة أعدائه».

وتعوذ بالله في كل وطن (من فتنة القول وخطله، ومن الإسهاب وتقحم خطته) وأكد (أن فتنة اللسان والقلم أشج من فتنه النساء، والحرص على المال) واستعاذ من التكلف لما لا يحسن، كما استعاذ بالله من العُجب بما يحسن، والعجب بما يكون منه والثقة بما عنده، ورجا أن يكون من المحسنين، وتعوذ من رسالة ظاهرها زهد وباطنها رغبة وقال: «إن ساقط الكلام وأوغده، وأبعده من السعادة وأنكده، ما أظهر النزاهة وأضمر الحرص، وتجلى للعيون بعين القناعة واستشنع ذلة الافتقار، وأقبح منه وأفحش أن يظن صاحبه أن معناه خفي وهو ظاهر، وتأويله بعيد الغور، وهو قريب القعر».

أخرج الجاحظ التأليف من طور الرواية إلى طور جمع فيه إلى الرواية الدراية، ودعا إلى جميل الصدق، وبرد اليقين، مستمدًّا من العقل، داعيًا إلى التفكير الصحيح، قائلًا: «إن من شكر النعمة في معرفة مغاوي الناس ومراشدهم، ومضارّهم ومناقعهم، ألا يحتمل ثقل مؤنتهم في تقويمهم، وأن يتوخى إرشادهم، وإن جهلوا فضل ما يُسدى إليهم، فلن يصان العلم بمثل بذله، ولن تستبقى النعمة فيه بمثل نشره»؛ «ويعرف أن الحق مرّ والجد صعب، ولا يصبر على مطالعة الكتبُ الطويلة إلا

(١) الخيم (بكسر الخاء): الطبيعة.

من تجرد للعلم وفهم معناه، وذاق من ثمرته، واستشعر قلبه من عزّه، ونال سروره على حسب ما يورث الطول من الكدّ والكثرة من السآمة، وما أكثر من يقاد إلى حظه بالسواجير[1]، وبالسوق العنيف، وبالإخافة الشديدة».

شاهدنا أبا عثمان في كتبه ينقل عن أرقى الطبقات وأدناها، ومن العلماء من نقل عنهم فستر أسماءهم، وأشار إلى أنهم كانوا ثقات فقط ليعرف قارئه مبلغ الرواية المنقولة من الضعف والقوة، قال مرة: «حدثني بعض أهل العلم ممن طال ثُواؤه في أرض الجزيرة، وكان صاحب أخبار وتجربة، وكان كلفًا بحب التبيين، معترضًا للأمور يحب أن يُفضي إلى حقائقها، وتثبيت أعيانها بعللها، وتمييز أجناسها، وتعرّف مقادير قواها، وتصرف أعمالها، وتنقل حالاتها، كان يعرف للعلم قدره وللبيان فضله».

وروى عن إبراهيم بن السندي كثيرًا، ونوّه به، وقال فيه: «إنه كان مولى أمير المؤمنين، وكان عالمًا بالدولة، شديد الحب لأبناء الدعوة، وكان يحوط مواليه، ويحفظ أيامهم، ويدعو الناس إلى طاعتهم، ويدرّسهم مناقهم، وكان فخم المعاني، فخم الألفاظ، لو قلت: إن لسانه كان أرد[2] على هذا الملك من عشرة آلاف سيف شهير وسنان طرير[3] لكان ذلك قولًا ومذهبًا»، ووصفه في البيان والتبيين بقوله: «كان رجلًا لا نظير له، وكان خطيبًا، وكان ناسبًا، وكان فقيهًا، وكان عروضيًّا وحافظًا للحديث، راوية للشعر شاعرًا، وكان فخم الألفاظ، شريف المعاني، وكان كاتب القلم، كاتب العمل، وكان يتكلم بكلام رؤبة، ويعمل في الخراج بعمل زاذان فروخ الأعور، وكان منجمًا طبيبًا، وكان من رؤساء المتكلمين، وعالمًا بالدولة وبرجال

([1]) الساجور: خشبة تعلق في عنق الكلب، وسجره: شده به كسوجره.

([2]) يقال: هذا أرد: أنفع، ولا رادة فيه: لا فائدة فيه كلا مردة.

([3]) السنان الطرير: هو الرمح المحدد، والسيف الشهير المنتضي: المرفوع على الناس.

الدعوة، وكان أحفظ الناس لما سمع، وأقلهم نومًا، وأصبرهم على السهر». انظر إليه كيف يكرر فعل (كان) مرات في بضعة أسطر! يا ما أُحَيْلاه في مكرراته وفي موجزاته.

وروى عن ثمامة بن أشرس أحد شيوخه في الحديث فقال: «إن الصفات التي وصف بها ثمامة بن أشرس جعفرَ بن يحيى كأن ثمامة قد انتظمها لنفسه، واستولى عليها دون جميع أهل عصره، وما علمت أنه كان في زمانه قروي ولا بلدي كان بلغ من حسن الإفهام مع قلة عدد الحروف، ولا من سهولة المخرج مع السلامة من التكلف ما كان بلغه».

والظاهرة المتجلية في كتب أبي عثمان أنه بينا يقنل إليك كلام العقلاء ومذاهب العلماء والحكماء، يروي لك: (نوادر من كلام الصبيان والمجرمين من الأعراب، ونوادر كثيرة من كلام المجانين وأهل المِرَّة م الموسوسين، ومن كلام أهل الغفلة من النَوْكى[1]، وأصحاب التكلف من الحمقى) يجعل بعضها في باب الهزل والفكاهة، ويقول: «ولكل جنس من هذا موضع يصلح له، ولا بد لمن استكده الجد من الاستراحة إلى بعض الهزل»، و«إن المزاح جد إذا اجتلب ليكون علة للجد، وإن البطالة وقار ورزانة، إذا تكلفت لتلك العاقبة». فهو يكره النغمة الواحدة يرددها، فيختار من الأصوات ما يفعل في النفوس، فيسليها ويطربها وهو يعلمها، ويلعب بالألباب في كل رسالة له وكتاب. تتجلى في أقواله ورواياته واستنباطاته وفرة المادة، وإمتاع البحث، وكثرة ما تعلّم، وهضم ما تعلم، فكتبه أعيان متحركة غير جامدة جمود حروفها، تأخذ من وجوه الإجادة بأوفر نصيب، وتدور على (حسن الإفهام مع قلة عدد الحروف).

([1]) الأنوك والمستنوك: الأحمق، والجمع نوكى ونُوك كسكرى وهوج، وامرأة نوكاء.

ما كتب الجاحظ وألَّف إلا عن باعث دعاه أو ارتآه، وكان في الأكثر يتقدم فيعرض ما حمله على التأليف؛ قال في وصف كتاب الحيوان: «وهذا كتاب تستوي فيه رغبة الأمم، وتتشابه فيه العرب والعجم، لأنه وإن كان عربيًّا أعرابيًّا، وإسلاميًّا جماعيًّا، فقد أخذ من طرف الفلسفة، وجمع معرفة السماع وعلم التجربة، وأشرك بين علم الكتاب والسنة، وبين وجدان الحاسة وإحساس الغريزة، ويشتهيه الفتيان كما يشتهيه الشيوخ، ويشتهيه الفاتك كما يشتهيه الناسك، ويشتهيه اللاعب ذو اللهو كما يشتهيه المجدُّ ذو الحزم، ويتشهيه الغفل كما يشتهيه الأزيب، ويشتهيه الغبيّ كما يتشهيه الفطن»؛ ثم ذكر مزاعم الناس في تزييف الكتب، والسبب الذي يدعوهم إلى إسقاطها، فقال: «وليس هذا الكتاب -يرحمك الله- في إيجاب الوعد والوعيد، فيعترض عليه المرجئ، ولا في تفضيل عليٍّ فينتصب له العثماني، ولا هو في تصويب الحكمين فيتسخطه الخارجي، ولا هو في تقديم الاستطاعة فيعارضه من يخالف التقديم، ولا هو في تثبيت الأعراض فيخالفه صاحب الأجسام، ولا هو في تفضيل البصرة على الكوفة، ومكة على المدينة، والشام على الجزيرة، ولا في تفضيل العجم على العرب، وعدنان على قحطان، وعمرو على واصل، فيرد بذلك الهُذَلي على النَّظَّامي، ولا هو في تفضيل مالك على أبي حنيفة، ولا هو في تفضيل امرئ القيس على النابغة، وعامر بن الطفيل على عمرو بن معدي كرب، وعباد بن الحصين على عبيد الله بن الحُرّ، ولا في تفضيل ابن سُرَيْج على الغَريض، ولا في تفضيل سيبويه على الكسائي، ولا في تفضيل الجعفري على العقيلي، ولا في تفضيل حلم الأحنف على حلم معاوية، وتفضيل قَتادة على الزُّهري، فإن لكل صنف من هذه الأصناف شيعة، ولكل رجل من هؤلاء جندًا وعددًا من مخاصميهم وسفهائهم، والمتسرعون منهم كثير، وعلماؤهم قليل، وإنصاف علمائهم أقل».

قال: «وقد صادف هذا الكتاب مني حالات تمنع من بلوغ الإرادة فيه، أول ذلك العلة الشديدة؛ الثانية قلة الأعوان؛ الثالثة طول الكتاب؛ والرابعة أنى لو تكلفت كتابًا في طوله وعدد ألفاظه ومعانيه، ثم كان من كتاب العَرض والجوهر، والصفرة والتوليد، والمداخلة والغرائز والنحاس[1]، لكان أسهل وأقصر أيامًا، وأسرع فراغًا، لأني كنت لا أفزع فيه إلى تلقط الأشعار، وتتبع الأمثال، واستخراج الآي من القرآن، والحجج من الرواية، مع تفرق هذه الأمور في الكتب، وتباعد ما بين الأشكال. فإن وجدت فيه خللًا من اضطراب لفظ، ومن سوء تأليف، ومن تقطيع نظام، ومن وقوع الشيء فى غير موضعه، فلا تنكر بعد أن صورت عندك حالي التي ابتدأت عليها كتابي. ولولا ما أرجو من عون الله على إتمامه، إذ كنت لم ألتمس به إلا إفهامك مواقع الحجج لله، وتصاريف تدبيره، والذى أودع أصناف خلقه من أصناف حكمته، لما تعرضت لهذا المكروه، فإن نظرت فى هذا الكتاب، فانظر فيه نظر من يلتمس لصاحبه المخارج، ولا يذهب مذهب المتعنت[2]، ومذهب من إذا رأى خيرًا كتمه، وإذا رأى شرًّا أذاعه».

ومما قال فيه : «وما عندي لك من الحيلة إلا أن أصوره لك فى أحسن صورة، وأقلبك منه فى الفنون المختلفة»؛ «فإن وجدت الكتاب الذى كتبته لك يخالف ما وصفت، فأنقصني من نشاطكَ له على قدر ما نقصتكَ مما ينشطكَ إليه لقراءته؛ وإن وجدتني إن صح عقلكَ وإنصافكَ قد وفيتكَ ما ضمنت لك، فوجدت نشاطك بعد ذلك مدخولًا، وحدَّك مفلولًا، فاعلم أنّا لم نؤْث إلا من فسولتك وفساد طبعك، ومن إيثاركَ لما أضرَّ بكَ».

---

(١) النحاس (مثلثة): الطبيعة.

(٢) المتعنت: طالب الزلة.

وقال فى مقصده الذى يرمي إليه بطريقته فى تأليفه هذا: «فرأيت أن جملة الكتاب وإن كثر عدد ورقه أن ذلك ليس مما يملُّ ويعتدُّ عليَّ فيه بالإطالة، لأنه وإن كان كتابًا واحدًا فإنه كتب كثيرة، وكل مصحف منها فهو أُم على حدة، فإن أراد أحد قراءة الجميع لم يطل عليه الباب الأول حتى يهجم على الثاني، ولا الثاني حتى يهجم على الثالث، فهو أبدًا مستفيد ومستطرف، وبعضه يكون جَمامًا[1] لبعض؛ ولا يزال نشاطه زائدًا، ومتى خرج من آي القرآن صار إلى الأثر، ومتى خرج من أثر صار إلى خبر، ثم يخرج من الخبر إلى شعر، ومن الشعر إلى نوادر، ومن النوادر إلى حكم عقلية، ومقاييس سدَاد، ثم لا يترك هذا الباب، ولعله أن يكون أثقل، والملال إليه أسرع، حتى يُفضي به إلى مزح وفكاهة، وإلى سخف وخرافة، ولست أراه سخفًا، إذ كنت إنما استعملت سيرة الحكماء، وآداب العلماء، ورأينا الله -تبارك وتعالى- إذا خاطب العرب والأعراب، أخرج الكلام مخرج الإشارة والوحي[2] والحذف، وإذا خاطب بني إسرائيل أو حكى عنهم جعله مبسوطًا، وزاد في الكلام، فأصوب العمل اتباع آثار العلماء، والاحتذاء على مثال القدماء، والأخذ بما عليه الجماعة». وقوله هذا في مخاطبة القرآن للعرب واليهود من أبدع ما اهتدت إليه قوة مفكرة.

قال أبو علي الحسن بن داود: فخر البصرة بأربعة كتب: كتاب البيان والتبيين للجاحظ، وكتاب الحيوان له، وكتاب سيبويه، وكتاب العين للخليل، وزعم بعض علماء الإفرنج أن كتاب الحيوان أقرب إلى أن يوسم بكتاب أدب منه إلى أن يعد كتابًا في طبائع الحيوان، وجوابنا لمن ادعى هذه الدعوى أن ما حققه الجاحظ في صنوف الحيوان قبل غيره من العرب والعجم كافٍ بأن يعد السابق المبرز في هذا الفن، والشعر الكثير الذي نقله لا يزري بما كتب، وهو يملي على الناس روح عصره. كتب

(١) الجمام (بفتح أوله): الراحة.

(٢) الوحي: الإشارة، والكتابة، والمكتوب، والرسالة والإلهام، والكلام الخفي، وكل ما ألقيته إلى غيرك.

الجاحظ كتابه أوائل القرن الثالث من الهجرة، وضمنه خلاصة من الشعر الجيد، وأجل الحكايات والنوادر، ومنها ما كان من نوع الأدب الواقع، وهناك أمتع الفوائد الأدبية والمسائل الدينية، وأجمع من هذا كله كلامه على أجناس الحيوان. وما كتب ما كتب فيه إلا عن تجربة وعيان غالبًا، وفيه كلام على الناس وبلادهم وهوائهم وأمزجتهم وعاداتهم إلى غير ذلك مما لا يظفر به باحث في كتاب واحد. فإتيان الغرائب والطرائف (ومعها شاهد من كتاب منزل، أو حديث مأثور، أو خبر مستفيض، أو شعر معروف، أو مثل مضروب، أو يكون ذلك مما يستشهد عليه الطبيب، أو من أكثر من قراءة الكتب، أو بعض من قد مارس الأسفار وركب البحار، وسكن الصحاري، واستذرى الهضاب، ودخل في الغياض، ومشى في بطون الأدوية» -الإتيان بالغرائب باعث على عموم فائدته.

وأما كتابه البيان والتبيين فقد دخل فيه على موضوعه رأسًا وبدأه بقوله: «اللهم إنا نعوذ بك من فتنة القول، كما نعوذ بك من فتنة العمل، ونعوذ بك من التكلف لما لا نحسن، كما نعوذ بك من العُجب بما نحسن، ونعوذ بك من السلاطة والهذر، كما نعوذ بك من العي والحصر، وقديمًا تعوذوا بالله من شرهما، وتضرعوا إلى الله في السلامة منهما».

يقول صاحب الصناعتين: «إن البيان والتبيين كثير الفوائد، جم المنافع، لما اشتمل عليه من الفصول الشريفة والفِقَر اللطيفة، والخطب الرائعة والأخبار البارعة، وما حواه من أسماء الخطباء البلغاء، وما نبه عليه من مقاديرهم في البلاغة والخطابة وغير ذلك من فنونه المختارة، ونعوته المستحسنة، إلا أن الإبانة عن حدود البلاغة، وأقسام البيان والفصاحة مبثوثة في تضاعيفة، ومنتشرة في أثنائه، فهي ضالة بين الأمثلة لا توجد إلا بالتأمل الطويل، والتصفح الكثير...»

الجاحظ في البيان والتبيين يُكثر من الشواهد، ويُقلّل من القواعد، ويضمنه هزلًا وجدًّا، ويشحنه بغرر الأحاديث وعيون الخطب ويضمنه (من الفقر المستحسنة، والنتف المتخيَّرة، والمقطعات المستخرجة، وبعض ما يجوز في ذلك من أشعار المذاكرة والجوابات المنتخبة).

وكأنه كان يشعر بأن كتابه غير منسق، وكان الأمثل به أن يضع كل شيء في مكانه فاعتذر مرة بقوله: «وكان في الحق أن يكون هذا الباب في أول الكتاب، ولكنا أخرناه لبعض التدبير». ومما قال في مناسبة أخرى: «وهذا الباب يقع في كتاب الإنسان من كتاب الحيوان، وفي فضل ما بين الذكر والأنثى تامًّا، وليس في هذا الباب مما يدخل في باب البيان والتبيين، ولكن قد يجري السبب فيجري معه بقدر ما يكون تنشيطًا لقارئ الكتاب، لأن خروجه من الباب إذا طال لبعض العلم، كان ذلك أروح على قلبه، وأزيد في نشاطه». وقال: «كان التدبير في أسماء الخطباء وحالاتهم وأوصافهم أن نذكر أسماء أهل الجاهلية على مراتبهم وأسماء أهل الإسلام على منازلهم، ونجعل لكل قبيلة منهم خطباء، ونقسم أمورهم بابًا بابًا على حدته، ونُقدِّم مَن قدَّمه الله عز وجل ورسوله في النسب وفضله في الحسب، ولكني لما عجزت عن نظمه وتنضيده، تكلفت ذكرهم في الجملة».

أراد الجاحظ في البيان والتبيين أن يُعلِّم طالب البلاغة بالعمل كما تعلَّم هو البلاغة، وكان البيان في عهده يُعَلّم على هذه الصورة، وبعده قام العلماء بوضع قواعد قلما أفادت الكاتب والشاعر، اللهم إلا الوقوف على ما عللوا له، واستشهدوا به، وسنوا له من القوانين: وكان معظم من كتبت لهم الإجادة في كل زمن في فني المنثور والمنظوم ممن لا يعبئون كثيرًا بما قاله علماء البيان، فالبيان يُعَلّم بالذوق والعمل لا بالقواعد والقوانين. والجاحظ كان في كتابه هذا عمليًّا شأنه في كل ما

كتب، وكذلك هو في النحو، فقد قال في فصل رياضة الصبي: «وأما النحو فلا تشغل قلبه منه إلا بقدر ما يؤديه إلى السلامة من فاحش اللحن، ومن مقدار جهل العوام في كتاب كتبه، وشعرٍ إن أنشده، وشيءٍ إن وضعه، وما زاد على ذلك فهو مشغلة عما هو أولى به، ومذهل عما هو أردُّ عليه منه، من رواية المثل والشاهد، والخبر الصادق، والتعبير البارع».

والغالب أن البيان والتبيين على كثرة إمتاعه لم ينظر فيه مصنفه نظرة أخيرة، فقد رأيناه ذكر قصيدة سلمة بن حُرْشب في قتال عبس وذبيان مرتين، ونسبها في المرة الثانية لسلمة بن الحارث الإيادي. وهي القصيدة التي أنشدها الجاحظ لسهل بن هارون فقال: والله لكأنه سمع رسالة عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري في سياسة القضاء وتدبير الحكم.

وقال في السبب الذي دعاه إلى تأليف كتابه «الدلائل والاعتبار» وفيه مباحث من شواهد آثار الصانع في صنعته، وتنبيه على أسرار قد أودعها ما يشاهده المرءُ من فطرته، تضطره إلى معرفته وتشهد بوحدانيته، وتخبر عن جلال عظمته وكمال قدرته، قال: إنه أَلَّف مثل كتابه هذا جماعة من الحكماء المتقدمين فما وضحوا معانيه، ولا بينوا المشكل منه، فمنهم جبرائيل بن نوح الأنباري، وقبله ألّف في معناه تودرقوس أسقف طرسوس وسمى كتابه المتدبر، ونقله من أخذه عنه من السريانية إلى العربية، فأفسده بتأويل الألسنة وسوء العبارة، ومنها كتاب نظمه ثاوريطوس أسقف قورس كتبه باليونانية، ونُقل بعده إلى السريانية ثم إلى العربية، فجرى مجرى الأول المفسود بتداول النقل والعبارات، ومنها كتاب أُلف في أيام بني أمية، نظمه يسوعنجت مطران فارس، وكتبه بالفارسية فأكسبه استغلاقًا اهـ. وجمع الجاحظ محاسن ما وجد في هذه الكتب وزاده بمقدار الطاقة، وشرح ما نقل من غيره، وبيَّن القول فيما زاده،

ورتبه ترتيبًا يونق السمع، ويسر القلب، ويبسط السامع، ويوجب الحجة على المخالف.

وقال في مقدمة كتابه «حجج النبوة»: والذي دعانا إلى تأليف حجج الرسول ونظمها، وجمع وجوهها وتدوينها، أنها متى كانت مجموعة منظومة نشط لحفظها وتفهمها من كان عسى أن لا ينشط لجمعها، ولا يقدر على نظمها وجمع متفرقها وعلى اللفظ المؤثر عنها، ومن كان عسى أن لا يعرف وجه مطلبها والوقوع عليها، ولعل بعض الناس يعرف بعضها ويجهل بعضها، ولعل بعضهم، وإن كان قد عرفها بحقها وصدقها، فلم يعرفها من أسهل طرقها، وأقرب وجوهها، ولعل بعضهم أن يكون قد كان عرف فنسي، أو تهاون بها فعمي، بل لا نشك أنها إذا كانت مجموعة متخيرة مستقصاة مفصلة أنها ستزيد في بصيرة العالم، ويجمع الكل كمن كان لا يعرف إلا البعض، ويذكّر الناسي ويكون عدة على الطاعن، ولعل بعض من ألحد في دينه، وعمي عن رشده، وأخطأ موضع حظه، أن يدعوه العُجب بنفسه، والثقة بما عنده إلى أن يلتمس قراءتها، ليتقدم في نقضها وإفسادها، فإذا قرأها فهمها، وإذا انتبه من رقدته، وأفاق عن سكرته، لعز الحق وذل الباطل، ولإشراف الحجة على الشبهة، ولأن من تفرد بكتاب فقرأه ليس كمن نازع صاحبه وجافاه، لأن الإنسان لا يباهي نفسه، والحق بعد قاهر له، ومع التلاقي يحدث التباهي، وفي المحافل يقل الخضوع ويشتد النزوع. اهـ.

وقال في مقدمة رسالته «التبصر بالتجارة»: «سألت -أكرمك الله- عن أوصاف ما يستظرف في البلدان من الأمتعة الرفيعة والأعلاق النفيسة والجواهر الثمينة المرتفعة القيمة، ليكون ذلك مادة لمن حنكته التجارب، وعونًا لمن مارسته وجوه المكاسب والمطالب».

وقال في مقدمة رسالة «الحنين إلى الأوطان»: «إن لكل شيء من العلم، ونوع من الحكمة، وصنف من الأدب، سببًا يدعو إلى تأليف ما كان فيه مشتتًا، ومعنى يحدو على جمع ما كان متفرقًا، ومتى أغفل حملة الأدب وأهل المعرفة تمييز الأخبار، واستنباط الآثار، وضم كل جوهر نفيس إلى شكله، وتأليف كل نادر من الحكمة إلى مثله؛ بطلت الحكمة وضاع العلم، وأُميت الأدب، ودَرَس مشهور كل نادرة، ولولا تقييد العلماء خواطرهم على الدهر، ونقرهم آثار الأوائل في الصخر، لبطل أول العلم وضاع آخره. ولذلك قيل: لا يزال الناس بخير ما بقي الأول يتعلم من الآخر».

وهكذا تراه يتفنن في مقدمات كتبه ورسائله تفننه في تأليفها ووضعها، فقد قال في مقدمة كتابه «البخلاء»: «ذكرت -حفظك الله- أنك قرأت كتابي في تصنيف حيل لصوص النهار، وفي تفصيل حيل سُرَّاق الليل، وأنك سددت به كل خلل، وحصنت به كل عورة، وتقدمت بما أفادك من لطائف الخدع، ونبهك عليه من غرائب الحيل، فيما عسى أن لا يبلغه كيد، ولا يحوزه مكر، وذلك أن موقع نفعه عظيم، وأن التقدم في درسه واجب، وقلت: اذكر لي نوادر في باب الجد، لأجعل الهزل مستراحًا، والراحة جَمامًا، فإن للجد كدًّا يمنع من معاودته، ولا بد لمن التمس نفعه من مراجعته». قال: «ولك في هذا الكتاب ثلاثة أشياء: تبيين حجة طريفة، أو تعرّف حيلة لطيفة، أو استفادة نادرة عجيبة، وأنت في ضحك منه إذا شئت، وفي لهوٍ إذ مللت الجد».

وبدأ كتابه «المحاسن والأضداد» بقوله: «كانت العجم تقيد مآثرها بالبنيان والمدن والحصون، مثل بناء أردشير وبناء إصطخر، وبناء المدائن والسدِير، ثم إن العرب شاركت العجم في البنيان، ونفردت بالكتب والأخبار والشعر والآثار، فلها

من البنيان غمدان، وكعبة نجران، وقصر مآرب وقصر مارد، وقصر شعوب والأبلق الفرد وغير ذلك من البنيان. وتصنيف الكتب أشد تقييدًا للمآثر على ممر الأيام والدهور من البنيان؛ لأن البناء لا محالة يدرس، وتعفى رسومه، والكتاب باق يقع من قرن إلى قرن، ومن أمة إلى أمة. فهو أبدًا جديد، والناظر فيه مستفيد، وهو أبلغ في تحصيل المآثر من البنيان والتصاوير.

«وكانت العجم تجعل الكتاب في الصخور، ونقشًا في الحجارة، وخِلقة مركبة في البنيان، فربما كان الكتاب هو الناتئ، وربما كان هو المحفور، إذا كان ذلك تاريخًا لأمر جسيم، أو عهدًا لأمر عظيم، أو موعظة يرتجى نفعها، أو إحياء شرف يريدون تخليد ذكره، كما كتبوا على قبة غمدان، وعلى باب القيروان، وعلى باب سمرقند، وعلى عمود مأرب، وعلى ركن المشقَّر، وعلى الأبلق الفرد، وعلى باب الرُّها - يعمدون إلى المواضع المشهورة، والأماكن المذكورة، فيضعون الخط في أبعد المواضع من الدثور، وأمنعها من الدروس، وأجدر أن يراه من مر به ولا يُنسى على وجه الدهور.

«ولولا الحكم المحفوظة، والكتب المدونة، لبطل أكثر العلم، ولغلب سلطان النسيان سلطان الذكر، ولما كان للناس مفزع إلى موضع استذكار، ولو لم يتم ذلك لحرمنا أكثر النفع، ولولا ما رسمت لنا الأوائل في كتبها، وخلدت من عجيب حكمتها، ودونت من أنواع سيرها، حتى شاهدنا بها ما غاب عنا، وفتحنا بها كل مستغلق، فجمعنا إلى قليلنا كثيرهم، وأدركنا ما لم يدركه إلا بهم، لقد بُخس حظنا منه. وأهل العلم والنظر، وأصحاب الفكر والعبر، والعلماء بمخارج الملل وأرباب النحل، وورثة الأنبياء، وأعوان الخلفاء، يكتبون كتب الظرفاء والصلحاء، وكتب الملاهي، وكتب أعوان الخلفاء، وكتب أصحاب المراء والخصومات، وكتب السخفاء

وحمية الجاهلية. ومنهم من يفرّط في العلم أيام خموله، وترك ذكره وحداثة سنة».
انظر إلى هذه الإحاطة بكل ما يجب أن يقال في هذا المجال.

وهذه المقدمة تشعر بأن هذا الكتاب أو معظمه هو من قلم الجاحظ، أو جمعه بعضهم من كلامه وكلام غيره.

أما بعد فليس أبدع من هذه المقالة يدلى بها «إلف تفكير وتنقير، ودَرَّاسة كتب، وحلف تبيين» لإقناع من يزعم أن مثل هذه الموضوعات ليست مما يخلق بالتدوين، ويرد بها على من شهدهم «أملياءَ بالخرافات، أقوياء على رد الصحيح، وتصحيح السقيم». قال في سبب تأليفه «مناقب الترك وعامة جند الخلافة»: «إن ذهبنا، حفظك الله، بعقب هذه الاحتجاجات، وعند منقطع هذه الاستدلالات نستعمل المفاوضة بمناقب الأتراك، والموازنة بين خصالهم، وخصال كل صنف من هذه الأصناف، سلكنا في هذا الكتاب سبيل أصحاب الخصومات في كتبهم، وطريق أصحاب الأهواء في الاختلاف الذي بينهم، وكتابنا هذا إنما تكلفناه لنوفق بين قلوبهم، إن كانت مختلفة، ولنزيد في الألفة إن كانت مؤتلفة، ولنخبر عن اتفاق أسبابهم لتجتمع كلمتهم، ولتسلم صدورهم، وليعرف من كان لا يعرف منهم موضع التفاوت في النسب، وكم مقدار الخلاف في الحسب، فلا يغير بضعهم مغير، ولا يفسده عدو بأباطيل مموهة، وشبهات مزورة، فإن المنافق العليم، والعدو ذا الكيد العظيم، قد يصور لمن دونه الباطل في صورة الحق، ويلبس الإضاعة ثياب الحزم»؛ «وأنا أقول: إن كان لا يمكن ذكر مناقب الأتراك، إلا بذكر مثالب سائر الأجناد، فترك ذكر الجميع أصوب، والإضراب عن هذا الكتاب أحزم، وذكر الكثير من هذه الأوصاف بالجميل، لا يقوم بالقليل من ذكر بعضهم بالقبيح؛ لأن ذكر الأكثر بالجميل نافلة، وباب من التطوع، وذكر الأقل بالقبيح معصية، وباب من ترك

الواجب، وقليل الفريضة أجدى علينا من كثير التطوع، ولكل الناس نصيب من النقص ومقدار من الذنوب، وإنما نتفاضل بكثرة المحاسن وقلة المساوي. فأما الاشتمال على جميع المحاسن، والسلامة من جميع المساوي دقيقها وجليلها، وظاهرها وخفيها، فهذا لا يُعرف».

وعلى هذا المعنى يقدم بين يدي نجواه، ما حفزه إلى التأليف، خصوصًا وبعض ما يفرده بالتصنيف قد يكون مما تستغرب الكتابة فيه، مثل رسالته في مفاخر السودان. ومثل رسالته في أخلاق الكتاب، جوابًا على من مدح أخلاقهم ووصف فضائلهم وأعيانهم، فذكر رداءة مذاهبهم وأفعالهم ولؤم طباعهم وأخلاقهم مشفوعة بالحجة «إذ كان في ذلك من التبيان ما يبهرهم، ومن القول ما يسكتهم»؛ وقال في غرض تأليف رسالته في القيان: «فوضعنا في كتابنا هذا حججًا على من عابنا بملك القيان، وسبنا بمناداة الإخوان، ونقم علينا إظهار النعم والحديث بها، ورجونا النصر إذا قد بُدينا، والبادي أظلم، ولسان الحق فصيح ونفس المجروح لا يقام لها، وصولة الحليم المتأني لا بقاء بعدها. فبينا الحجة في اطراح الغيرة في غير محرم ولا ريبة».

وذكر في رسالته تفضيل النطق على الصمت أنه وجد كلام من زعم أن الصمت أفضل من الكلام «كلام امرئ قد أعجب برأيه، وارتطم في هواه، وظن أنه قد نسج فيها كلامًا، وألف ألفاظًا، ونسج له معاني على نحو مأخذه ومقصده، أنه كان مَثَله في ذلك مثل من تخلص إلى الحاكم وحده ففلج بحجته، وإني سأوضح لك ذلك ببرهان قاطع، وبيان ساطع، وأشرح فيه من الحجج ما يظهر، ومن الحق ما يقهر، بقدر ما أتت عليه معرفتي، وبلغته قوتي، وملكته طاقتي، بما لا يستطيع أحد رده، ولا يمكنه إنكاره وجحده». وفي رسالته في «مدح التجار وذم عمل السلطان»: وهذا الكلام لا

يزال ينجم من حشوة أتباع السلطان، فأما علْيَتهم ومصاصهم(١) وذوو البصائر التمييز منهم... فيعلمون أنهم (أي التجار) أروح الناس أبدانًا وأهنؤهم عيشًا، وآمنهم سِربًا لأنهم في أفنيتهم، كالملوك على أسرتهم، يرغب إليهم أهل الحاجات، وينزع إليهم ملتمسو البياعات، لا تلحقهم الذلة في مكاسبهم، ولا يستعبدهم الضَّرَع لمعاملاتهم، وليس هكذا من لابس السلطان بنفسه، وقاربه بخدمته؛ فإن أولئك لباسهم الذلة، وشعارهم الملق، وقلوبهم ممن هم لهم خَوَل مملوءة، قد لبسها الرعب، وألفها الذل، وصحبها ترقب الاحتياج، فهم مع هذا في تكدير وتنغيص، خوفًا من سطوة الرئيس، وتنكيل الصاحب، وتغير الدول، وافتراض حلول المحن، فإن هي حلت بهم، وكثيرًا ما تحل، فناهيك بهم مرحومين، يرق لهم الأعداء فضلًا عن الأولياء».

وقال في رسالته فصل ما بين العداوة والحسد: هذا كتاب -أطال الله بقاءك- نبيل بارع فُصل فيه بين الحسد والعداوة لم يسبقني إليه أحد ولا إلى كتاب فضل الوعد الذي تقدم هذا الكتاب ولا إلى كتاب أخلاق الوزراء الذي تقدم كتاب فضل الوعد، وإنما نبلت هذه الكتب وحسنت وبرعت وبذت غيرها لمشاكلتها شرف الأشراف بما فيها من الأخبار الأنيقة الغريبة والآثار الحسنة اللطيفة والأحاديث الباعثة على الأخلاق المحمودة والمكارم الباقية المأثورة مع ما تضمنته من سير الملوك والخلفاء، ووزرائهم وأتباعهم وما جرت عليه أحوالهم.

ومما قال في رسالته في الوكلاء: «وأخلق بمن كان في صفتك، وأحر بمن جرى عن دربتك، ألا يكون سبب تسرعه، وعلة تشحنه، إلا من ضيق الصدر، وجميع الخير راجع إلى سعة الصدر، فقد صحّ الآن أن سَعة الصدر أصل، وما سوى ذلك

(١) المصاص بضم الميم: خالص كل شيء.

من أصناف الخير فرع. وقد رأيتك -حفظك الله تعالى- خوَّنت جميع الوكلاء وفجرتهم، وشنعت على جميع الوراقين وظلمتهم، وجمعت جميع العاملين وهجوتهم، وحفظت مساويهم ونسيت محاسنهم، واقتصرت على ذكر مثالب الأعلام والجلة».

وكانت رسالته في «الرد على النصارى» جواب كتاب جاءه من أحدهم، يذكر فيه من مسائل النصارى قِبَله، وما دخل على قلوب أحداثهم وضعفائهم من اللبس، وما خاف على جواباتهم من العجز، وسأله إقرارهم بالمسائل، وحسن معونتهم بالجواب، قال: «وسنقول في جميع ما ورد علينا من مسائلكم، وفيما لا يقع إليكم من مسائلهم، بالشواهد الظاهرة، والحجج القوية، والأدلة الاضطرارية، ثم نسألهم بعد جوابنا إياهم عن وجوه يعرفون بها انتقاض قولهم، وانتشار مذهبهم، وتهافت دينهم، ونحن نعوذ بالله من التكلف وانتحال ما لا نحسن، ونسأله القصد في القول والعمل، وأن يكون ذلك لوجهه ولنصرة دينه».

وكتب في كتابه «طبقات المغنين» ما دعاه إلى تأليفه فقال: «إن زمانه خُصَّ بفتية أشراف انتظم لهم من آلات الفتوة وأسباب المروءة ما كان محجوبًا عن غيرهم، معدومًا من سواهم، فحملني الكلف بهم، والمودة لهم، والسرور بتخليد فخرهم، وتشييد ذكرهم، والحرص على تقويم أود ذوي الأود منهم، حتى يلحق بأهل الكمال في صناعته، والفضل في معرفته، وعلى تمييز طبقة طبقة منهم، وتسمية أهل كل طبقة بأوصافهم، وآلاتهم وأدواتهم، والمذاهب التي نسبوا إليها أنفسهم، واحتملهم إخوانهم عليها، وخلطنا جدًّا بهزل، ومزجنا تعريفًا بتعريض، ولم نرد بأحد ممن سمينا سوءًا، ولا تعمدنا نقدًا، ولا تجاوزنا حدًّا، ولو استعملنا غير الصدق لفضلنا قومًا، وحابينا آخرين، ولم نفعل لك تحببًا للحيف، بل قصدًا للإنصاف... ولم نقصد في وصف من وصفنا من الطبقات التي صنفنا منهم إلا لمن أدركنا من أهل زماننا ممن

حصل بمدينة السلام... وذلك في سنة خمس عشرة ومائتين... وقد تركنا في كل باب من الأبواب التي صنفناها في كتابنا فرجًا لزيادة إن زادت، أو لاحقة إن لحقت، أو نابتة إن نبتت، ومن عسى أن ينتقل به الحذق من مرتبته إلى ما هو أعلى منها، أو يعجز به القصور عما هو عليه منها إلى ما هو دونها إلى مكانه الذي إليه نقله ارتفاع درجته أو انحطاطها، ومن لعلنا نصير إلى ذكره ممن عَزُب عنا ذكره، وأُنسينا اسمه، ولم يحط علمنا به، فنصيره في موضعه ونلحقه بأصحابه، وليس لأحد أن يثبت شيئًا من هذه الأصناف إلا بعلتها، ولا يستبد بأمر فيه دوننا. ويورد ذلك علينا فيمتحنه، ويعرفه بما عنده ويصير إلى ترتيبه في المرتبة التي يستحقها، والطبقة التي يحتملها.

فلما استتب لنا الفراغ مما أردنا من ذلك، خطر ببالنا كثرة العيابين من الجُهَّال برب العالمين، فلم نأمن أن يسرعوا بسفه رأيهم وخفة أحلامهم إلى نقض كتابنا وتبديله، وتحريفه عن مواضعه، وإزالته عن أماكنه، التي عليها رسمنا، وأن يقول كل امرئ منهم في ذلك على حاله، وبقدر هواه ورأيه، وموافقته ومخالفته، والميل في ذلك إلى بعض، والذم لطبقة والحمد لأخرى، فيهجنوا كتابنا، ويلحقوا بنا ما ليس من شأننا. وأحببنا أن نأخذ في ذلك بالحزم، وأن نحتاط فيه لأنفسنا ومن ضمه كتابنا، ونبادر إلى تفريق نسخ منها وتصييرها في أيدي الثقات والمستبصرين الذين كانوا في هذا الشأن، ثم ختموا ذلك بالعزلة والتوبة منه كصالح بن أبي صالح وكأحمد بن سلام وصالح مولى رشيد، ففعلنا ذلكَ وصيرناه أمانة في أعناقهم، ونسخة باقية في أيديهم، ووثقنا بهم أمناء ومستودعين، وحفظة غير مضيعين ولا متهمين، وعلمنا أنهم لا يدعون صيانة ما استودعوا، وحفظ ما عليه ائتمنوا، إذا شيب به شوب يخالفه، وأُضيف إليه ما لا يلائمه». اهـ.

وبدأ كتابه «التربيع والتدوير» بقوله: «كان أحمد بن عبد الوهاب مفرط القصر ويدعي أنه مفرط الطول، وكان مربعًا وتحسبه لسعة جفرته[١] واستفاضة خاصرته مدورًا، وكان جعد الأطراف قصير الأصابع، وهو في ذلك يدعي السباطة والرشاقة وأنه عتيق الوجه، أخمص البطن، معتدل القامة، تام العظم، وكان طويل الظهر، قصير عظم الفخذ وهو مع قصر ساقه يدعي أنه طويل الباد[٢]، رفيع العماد، عاديّ القامة، عظيم الهامة، قد أُعطي البسطة في الجسم والسعة في العلم، وكان كبير السن متقادم الميلاد، وهو يدعي أنه معتدل الشباب حديث الميلاد، وكان ادعاؤه لأصناف العلم على قدر جهله بها، وتكلفه للإنابة عنها على قدر غباوته عنها، وكان كثير الاعتراض، لهجًا بالمراء، شديد الخلاف، كلفًا بالمجاذبة، متتابعًا[٣] في العنود، مؤثرًا للمغالبة مع إضلال الحجة، والجهل بمواضع الشبهة، والخطرفة[٤] عند قصر الزاد، والعجز عند التوقف، والمحاكمة عند الجهل بثمرة المراد، ومغبة فساد القلوب، ونكد الخلاف، وما في الخوض من اللغو الداعي إلى السهو، وما في المعاندة من الإثم الداعي إلى النار، وما في المجادلة من النكد، وما في التغالب من فقدان الصواب، وكان قليل السماع غمرًا، وصحفيًّا[٥] غُفلًا، لا ينطق عن فكر وثيق بأول خاطر، ولا يفصل بين اعتزام الغمر، واستبصار المحق، يعد أسماء الكتب ولا يفهم معانيها، ويحسد العلماء من غير أن يتعلق فيهم بسبب، وليس في يده من جميع الآداب إلا الانتحال لاسم الأدب، فلما طال اصطبارنا حتى بلغ المجهود منا، وكدنا نعتاد

---

(١) الجفرة (بالضم): جوف الصدر أو ما يجمع الصدر والجنبين.

(٢) الباد: باطن الفخذ.

(٣) التتابع: ركوب الأمر على خلاف الناس والتهافت والإسراع في الشر واللجاجة كالتتيع.

(٤) خطرف: أسرع في مشيته.

(٥) الصحفي: الذي يروي الخطأ عن قراءة الصحف أو لا يأخذ عن العلماء، وهي مولدة، والغمر (مثلثة الغين): من لم يجرب الأمور.

مذهبه، ونألف سبيله، رأيت أن أكشف قناعه، وأبدي صفحته للحاضر والبادي، وسكان كل ثغر وكل مصر، بأن أسأله عن مائة مسألة أهزأ فيها، وأُعرّف الناس مقدار جهله، وليسأله عنها كل من كان في مكة ليكفوا عنا من غَربه[1]، وليردوه بذلك إلى ما هو أولى به». وهذا الكتاب من أجمل الكتب التي تجلى فيها فن الجاحظ ومعرفته بالسخرية والتهكم.

وبدأ كتابه «صناعة القواد» بقوله: «أرشدك الله للصواب، وعرفك فضل أولي الألباب، ووهب لك جميل الآداب، وجعلك ممن يعرف عز الأدب، كما يعرف زوائد الغنى، قال أبو عثمان: دخلت على أمير المؤمنين المعتصم بالله، فقلت له: يا أمير المؤمنين، في اللسان عشر خصال: أداة يظهر بها البيان، وشاهد يخبر عن الضمير، وحاكم يفصل بين الخطاب، وناطق يرد به الجواب، وشافع تُدرك به الحاجة، وواصف تُعرف به الأشياء، وواعظ يعرف به القبيح، ومغرّد ترد به الأحزان، وخاصة تُزْهى بالصنيعة، وملهى يونق الأسماع».

وقال في مقدمة كتابه «الحجاب»: «اطال الله بقاك، وجعلني من كل سوء فداك، وأسعدكَ بطاعته، وتولاك بكرامته، ووالى إليك مزيده؛ اعلم أنه يقال -أكرمك الله- : إن السعيد من وعظ بغيره، وأن الحكيم من أحكمته تجاربه، وقد قيل: كفاك أدبًا لنفسك ما كرهت من غيرك، وقيل: كفاك من سوءِ الفعل سماعه، وقيل: إن من يقظة الفهم للواعظ ما يدعو النفس إلى الحذر من الخطأ، والعقل إلى تصفيته من القذى، وكانت الملوك إذا أتت ما يجلُّ عن المعاتبة عليه ضُربت لها الأمثال وعُرّض لها بالحديث».

---

(١) الغرب: التمادي.

ومما كتب في صدر رسالة النساء رادًّا على من حاول الطعن على كتابه، وسخف الرأي الذي دعا إلى تأليفه، والإشادة بذكره: «إذ كانت الدنيا لا تنفك من حاسد باغٍ، ومن قائل مُتكلِّف، ومن سامع طاعن، ومن منافس مقصر، كما أنها لا تنفك من ذي سلامة مستسلم، ومن عالم متعلم، ومن عظيم الخطر، حسن المحضر، شديد المحاماة على حقوق الأدباء، قليل التسرع إلى أعراض العلماء».

وقد طلب إليه أحد أصدقائه الحسن بن وهب أن يكتب له صفات الشارب المشروب، وما فيهما من المدح والعيوب، وأن يُميز له بين الأنبذة والخمر، وأن يقفه على حد السكر، وأن يعرفه السبب الذي يرغب في شرب الأنبذة وما فيها من اجتلاب المنفعة وما يكره من نبيذ الأوعية - طلب منه هذا فكتبه، فكأنه عاش حياته بين البواطي والجرار والقدور والخمارين والسكيرين والمخمورين؛ وهذا آية إبداعه وعنوان تناهيه في أدبه يحسُّ كل شيء ويحسن وصف كل شيء. قال في مقدمة ما كتب: «أنا -أبقاك الله- الطالب المشغول، والقائل المعذور، فإن رأيت خطأ فلا تنكر، فإني بصدده وبعرض منه، بل في الحال التي توجبه، والسبب الذي يؤدي إليه، وإن سمعت تسديدًا فهو الغريب الذي لا تجده اللهم إلا أن يكون من بركة مكاتبتك، ويُمن مطالبتك، ولأن ذكرك يشحذ الذهن، ويصورك في الوهم، ويجلو العقل...».

وقال في صدر كتابه في المعلمين: «أعانكَ الله على سَوْرة الغضب، وعصمك من ثورة الهوى، وصرف ما أعارك من القوة إلى حب الإنصاف، ورجح في قلبك إيثار الأناة، فقد استعملت في المعلمين نَوْك السفهاء، وخطل الجهلاء، ومفاحشة الأدنياء، ومجانبة سبل الحكماء، وتهكم المقتدرين، وأمن المفترين، ومن تعرض للعداوة وجدها حاضرة، ولا حاجة بك إلى تكلف ما كفيت».

وقال في رسالة «المعاد والمعاش»: «فرأيت أن أجمع لك كتابًا من الأدب جامعًا لعلم كثير من المعاد والمعاش أصف لك فيه علل الأشياء وأخبرك بأسبابها، وما اتفقت عليه محاسن الأمم... ورأيت كثيرًا من واضعي الآداب قبلي قد عهدوا إلى الغابرين بعدهم في الآداب عهودًا قاربوا فيها الحق، وأحسنوا فيها الدلالة إلا أني رأيت أكثر ما رسموا من ذلك فروعًا لم يبينوا عللها، وصفات حسنةً لم يكشفوا أسبابها، وأمورًا محمودة لم يدلوا على أصولها، فإن كان ما فعلوا من ذلك روايات رووها عن أسلافهم، ووراثات ورثوها عن أكابرهم، فقد قاموا بأداء الأمانة، ولم يبلغوا فضيلة من يستنبط، وإن كانوا تركوا الدلالة على أعيان الأمور التي بمعرفة عللها يوصل إلى مباشرة اليقين فيها، ويُنتهى إلى غاية الاستبصار منها، فلم يعدوا في ذلك منزلة الضد بها، ولن تجد وصَايا أنبياء الله أبدًا إلا مبينة الأسباب مكشوفة العلل، مضروبة معها الأمثال فألفت لك كتابي هذا وأنا أصف لك فيه الطبائع التي ركب عليها الخلق، وفطرت عليها البرايا كلهم، فهم متساوون فيها، وإلى وجودها في أنفسهم مضطرون، وفي المعرفة بما يتولد عنها متفقون...» إلخ.

كتب أبو عثمان بعض كتبه عن طلب من أصدقائه، ومنهم من ذكرت فيها أسماؤهم، ومنهم من لم تعرف كما وقع له في كتاب «حجج النبوة» أن قال: «قد أعجبني -حفظك الله- استهداؤك العلم وفهمك له، وشغفك بالإنصاف وميلك إليه، وتعظيمك الحق وموالاتك فيه، ورغبتك عن التقليد، وزرايتك عليه، ومواترة كتبك على بعد دارك، وتقطع أسبابك، وصبرت إلى أوان الإمكان، واتساعك عند تضايق العذر، وفهمت -حفظك الله- كتابك الأول وما حثثت عليه من تبادل العلم والتعاون على البحث والتحاب في الدين والنصيحة لجميع المسلمين، وقلت: اكتب إليَّ كتابًا تقصد فيه إلى حاجات النفوس، وإلى إصلاح القلوب، وإلى معتلجات الشكوك، وخواطر الشبهات، دون الذي عليه أكثر المتكلمين من التطويل ومن

التعمق والتعقيد، ومن تكلف ما لا يجب، وإضاعة ما يجب، وقلت: كن كالمعلم الرفيق، والمعالج الشفيق، الذي يعرف الداء وسببه، والدواء وموقعه، ويصبر على طول العلاج ولا يسأم كثرة الترداد....» إلخ.

***

أظننا الآن جلينا بعض ما خاض الجاحظ غماره، وجَلَّى في مضاميره من الأبحاث، وما أشبهه بصحيفة عصره السيارة ينطق فيها بلسان حزب الوطن، وحزب الدولة، وحزب الدين، ويدل الناس على مراشدهم، ويكشف عن عورات الفاسدين، ويعلم قومه الفضائل، ويلقنهم كل ما تستنير به عقولهم، يعرفهم الإسلام الحق، ويأتيهم بما يقنعهم، ويزيد إيمانهم وثوقًا، ككتبه في إثبات النبوة ونظم القرآن وفصل ما بين النبي المتنبي.

قال ابن الخياط: «ومن قرأ كتاب عمرو الجاحظ في الرد على المشبهة، وكتابه في الأخبار وإثبات النبوة، وكتابه في نظم القرآن -علم أن له في الإسلام غناءً عظيمًا، لم يكن الله عز وجل ليضيعه له. ولا يُعرف كتاب في الاحتجاج لنظم القرآن وعجيب تأليفه، وأنه حجة لمحمد على نبوته غير كتاب الجاحظ؛ وهذه كتبه في إثبات الرسالة وكتبه في تصحيح مجيء الأخبار مشهورة».

الجاحظ المعلم الأول يعلم الناس أن لا يؤمنوا بشيء إلا إذا صح في نظام العقل، ويريدهم على أن تدق ملاحظتهم، ويرهف حسهم، يعلم حرية النظر والبحث ولسان حاله أن الدين لا يصلح بغير الدنيا، وأن الشريعة جاءت لإصلاح الأولى والأخرى، فتراه يكتب دفاتر مشبعة في ذم الزنى وفي الشارب والمشروب وإثم المسكر، وفي شرائع المروءة، وفي العشق والنساء وفضل ما بين الرجال والنساء، وفي الجواري والمعلمين والطفيليين والمغنين، وفي العرجان والبرصان والقرعان، وفي

الأسماء والكنى والألقاب والأنباز، وفي الأُنس والسلوة، وفي حيل اللصوص وغش الصناعات وأخلاق الشطار، ويكتب في المعادن والتجارة، وقلما ترى له تخليطًا يذكر إلى جانب تخليط غيره من قدماء المؤلفين.

ذكر الجاحظ بني مروان وبني أمية في رسالة ما لهم وما عليهم، مع أنه لا يتولاهم؛ يقول المسعودي -وقوله يؤخذ أبدًا بتحفظ-: إن الجاحظ ألف كتابًا بإمامة ولد العباس يحتج فيه لهذا المذهب وأنه لم يصنف هذا الكتاب، ولا استقصى فيه الحجج للراوندية، وهم شيعة ولد العباس، لأنه لم يكن مذهبه ولا كان يعتقده لكن فعل ذلك تماجنًا وتطربًا، وقد صنف كتاب استقصى فيه الحجج ترجمه بكتاب العثمانية، يُحيل فيه عند نفسه فضائل علي ومناقبه، ويحتج فيه لغيره، ثم لم يرض بهذا الكتاب المترجم بالعثمانية حتى أعقبه بتصنيف كتاب آخر في إمامة المروانية وأقوال شيعتهم. قال: رأيته مترجمًا بكتاب إمارة أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان في الانتصار له من علي بن أبي طالب وشيعته الرافضة، يذكر فيه رجال المروانية، ويؤيد فيه إمامة بني أمية وغيرهم، ثم صنف كتابًا آخر ترجمه بكتاب مسائل العثمانية يذكر فيها ما فاته ذكره ونقضه عند نفسه من فضائل أمير المؤمنين عليٍّ ومن تبعه. اهـ.

وهاك ما قاله فيما عيب عليه من كتبه، وكأنه جواب لمخالفيه، والمسعودي داخل في زمرتهم: «وعبتني بكتاب الصرحاء والهجناء، ومفاخر السودان والحمران، وموازنة ما بين حق الخؤولة والعمومة. وعبتني بكتاب الزرع والنخل والزيتون والأعناب، وأقسام فضول الصناعات ومراتب التجارات، وبكتاب فضل ما بين الرجال والنساء، وفرق ما بين الذكور والإناث، وفي أي موضع يغلبن ويفضلن، وفي أي موضع يكن المغلوبات والمفضولات، ونصيب أيهما في الولد أوفر، وفي أي موضع يكون حقهن أوجب، وأي عمل هو بهن أليق، وأي صناعة هن فيها أبلغ.

وعبتني بكتاب القحطانية والعدنانية، وفي الرد على القحطانية، وزعمت أني جاوزت فيه حد الحمية إلى حد العصبية، وأني لم أصل إلى تفضيل العدنانية إلا بتنقص القحطانية. وعبتني بكتاب العرب والموالي، وزعمت أني بخست الموالي حقوقهم، كما أني أعطيت العرب ما ليس لهم. وعبتني بكتاب العرب والعجم، وزعمت أن القول في فرق ما بين العرب والعجم، هو القول في فرق ما بين الموالي والعرب. ونسبتني إلى التكرار والترداد، وإلى التكثر والجهل بما في المُعاد من الخطل، وحمل الناس المؤن. وعبتني بكتاب الأصنام وبذكر اعتلالات الهند لها، وسبب عبادة العرب إياها، وكيف اختلفا في جهة العلة، مع اتفاقهما على جملة الديانة، وكيف صار عُبَّاد البَدَدة، والمتمسكون بعبادة الأوثان المنحوتة والأصنام المنجورة أشد الديانيين إلفًا لما دانوا به، وشغفًا لما تعبدوا له، وأظهرهم جدًّا، وأشدهم على من خالفهم ضغنًا.

وعبتني بكتاب المعادن والقول في جواهر الأرض وفي اختلاف أجناس الفلز، والإخبار عن ذائبها وجامدها ومخلوقها ومصنوعها، وكيف يسرع الانقلاب إلى بعضها ويبطئ عن بعضها، وكيف صار بعض الألوان يصبغ ولا ينصبغ، وبعضها ينصبغ ولا يصبغ، وبعضها يصبغ وينصبغ، وما القول في الإكسير والتلطيف. وعبتني بكتاب فرق ما بين هاشم وعبد شمس، وكتاب فرق ما بين الجن والإنس، وفرق ما بين الملائكة والجن، وكيف القول في استيلاء العفريت على سليمان وفي الهدهد، وفي الذي كان عنده علم من الكتاب، وما الذي هو ذلك العلم، وما تأويل قولهم كان.

وعبتني بكتاب الأوفاق والرياضات، وما القول في الأرزاق والإنفاقات، وكيف تجرد التجار الحرفاء، وكيف الاحتيال للودائع؛ وبكل ما كتبت إلى إخواني

وخلطائي من مزح وجد، ومن إفصاح وتعريض، ومن تغافل وتوقيف، ومن هجاء لا يزال ميسمه[1] باقيًا، ومديح لا يزال أثره ناميًا، ومن ملح تضحك ومواعظ تبكي. وعبتني برسائلي الهاشميات واحتجاجي فيها، واستقصائي معانيها وتصويري لها في أحسن صورة، وإظهاري لها في أتم حلية، وزعمت أني قد خرجت بذلك من حد المعتزلة إلى حد الزيدية، ومن حد الاعتدال في التشيع والاقتصاد فيه إلى حد السرف والإفراط فيه؛ وزعمت أن مقالة الزيدية خطيئة مقالة الرافضة، وأن مقالة الرافضة خطيئة مقالة الغالية. وزعمت أن في أصل القضية والذي جرت عليه العادة أن كل كبير فأوله صغير، وأن كل كثير فإنما هو قليل جمع إلى قليل.

وعبت كتابي في خلق القرآن، كما عبت كتابي في الرد على المشبهة، وعبت القول في أصول الفتيا والأحكام، كما عبت كتابي في الاحتجاج لنظم القرآن، وغريب تأليفه وبديع تركيبه، وعبت معارضتي للزيدية، وتفضيل الاعتزال على كل نحلة، كما عبت كتابي في الوعد والوعيد، وكتابي على النصراني واليهودي، ثم عبت جملة كتبي في المعرفة، والتمست تهجينها بكل حيلة، وصغرت من شأنها، وحططت من قدرها، واعترضت على ناسخيها والمنتفعين بها، فعبت كتاب الجوابات، وكتاب الرسائل، وكتاب أصحاب الإلهام، وكتاب الحجة في تثبيت النبوة، وكتاب الأخبار، ثم عبت إنكاري بصيرة غنام المرتد، وبصيرة كل جاحد وملحد، وتفريقي بين اعتراض الغمر، وبين استبصار الملحد، وعبت كتاب الرد على الجهمية في الإدراك، وفي قولهم في الجهات، وكتاب فرق ما بين النبي والمتنبي، والفرق ما بين الحيل والمخارق، وبين الحقائق الظاهرة والأعلام الباصرة، ثم قصدت إلى كتابي هذا بالتصغير».

---

(١) الميسم: المكواة.

وبعد فقد رأينا كيف عاب ذلك العائب كتب الجاحظ حتى لم يكد يبقى له كتابًا، وإن بلغ في إحكامه شوطًا بعيدًا، لقد لقي هذا الإمام الألاقي[1] من خصومه المشاغبين والمعارضين، ولكن ذهبت أقوالهم في الريح، وذهب هو بالإحسان، ثبتت مصنفاته وانتشرت وانقرض الثرثارون وما ثرثروا به، وأي عصر، وأي مذهب، وأي جنس خلا من أمثالهم.

كان يقال: أربعة لم يخلقوا ولم يسبقوا: أبو حنيفة في فقهه، والخليل في أدبه، والجاحظ في تأليفه، وأبو تمام في شعره؛ وحقيق على من تصفح تآليف الجاحظ واتساعه فيها، ورأى ما حوت من آثار حفظه وتدوينه واستقرائه واستنتاجه أن يعذر الناس في كل عصر لإعجابهم بما كتب، ولا يستنكرون من الاستنباط بأن العالم كانوا يرقبون صدور كتبه كما يتوقع المحدثون اليوم صدور صحف الأخبار، وورود الإذاعات في الأيام العصيبة وكان هو يعرف لنفسه هذه الشهرة الطائرة ويعرفها له الناس. قال بعضهم للجاحظ: مثلك في علمك ومقدارك من الأدب ينشد قوله:

منطـــق صـــائب وتلحـــن أحيـــا ... نًـــا وخـــير الحـــديث مـــا كـــان لحنـــا

ويفسره على أنه أراد اللحن في الإعراب، وإنما وصفها بالظرف والفطنة، وأنها توري في لفظها عن أشياء. قال: قد فطنت لذلك بعد، ولما أشار عليه ناقده أن يغير تفسيره قال: كيف لي بما سارت به الركبان؟

ومن البراهين على اتساع شهرته في حياته ما قيل لأبي هفان وقد طال ذكر الجاحظ: لِمَ لا تهجو الجاحظ وقد ثلبك وأخذ بمخنقك؟ فقال: أمثلي يخدع عن عقله؟ والله لو وضع رسالة في أرنبة أنفي لما أمست إلا بالصين شهرة، ولو قلت فيه ألف بيت لما طن منها بيت في ألف سنة.

---

(١) الألاقي: الشدائد.

سياسته ودهاؤه:

الجاحظ رجل سياسة أيضًا كما هو مِعَنٌّ مِفَن[1]، عرف سياسة الوقت معرفته سياسة العلم. ومع اعتياده عادة العلماء كما قال ابن خلدون (النظر الفكري والغوص على المعاني وانتزاعها من المحسوسات، وتجريدها في الذهن أمورًا كلية عامة ليحكم عليها بأمر العموم، لا بخصوص مادة ولا شخص، ولا جيل ولا أمة، ولا صنف من الناس) مع اعتياده هذا اشترك في الدفاع عن كيان الدولة، وقصر وُكْدَه على الأمور الكبرى، وما دخل في تفاصيل السياسة العباسية، ولو شارك فيها لكثر غلطه عند إرادته إفراغ السياسة في قالب أنظاره، ونوّع استدلالاته، من تعميم الأحكام وقياس الأمور بعضها على بعض.

وأقل نظرة في كتبه تنبئك بأنه آزر في خدمة دولته، وأسفاره في الفرق ما بين «هاشم وعبد شمس»، و«الرسائل الهاشميات»، و«العباسية»، و«العرب والموالي»، و«العرب والعجم»، و«وجوب الإمامة»، و«الدلالة على أن الإمامة فرض»، و«مناقب الترك» كلها شاهدة أنه ساهم السياسيين إلى الحد الذي استجازه لنفسه. وإنا إذا نظرنا إلى اتصاله بوزراء الدولة، وإلى حرص كل واحد منهم على أن يختص به دون غيره، ندرك أن من شغفوا بصحبته للانتفاع بفضله، والاستمتاع بحديثه، لا بد أن يحاولوا حمله على معاونتهم على حل مشاكلهم علمًا منهم بتأثير كلامه في الأفكار؛ ومنهم من كان يعمل لدولته في حاضرها، ويهتم لمستقبلها، أمثال: ابن خاقان، وابن أبي داود، وابن الزيات.

ومن يؤلف كتاب الفرق ما بين هاشم وبني عبد شمس، لا يعقل إلا أن يسير إلى جنب بني هاشم، وهم أصحاب الدولة القائمة، والجاحظ خصوصًا بحكم

(١) رجل مفن كمسن: يأتي بالعجائب، والمعن: الخطيب، ورجل معن مفن: ذو فنون من الكلام.

مذهبه لا يتولى بني أمية. ومن يؤلف «الهاشميات» و«كتاب العباسية» لا يتوخى غير خدمة العباسيين، ولا يكتب إلا ما ينفع الهاشميين. وشيء آخر وهو أن أبا عثمان لو لم يتخذ هذه الخطة السياسية، يراعي الخلفاء، وأبناء الدعوة ووزراءهم، لاستضعفه أعداؤه؛ وكان له أعداء في مذهبه، وأعداء في علمه وفكره، وحساد غلاظ شداد من طبقة العلماء، وطواغيت أغبياء، يكرهون برداءة فِطرهم كل من ينبغ ويشتهر. هذا وفي أرض المملكة ألوف من المعجبين به وأكثرهم من الخواص، والعوام متسلطون عليهم في أغلب الأزمان والبلدان؛ فلولا السياسة التي اتبعها الجاحظ، ولولا ما أدرك المخالف والموالف، أن له موقعًا عند السلطان، وأنه يرعاه ويبسط عليه جناح رحمته، لناله شيء من أذى العامة والخاصة، بإيعاز أنصار السوء؛ فأبو عثمان اتخذ الطريقة التي سلكها في بعض تآليفه يدًا عند الخلفاء ورجال الدولة فغدوا له قوة وسندًا.

انظر إلى قوله في جملة طبقات الناس: «وضرب آخر من الناس همج هامج[1] ورعاع منتشر، لا نظام لهم ولا اختيار عندهم، أعراب أجلاف، وأشباه الأعراب، لا تدفع صولتهم إذا هاجوا، ولا يؤمن هيجانهم إذا سكنوا، إن أخصبوا طغوا في البلاد، وإن أجدباو آثروا العناد، ثم هم موكلون ببغض القادة، وأهل الثراء والنعمة، يتمنون النكبة، ويشمتون بالعثرة، ويسرون بالحَوْلَة[2]، ويترقبون الدائرة، وهم كما وصفوا الطّغام والسفلة».

وقال من رسالة في وصف العوام: «قد عرفت ما كان الناس فيه من القول بالعامة وما لهم من الجماعات الكثيرة والقوة الظاهرة وليست للخاصة طاقة بالعامة

---

(١) همج هامج توكيد مثل ليل لائل، والهمج: الرعاع من الناس، وقيل: هم الأخلاط، وقيل: هم الهمل الذين لا نظام لهم. وكل شيء ترك بعضه يموج في بعض فهو هامج.

(٢) الحولة: التحول والانقلاب.

ولا للعلية قوة على السفلة. وقد قالت الأوائل فيهم، وفي الاستعاذة بالله تعالى منهم، فقال علي رضي الله عنه: نعوذ بالله من قوم إذا اجتمعوا لم يملكوا، وإذا تفرقوا لم يعرفوا. وقال واصل بن عطاء: ما اجتمعوا إلا ضروا، ولا تفرقوا إلا نفعوا. قيل له: قد عرفنا مضرة الاجتماع، فما منفعة الافتراق؟ قال: يرجع الطيان إلى تطيينه، والحائك إلى حياكته، والفلاح إلى فلاحته، وكل إنسان إلى صناعته، وكل ذلك رفق للمسلمين ومعونة للمحتاجين. وكان عمر بن عبد العزيز إذا نظر إلى الطغام والحشوة قال: قبَّح الله هذه الوجوه التي لا تُعرف إلا عند الشر...».

هو يعتقد أن الشر غالب على طباع العامة، وإذا تدبرنا كلامًا له مثلًا، يعتذر فيه عن السلطان ويعلل سبب نقمة بعضهم عليه، لا نتحرج من أن نذهب إلى أن هذا الفصل ما كتبه إلا ليقلل من شأن الناقمين على السياسة يومئذ، وجوابه المقدر أصح جواب بقوله سياسي، وهذا هو «السلطان لا يخلو من متأول ناقم، ومن محكوم عليه ساخط، ومن معدول عن الحكم زارٍ، ومن متعطل متصفح[1]، ومن مُعْجب برأيه ذي خَطل بيانه، مولع بتهجين الصواب، والاعتراض على التدبير، حتى كأنه رائد[2] لجميع الأمة، ووكيل لسكان المملكة، يضع نفسه في موضع الرقباء، وفي موضع التصفح على الخلفاء والوزراء، لا يعذر وإن كان مجازُ العذر واضحًا، ولا يقف فيما يكن للشك محتملًا، ولا يصدق بأن الشاهد يرى ما لا يرى الغائب، وأنه لا يعرف مصادر الرأي من لم يشهد موارده، ولا مستدبره من لم يعرف مستقبله، ومن محروم قد اضطغنه[3] الحرمان، ومن لئيم قد أفسده الإحسان، ومن مستبطئ قد أخذ أضعاف حقه، وهو لجهله بقدره، ولضيق ذرعه، وقلة شكره، يظن أن الذي بقي له

(١) الزاري: العائب، والمتصفح: الذي ينظر في الأمر بإمعان، وتهجين الأمر: تقبيحه.
(٢) الرائد: الذي يرسل في طلب الكلأ.
(٣) اضطغنه: جعله مشتملًا على الضغن وهو الحقد.

أكثر، وأن حقه أوجب؛ ومن مستزيد لو ارتجع السلطان سالف أياديه البيض عنده، ونعمه السالفة عليه، لكان لذلك أهلًا، وله مستحقًّا، قد غره الإملاء، وأبطره دوام الكفاية، وأفسده طول الفراغ؛ وصاحب فتنة خامل في الجماعة، رئيس في الفرقة، نعَّاق في الهرج، قد أقصاه عز السلطان، وأقام صغوه ثقاف الأدب[1]، وأذله الحكم بالحق، فهو مغيظ لا يجد غير التشنيع، ولا يتشفى بغير الإرجاف، ولا يستريح إلا إلى الأماني، ولا يأنس إلا بكل مرجف كذاب، ومفتون مرتاب، وحارص لا خير فيه، وخالف لا غَناء عنده، يريد أن يسوّى بالكفاة، ويرفع فوق الحماة لأمر سلف له، ولإحسان كان من غيره، وليس ممن يربُّ[2] قديما بحديث، ولا يحفل بدروس شرف، ولا يفصل بين ثواب المحتسبين، وبين الحفظ لأبناء المحسنين، وكيف يعرف فرق ما بين حق الذمام، وثواب الكفاية، من لا يعرف طبقات الحق في مراتبه، ولا يفصل بين طبقات الباطل في منازله».

كتب هذا إلى الفتح بن خاقان وزير المتوكل في المشكلة التي كان يراها رجال الدولة من أهم ما يُعالج يومئذ، وهي مسألة اللغط في الجيش من تسرب الأتراك إليه. ومن يقرأ رسالته في مدح الأتراك لا يصعب عليه أن يدرك أن الجاحظ على بلاغته ولطيف حيلته، كان هنا يُجمجم ولا يصرح، هو بحكم دمه وتربيته ومنشئه يحب العرب، ويعد سائر الأمم دونهم في المنزلة والجنس، ويرى أن نساء العرب في الجملة أعقل من رجال العجم، ويقول: «فما ظنك بالمرأة منهم إذا كانت مقدمة فيهم؟». ويدعي أنه: «لم يكن لعبد المطلب في قريش نظير، كما أنه ليس في العرب لقريش نظير، وكما أنه ليس في العرب للناس نظير». وأكثر أبناء دعوته من الترك في

---

(١) الصغو: الميل، والثقاف كسحاب: ما يسوى به الرماح؛ أي يثقفها، والنعيق: صوت الراعي بغنمه، والهرج: الفتنة والاختلاط.

(٢) ربّ الأمر: إذا ساسه وقام بتدبيره.

الجيش؛ وصارت للأتراك في الدولة الكلمة المسموعة، فصبا إلى أن يوفق بين المصلحتين، مصلحة الدولة في القضاء على تحاسد العناصر في جيشها، والخوف من هؤلاء الأتراك، وقد بدت طلائع سلطانهم، وتجلى بطشهم وفتكهم، وكادت تعرف مراميهم. وعلى هذا كان الجاحظ على بعض صواب في كتابه هذا، وإلى معذرة فيما مَوَّه فيه، فقد نفع نفسه بأن أرضى الأتراك، ونفع دولته بأن أهدأ الأفكار الثائرة، وبضع صفحات من كلام الجاحظ أفعل في الناس من عشرات من رسائل غيره وخطبهم، وهذا سر تمسك رجال الدولة به والضن بصداقته.

عالج بما رأى مسألة تكاثر الأتراك في الجيش، وربما أحنق لثنائه على الترك نفوس بعض العرب عليه، وهكذا اقتضت سياسة دولته وأمته. وعالج أيضًا مسألة سياسية أخرى، عنينا مسألة الشعوبية[1] من العجم أعداء العرب، وقد رأى التناحر بين الفريقين يؤدي إلى انقسام المملكة على نفسها، إذا فسد تركيب الجيش، وإذا فسد تركيب الأمة، فهب بما أوتيه من حكمة يقاتل الشعوبيين، ويصغر من شأنهم، ويرفع من قدر العرب، وما غايته من ذلك إلا خدمة الدعوة العباسية، ويقول في الطعن عليهم: «واعلم أنك لم ترَ قومًا أشقى من هؤلاء الشعوبية، ولا أعدى على دينه، ولا أشد استهلاكا لعرضه، ولا أطول نصبًا، ولا أقل غنمًا من أهل هذه النحلة. وقد شفى الصدور منهم طول جثوم الحسد على أكبادهم، وتوقد نار الشنآن في قلوبهم، وغليان تلك المراجل الفائرة، وتسعر تلك النيران المضطرمة».

---

(١) الشعوب هم الأعاجم، وفي العقد: أن العرب تسمي العجمي إذا أسلم المسلماني، ومنه يقال: مسلمة السواد، والهجين عندهم الذي أبوه عربي وأمه أعجمية، والمذرع الذي أمه عربية وأبوه أعجمي، والعجمي النصراني ونحوه وإن كان فصيحًا، والأعجمي الأخرس اللسان وإن كان مسلمًا، ومنه قيل: زياد الأعجم، وكان في لسانه لكنة؛ ودعي الفرس بالموالي في الإسلام، وكانوا يسمون أبناء الأحرار في الجاهلية.

حارب الشعوبية في البيان والتبيين وحاربهم في كتاب الموالي والعرب، وحاربهم في رسالة النابتة، وربما في مواضع أخرى لم تنته إلينا من أقواله، وحارب الموالي لكراهته (العصبية التي هلك بها عالم بعد عالم، والحمية التي لا تبقي دينًا إلا أفسدته، ولا دنيا إلا أهلكتها، وهو ما صارت إليه العجم من مذهب الشعوبية، وما قد صار إليه الموالي من الفخر على العجم والعرب) قال: «وليس أدعى إلى الفساد، ولا أجلب للشر من المفاخرة، وأي شيء أغيظ من أن يكون عبدك يزعم أنه أشرف منك، وهو مقر أنه صار شريفًا بعتقك إياه».

فالجاحظ لم يتلكأ عن خدمة الدولة في مداواة هذين الجرحين النغارين في جسم المملكة، ناقش من يتنازعون في صميم الجيش ومن يتنازعون في صميم الأمة، وكال بالكيل الوافى لكل من يدعي هذه الدعوى من الخاصة والعامة، خلافًا لابن قتنية الذي ادّعى أن الشعوبية الذين عادوا كانوا من السفلة والحشوة وأوباش النبط وأبناء أكرة القرى؛ فأما أشراف العجم وذوو الأخطار منهم، وأهل الديانة، فيعرفون ما لهم وما عليهم، ويرون الشرف نسبًا ثابتًا. أي أن أن هذه العداوة التى كان العامة يبطنونها ويظهرونها للعرب، كان الخاصة من الفرس براء منها. والجاحظ أعقل من أن يغتر بالظواهر، وهو يدرك أن معظم النار من مستصغر الشرر. ويقول: إن «الفرس أصحاب تنفج وتزيد، ولا سيما فى كل شيء مما فى باب العصبية».

يفترص الجاحظ كل فرصة ليخدم الدعوة الهاشمية وينوِّه برجالها، فقد ذكر الكبر والمتكبرين فى العرب، وانتهى به الكلام إلى مدح هاشم في هذا الشأن، على أسلوب تعتقد صحة كل ما وري لك، تأمل كلامه في هذا المعنى ولعلك تشاطرنا الرأي في أن الجاحظ بالغ بالحط من خصوم العباسيين ليخرج من ذلك إلى مدح من استلزمت سياسته تجميل صورتهم قال:

«والمذكورون من الناس بالكبر، ثم من قريش بنو مخزوم وبنو أمية، ومن العرب بنو جعفر بن كلاب وبنو زُرارة بن عُدس خاصة؛ فأما الأكاسرة من الفرس فكانوا لا يعدون الناس إلا عبيدًا، وأنفسهم إلا أربابًا، ولسنا نخبر إلا عن دهماء الناس وجمهورهم، وكيف كانوا من ملوك وسُوقة، والكبر في الأجناس الذليلة من الناس أرسخ وأعم، ولكن الذلة والقلة مانعتان من ظهور كبرهم، فصار لا يعرف ذلك إلا أهل المعرفة كعبيدنا من السند وذمتنا من اليهود؛ وعلى الجملة أن كل من قدر من السفلة والوضعاء والمُحَقَّرين أدنى قدرة، ظهر من كبره على من تحت قدرته، على مراتب القدرة ما لا خفاء به، فإن كان ذميًّا وأحس بما له في صدور الناس تزيد في ذلك، واستظهرت[1] به طبيعته، بما يظن أن فيه رقع ذلك الخرق، وحياص[2] ذلك الفتق، وسد تلك الثلمة، فتفقَّد ما أقول لك فإنك ستجده فاشيًا. وعلى هذا الحساب من هذه الجهة صار المملوك أسوأ ملكًا من الحر. وشيء قتلته علمًا، وهو أني لم أرَ ذا كبر قط على من دونه إلا وهو يذل لمن فوقه بمقدار ذلك ووزنه، فأما بنو مخزوم وبنو أمية وجعفر بن كلاب وبنو زرارة بن عُدَس فأبطرهم ما وجدوا لأنفسهم من الفضيلة، ولو كان في قوى عقولهم وديانتهم فضل على قوى دواعي الحمية فيهم، لكانوا كبني هاشم في تواضعهم وفي إنصافهم لمن دونهم».

ونقل الثعالبي أن الجاحظ لم يترك مزيدًا في وصف قريش ومدحه إياهم وتخصيصه بني هاشم، فإنه رحمه الله ألقى جُمَّة[3] فصاحته، واستنزف بحر بلاغته في فصل له وهو قوله: «العرب كالبدن، وقريش روحها، وهاشم سرها ولبها، وموضوع غاية الدين والدنيا منها، وهاشم ملح الأرض، وزينة الدنيا، وحلي العالم،

---

(١) استظهر به: استعان.

(٢) حاص الثوب: خاطه.

(٣) معظم.

والسنام الأضخم، والكاهل الأعظم، ولباب كل جوهر كريم، وسر كل عنصر شريف، والطينة البيضاء، والمغرس المبارك، والنصاب الوثيق ومعدن الفهم، وينبوع العلم، ومناهل الظامئ إلى الحلم، والسيف الحسام في العزم، مع الأناة والحزم، والصفح عن الجرم، والإغضاء عن العثرة، والعفو عند المقدرة، وهم الأنف المقدم، والسنام الأكوم [1]، والعز المشمخر، والصيابة[2] والسر، وكالماء الذي لا ينجسه شيء، وكالشمس لا تخفى بكل مكان، وكالنجم للحيران، والماء البارد للظمآن، ومنهم العُمَران، والطيبان، والسبطان، والشهيدان، وأسد الله، وذو الجناحين، وسيد الوادي، وساقي الحجيج، وحليم البطحاء، والبحر والحبر، والأنصار أنصارهم، والمهاجر من هاجر إليهم أو معهم، والصديق من صدقهم، والفاروق من فرَّق بين الحق والباطل منهم، والحواريُّ حواريهم، وذو الشهادتين لأنه شهد لهم، ولا خير إلا لهم أو فيهم أو معهم أو انضاف إليهم؛ وكيف لا يكونون كذلك ومنهم رسول رب العالمين، وإمام الأولين والآخرين، وسيد المرسلين، وخاتم النبيين».

مثال آخر يثبت أنه كان يغلو في مدح بني هاشم وهو قوله: كانت الطواعين تقع كثيرًا فتصير تواريخ كطاعون عمواس، وطاعون العذارى، وطاعون الأشراف وغيرها. ولما ملك بنو العباس رفع الله ببركتهم الطواعين والمُوتان الجارف عن بني آدم، فإنها كانت تحصد فيهم حصدًا. وفي ذلك يقول العمَّاني للرشيد:

قد أذهب الله رماح الجن ... وأذهب التعليق والتجني

رماح الجن: الطاعون؛ ويشير بالتعليق والتجني إلى ما كان من بنو مروان يفعلونه من مطالبة الناس بالأموال، وتعذيب عمال الخراج بالتعليق والتجريد.

---

(١) الأكوم: المرتفع.

(٢) الصياب والصيابة بضمهما ويخففان: الخالص الصميم والأصل والخيار من الشيء، والصيابة: السيد. واشمخر: طال، والمشمخر: الجبل العالي.

وكلامه هذا منقوض بوثائق التاريخ، فإن الأمويين كانوا أرحم في باب الجباية من العباسيين؛ وفي رسالة الخراج لأبي يوسف وصف كثير لما كان يعذب به الناس في الخراج في دهر بني العباس، على ما لم يعهد بعضه في زمن بني أمية.

وبعد فإنك لا ترى في كل ما سلم من كتابات الجاحظ إلا تناسيًا منه لما يرتكب من المآثم في البلاد، والسلطان في العادة والعرف هو مسئول عنها في الدرجة الأولى، ووجهة نظره في سياسته استصلاح الجمهور ليصلح القائمون عليه بالضرورة، ومن لطيف مأتاه ألا ينبه الأذهان إلى عيوب الدولة لأنه يحاذر عليها أعداءها، ومصلحته تقتضيه الدفاع عنها. ولعل الجاحظ كان يعرف من عيوب رجالهم وعمالهم ما لايعرفه كثير من كبراء الدولة في عصره، وقصاراه الإغضاء اضطرارًا لا اختيارًا، فهو يوجه نقده إلى الكثرة الغامرة من الأمة، عسى أن يكون بصلاحها صلاح الدولة.

ولا يؤخذ من هذا أن الجاحظ صانع رجال الدولة، ولو كان يحاول ذلك، ولا يحس مقدار قبح هذه الصفة لاعتذر عنهم في أكثر ما تم على أيديهم وأيدي أتباعهم من الشرور والمظالم، ولأقام لهم الأعذار، وهو لا يعدم حجة، ولا يقصر في بلاغة، بيد أنه رأى الإغضاء وإسدال الستر على ما هنالك، وانطلق يضرب فيمن ينالون من السلطان بما اختار لقيام أمره من أجناس غير عربية أغضبت العرب، وبمن يكيدون من الشعوبيين أعداء العرب، وهواه أبدًا مع بني هاشم، زيّنهم في عينه كونهم أصحاب السلطان. وهو القائل: «وقضية واجبة أن الناس لا يصلحهم إلا رئيس واحد، يجمع شملهم ويكفيهم ويحميهم من عدوهم ويمنع قويهم عن ضعيفهم، وقليل له نظام أقوى من كثير لا نظام لهم ولا رئيس عليهم». ثم إن قصوره قليل يوم يصح عزمه على ذكر خصومه لأنه يَعُدُّ الكذب كبيرة، ويكره التزيد في كل شيء، فإذا موَّه موَّه بعقل، وإذا أحب قد يترك مجالًا لحفظ خط الرجعة كما نقول اليوم، لا يَعْمى

عما ظهر من السيئات، وإن اضطرته الحال إلى إغماض الطرف عن ترددها في الفترات. قال لأحد العظماء من رسالة: إنك ستُمنى بصحبة السلطان الحازم العادل، وبصحبة السلطان الأخرق الجهول الغشوم، فالحازم العادل يسوسه لك الأدب والنصح، والأخرق يسوسه لك الحيلة والرفق.

تهكمه وتنادره:

قلَّ في العارفين من الناس من تذوق الحياة بالمعنى الذي تذوقه الجاحظ. جد جدًّا لم يبلغه غير أفراد في الآباد، وهزل هزلًا قوي به على معاودة الجد، فروَّح عن نفسه وعمن حفَّ به وقرأ كتبه. أدرك أن مرارة الدنيا لا تحلو بعض الحلاوة بغير الدعابة والإحماض، ووقف على أسرار نفس الإنسان فحاول أن يلطف من شِرَّة الدنيا وشقائها. تعمد، وهو العليم بأن الضحك والإضحاك خُلقا مع البشر كالبكاء والإبكاء، أن يهذب الناس في هذه الناحية. والمرء يتعلم بالضحك أكثر مما يتعلم بالعبوس. وهو يريد أن لا يكون المرء جامدًا ولا سائلًا بل يف حالة بين بين.

قال: «وإذا كان البكاء الذي ما دام صاحبه فيه فإنه في بلاء، وربما أعمى البصر، وأفسد الدماغ، ودلَّ على السخف، وقضى على صاحبه بالهلع، وشبّه بالأمَة اللكعاء، وبالحدث الضَرَع كذلك، فما ظنك بالضحك الذي لا يزال صاحبه في غاية السرور إلى أن ينقطع عنه سببه. ولو كان الضحك قبيحًا من الضاحك، وقبيحًا من المضحك، لما قيل للزهرة والحَبَرة والحلي والقصر المبني: كأنه يضحك ضحكًا. وقد قال الله -جل ذكره-: {وأنه هو أضحك وأبكى * وأنه هو أمات وأحيا} فوضع الضحك بحذاء الحياة، ووضع البكاء بحذاء الموت. وإنه لا يضيف الله إلى نفسه القبيح، ولا يمنُّ على خلقه بالنقص. وكيف لا يكون موقعه من سرور النفس عظيمًا، ومن مصلحة الطباع كبيرًا، وهو شيء في أصل الطباع، وفي أساس التركيب، لأن

الضحك أول خير يظهر من الصبي، وقد تطيب به نفسه، وعليه ينبت شحمه، ويكثر دمه الذي هو علة سروره، ومادة قوته. ولفضل خصال الضحك عند العرب تسمي أولادها بالضحاك وببسام وبطلق وبطليق. وقد ضحك النبي صلى الله عليه وسلم ومزح، وضحك الضاحكون ومزحوا، وإذا مزحوا قالوا: هو ضحوك السنِّ، وبسَّام العشيات، وهشٌّ إلى الضيف، وذو أريحية واهتزاز. وإذا ذموا قالوا: هو عبوس، وهو كالح، وهو قطوب، وهو شتيم المحيا، وهو مكفهر أبدًا، وهو كريه، ومقبَّض الوجه، وحامض الوجه، وكأنما وجهه بالخل منضوح، وللمزح موضع وله مقدار، متى جازهما أحد، وقصَّر عنهما أحد، صار الفاضل خَطَلًا، والتقصير نقصًا، فالناس لم يعيبوا الضَّحِك إلا بقَدْر، ولم يعيبوا المزح إلا بقَدْر، ومتى أُريد بالمزح النفع، وبالضحك الشيء الذي جعل له الضحك، صار المزح جدًّا، والضحك وقارًا» اهـ. ذكر ابن عباس في تفسير قول الله عز وجل: {لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها} قال: الصغيرة التبسم، والكبيرة الضحك.

وقال في تعليل استعمال الهزل وفي منافعه ومضاره وفي حكمته وغايته: «إن الكلام قد يكون في لفظ الجد ومعناه معنى الهزل، كما يكون في لفظ الهزل ومعناه معنى الجد، ولو استعمل الناس الدعابة في كل حال، والجد في كل مقال، وتركوا التسميح والتسهيل، وعَقّدوا في كل دقيق وجليل، لكان السفه صراحًا خيرًا لهم، والباطل محضًا أردَّ عليهم، ولكن لكل شيء قدر، ولكل حال شكل، فالضحك في موضعه كالبكاء في موضعه، والتبسم في موضعه كالقطوب في موضعه، وكذلك المنع والبذل، والعقاب والعفو، وجميع القبض والبسط، فإن ذممنا المزاح، ففيه لعمري ما يذمُّ، وإن حمدناه، ففيه ما يحمد، وفصل ما بينه وبين الجد أن الخطأ إلى المزاح أسرع، وحاله بحال السخف أشبه، فأما أن يذم حتى يكون كالظلم، وينعى حتى يكون

كالغدر، فلا؛ لأن المزاح مما يكون مرة قبيحًا ومرة حسنًا، والظلم لا يكون مرة قبيحًا ومرة حسنًا.

والمزاح باب ليس المخوف فيه التقصير، ولا يكون الخطأ فيه من جهة النقصان، وهو باب متى فتحه فاتح، وطرق له مطرّق[1]، لم يَمْلِك من سده مثل الذي يملك من فتحه، ولا يخرج منه بقدر ما كان قدم من نفسه؛ لأنه باب أصل بنائه على الخطأ، ولا يخالطه من الأخلاق إلا ما سَخُف، ومن شأنه التزيد، وأن يكون صاحبه قليل التحفظ، ولم نرَ شيئًا أبعد من شر، ولا أطول له صحبة ولا أشد خلافًا، ولا أكثر خلطًا، من الجد والمزاح، والمناظرة والمراء.

وقد ذهب الناس في المزاح إلى معان متضادة، وسلكوا منه في طرق مختلفة، فزعم بعضهم أن جميع المزاح خير من جميع الجد، وزعم آخرون أن الخير والشر عليهما مقسومان، وأن الحمد والذم بينهما نصفان. فأما المحامي على الهزل والمفضِّل للمزح، فإنه قال: أول ما أذكر من خصال الهزل ومن فضائل المزح أنه دليل على حسن الحال وفراغ البال، وأن الجد لا يكون إلا من فضل حاجة، والمزح لا يكون إلا من فضل غنى، وأن الجدَّ غضب، والمزح جَمام، والجد مبغضة، والمزح محبة. وصاحب الجد في بلاءٍ ما كان فيه، وصاحب المزح في رخاء إلى أن يخرج منه. والجد مؤلم، وربما عَرَّضك لأشد منه، والمزح ملذٌّ، وربما عرضك لألذ منه. فقد شاركه في التعريض للخير والشر، وباينه بتعجيل الخير دون الشر.

وإنما تشاغل الناس ليفرغوا، وجدُّوا ليهزلوا، كما تذللوا ليعزُّوا، وكدّوا ليستريحوا، وإن كان المزح إنما صار معيبًا، والهزل إنما صار مذمومًا؛ لأن صاحبه لا يكون إلا معرَّضًا لمجاوزة القدر، ومخاطرًا بمودة الصديق، فالجد داعية إلى الإفراط،

(١) طرق طريقًا: سهله حتى طرقه الناس بسيرهم، وطرق لي: أخرج.

كما أن المزح داعية إلى مجاوزة القدر، وتجاوز الحد قاطع بين القرينين في جميع النوعين، فقد ساواه المزاح فيما هو له، وباينه فيما ليس له، وإن كان المزح قبيحًا لأنه يورث الجد، فأقبح من المزح ما صيَّر المزح قبيحًا، وإذا صار المزح قبيحًا، لأن الذي يكون بعده الجد، ولم يصير الجد قبيحًا، لأن الذي بعده المزح، كان الجد في هذا الوزن أقبح من المزح، وكان المزح على هذا التقدير أحسن من الجد، لأن ما جعل الشيء حسنًا أحسن من الشيء، وأما الذي عدل بينهما، فإنه زعم أن المزح في موضعها كالجد في موضعه، كما أن المنع في حقه كالبذل في حقه.

ولكل شيء موضع، وليس شيء يصلح في كل موضع، وقد قسم الله الخِيرة على المعدلة، وأجرى جميع الأمور إلى غاية المصلحة، وقسط أجزاء المثوبة على العزيمة والرخصة، وعلى الإعلان والتقية، فأمر بالمداراة، كما أمر بالمباداة، وجوَّز المعاريض، كما أمر بالإفصاح، وسوَّغ في المباح، كما شدد في المفروض، وجعل المباح جَمامًا للقلوب، وراحة للأبدان، وعونًا على معاودة الأعمال، فصار الإطلاق كالحظر، والصبر كالشكر، وليس للإنسان من الخيرة في الذكر شيء إلا وله في النسيان مثله، ولا في الفطنة شيء إلا وله في الغفلة مثله، ولا في السراء شيء إلا وله في الضراء مثله، ولو لم يرزق الله العباد إلا بالصواب محضًا، وبالصدق صرفًا، وبمرّ الحق صفحًا، لهلك العوام، وانتقض أمر الخواص، ولو ذكر الإنسان كل ما أُنسيه لشقي، ولو جدَّ في كل شيء لانتكث، وقد يكون الذكر إلى الهلكة سلمًا، كما يكون النسيان للسلامة سببًا، وسبيل المزاح والجد كسبيل المنع والبذل، وعلى ذلك مجرى جميع القبض والبسط. فهذا وما قبله جمل أقاويل القوم».

أبان أبو عثمان بهذه الصفحة عن رأيه في الهزل والجد، وفي مواطن استعمالهما وذكر آراء غيره في ذلك. وما ندري إن كانت حقيقة هي آراؤهم أم هو تصور أنها

آراؤهم فأوردها بهذه الصيغة، ونسجها هذا النسج. اعتاد الإنسان المزاح والتنادر والمرح، ولكن إدخال ذلك في هذا القالب العلمي وتدوينه بالتأليف مما لم يعرفه قبل الجاحظ غير أفراد فيما نحسب، إن لم تكن هذه الطريقة من مبتكراته مباشرة فهو منظم شئونها، ومطرز نصوصها ومتونها.

قال: إن «أهل العلم والنظر، وأصحاب الفكر والعبر، وأرباب النحل، والعلماء وأهل البصر بمخارج الملل، وورثة الأنبياء، وأعوان الخلفاء، يكتبون كتب الظرفاء والملحاء، وكتب الفراغ والخلعاء، وكتب الملاهي والفكاهات، وكتب أصحاب الخصومات، وكتب أصحاب المراء، وكتب أصحاب العصبية وحمية الجاهلية، لأنهم لا يحاسبون أنفسهم، ولا يوازنون بين ما عليهم ولهم، ولا يخافون تصفح العلماء، ولائمة الأدباء».

وقال لقارئ كتابه الحيوان: «وإن كنا قد أمللناك بالجد، وبالاحتجاجات الصحيحة والممزوجة، لتكثر الخواطر وتشحذ العقول، فاستنشطتك ببعض البطالات، وبذكر العلل الظريفة والاحتجاجات الغريبة، فرب شعر يبلغ بفرط غباوة صاحبه ما لا يبلغه أحرُّ النوادر وأجود المعاني، وأنا أستظرف أمرين استظرافًا شديدًا؛ أحدهما استماع أحاديث الأعراب، والأمر الآخر احتجاج متنازعين في الكلام وهما لا يحسنان منه شيئًا، فإنهما يثيران من غريب الطيب ما يضحك كل ثكلان وإن تشدد، وكل غضبان وإن أحرقه لهيب الغضب... فإني رأيت الأسماع تملُّ الأصوات المطربة والأغاني الحسنة والأوتار الفصيحة، إذا طال ذلك عليها، وما ذلك إلا في طريق الراحة التي إذا طالت أورثت الغفلة».

فهو إذًا يتعمد رفع الملل عن قارئه وعدم إضجاره بالدوام على الجد، لأن (الأذن مجاجة وللنفس حضة) كما روى ابن قتيبة وزاد هذا بأن (المزاح إذا كان حقًّا

أو مقاربًا، ولأحايينه وأوقاته وأسباب أوجبته مشاكلًا، ليس من القبيح ولا المنكر، ولا من الكبائر ولا من الصغائر، ورغبات الناس متفاوتة)، وإنما الكتاب (مثل المائدة تختلف فيها مذاقات الطعوم لاختلاف شهوات الآكلين). ومعنى الأذن مجاجة وللنفس حمضة: أن الأذن لا تعي كل ما تسمعه وهي مع ذلك ذات شهوة لما تستطرفه من غرائب الحديث ونوادر الكلام. هكذا شرحها الجاحظ وقال: إنها كلمة للقدماء[1].

وقال: «وليس ينبغي لكتب الآداب والرياضات أن يُحمل أصحابها على الجد الصرف، وعلى العقل المحض، وعلى الحق المر، وعلى المعاني الصعبة التي تستكد النفوس، وتستفرغ المجهود، وللصبر غاية وللاحتمال نهاية، ولا بأس بأن يكون الكتاب موشحًا ببعض الهزل، على أن الكتاب إذا كثر هزله سخف، كما أنه إذا كثر جده ثقل، ولا بد للكتاب من أن يكون فيه بعض ما ينشط القارئ، وينفي النعاس عن المستمع».

أدرك الجاحظ بحكمته نفسية البشر، وما ينفعهم وما يضرهم، وما يخملهم وما يحمسهم، فقال: «وخير الناس السهل الطلق الوجه المتواضع، وفراسة الرجل السوء أن يكون منقبضًا غير منشرح، وأن يرى لونه إلى الصفرة والكمود من غير مرض، وأن يكون طائش القلب، وأن يكون للدعابة والمزاح كارهًا وله عائبًا، وأن تراه غليظ اللفظ عند المحاورة. ومن فراسة الرجل الصالح أن تراه سهلًا طلقا، ذا منظر بهي، وكلام شهي، سبط الجبين غير منقبض، ولا نزق غلق[2] قلق، وغير كاره للدعابة والمزاح، يذكر من يذكر بخير، لين المحاورة متواضعًا»، «ورجال الجد غير

(١) في اللسان: وفي حديث الحسن رضي الله عنه: الأذن مجاجة وللنفس حمضة، معناه: أن للنفس شهوة في استماع العلم، والأذن لا تعي ما تسمع ولكنها تلقيه نسيانًا، كما يمج الشيء من الفم.

(٢) الغلق: الضيق الخُلق السر الرضا، والغلق الكثير الغضب أيضا.

رجال الهزل، وقد يحسن الشيء بالشباب ويقبح مثله من الشيوخ، ولولا التحصيل والموازنة، والإبقاء على الأدب والديانة لشدة المحاسبة، لما قالوا: لكل مقام مقال، ولكل زمان رجال».

***

ربما لم ننس أن الجاحظ كان دميم الوجه، قبيح التقاطيع، مختل القسمات، وكان الأخفش أحد مشايخه -والأخفش: الصغير العينين مع سوء بصرهما- أجلع أيضًا - والأجلع: الذي لا تنضم شفتاه على أسنانه- ولا شك أن الشيخ وتلميذه كانا إذا اجتمعا، والجاحظ ناتئ العينين، تألفت منهما صورتان غريبتان. ولعل أبا عثمان لم يرض كما قالوا أن يفارق شيخه بعد أن أخذ ما عنده، وآثر أن يبقيا صديقين لبعض المشاكلة في الصورة والخَلق، ولعل الجاحظ ما تعفف كثيرًا عن العبث بأستاذه، وهو ابن النكتة الحارة لا الباردة، وعنده أن (النادرة الباردة جدًّا قد تكون أطيب من النادرة الحارة جدًّا، وإنما الكرب الذي يخيم على القلوب، ويأخذ بالأنفاس، النادرة الفاترة التي لا هي حارة ولا هي باردة، وكذلك الشعر الوسط والغناء الوسط، وإنما الشأن في الحارة جدًّا أو الباردة جدًّا). ولذا كان يحكي نوادر العوام بألفاظ العوام، حتى لا تفقد النكتة حليتها الأولى ومؤثراتها الخاصة. وقال عن نفسه: إنه وُصِفَ للخليفة المتوكل لتأديب أحد أولاده، فلما رأى صورته استبشعها فصرفه. وأنه اشترى له جارية تركية جميلة رجاء أن يرزق منها ولدًا يكون بحسنها وذكائه، فولدت له ولدًا جاء بقبحه وجهلها.

ومن نكاته قول: «ومن البخلاء المذكورين أبو الهُذيل، أهدى مرة إلى يونس بن عمران دجاجة، وكانت دون ما يُتخذ ليونس، إلا أنه لكرمه وحسن خلقه، أظهر التعجب من سمنها وطيب لحمها، فقال له: كيف رأيت يا أبا عمران تلك

الدجاجة؟ قال: كانت عجبًا من العجاب، قال: أوَتدري ما حسنها، وتدري ما سمنها؟ فإن الدجاجة إنما تطيب بالسمن والحسن، وتدري بأي شيء كنا نسمنها، وفي أي مكان كنا نعلفها؟ ولا يزال في هذا، ويونس يضحك ضحكًا نعرفه نحن، ولا يعرفها أبو الهذيل؛ وصار بعد ذلك إن ذكروا دجاجة قال: أين كانت يا أبا عمران من تلك الدجاجة، وإن ذكروا بطة أو عَناقًا[1] أو جزورًا أو بقرة قال: فأين كانت هذه الجزور في الجزر من تلك الدجاجة في الدجاج، وإن استسمنوا شيئًا من الطير أو البهائم أو الدجاج قال: لا والله، ولا تلك الدجاجة؛ وإن ذكروا عذوبة الشحم قال: عذوبة الشحم تُصاب في البقر والبط وبطون السمك والدجاج، ولا سيما ذلك الجنس من الدجاج، وإن ذكروا ميلاد شيء أو قدوم إنسان قال: كان ذلك قبل أن أهدي إليك تلك الدجاجة بشهر، وكان بعد أن أهديتها لك بسنة، وما كان بين فلان وبين البعث بتلك الدجاجة إلا يوم، وكانت مثلًا في كل شيء، وتاريخًا لكل شيء».

ويونس بن عمران من أرباب البيوتات في البصرة كان، وهو الذي رضخ للجاحظ بدنانير ابتاع بها ما يقتات به، وأخرج أبا عثمان من تهكم أمه به وبدفاتره لأول أمره، على ما مر بنا في الفصل الذي عقدناه لوصف نشأته ونعمته. وعلينا أن نتأمل في هذه القصة قوله: «ويونس يضحك ضحكًا نعرفه نحن ولا يعرفه أبو الهذيل».

فالجاحظ كما رأيت يسلي نفسه بهذه المداعبات، ويبسم ابتسام العظمة، وإذا تبرم بأبناء الزمان عدد مساوئ الدهر فقال جادًا يصف استحالة الزمان، وفساد الأيام، ودولة الأنذال: «وقدمًا كان يقال: من قدم الحياء على نفسه، وحكم الصدق في قوله،

(١) العناق كسحاب: الأنثى من المعز.

وآثر الحق في اموره، ونبذ المشتبهات عليه من شئونه؛ تمت له السلامة، وفاز بوفور حظ العافية وحمد مغبة مكروه العاقبة، فنظرنا إذ حال عندنا حكمه، وتحولت دولته، فوجدنا الحياء متصلًا بالحرمان، والصدق آفة على المال، والقصد في الطلب بترك استعمال القحة، وإخلاق العرض من طريق التوكل، دليلًا على سخافة الرأي».

وبعد أن قال فيمن وجد فيه الفسولة الواضحة، والمثالب الفاضحة، إنه: إن زلَّ قيل: حَكُم، وإن أخطأ قيل: أصاب، وإن هذى في كلامه وهو يقظان، قيل: رؤياء صادقة من نسمة[1] مباركة. قال: فهذا دليل أن الصلاح أجدى من الصلاح، وأن الفضل قد مضى زمانه، وعفت آثاره وصارت الدائرة عليه، كما كانت الدائرة على ضده. ووجدنا العقل يشقى به قرينه، كما أن الجهل والحمق يحظى به خدينه، ووجدنا الشعر ناطقًا على الزمان ومعربًا عن الأيام حيث يقول:

تحامق مع الحمقى إذا ما لقيتهم ... ولاقِهم بالجهل فعلَ أخي الجهل
وخلِّط إذا لاقيت يومًا مخلطًا ... يخلِّط في قول صحيح وفي هزل
فإني رأيت المرء يشقى بعقله ... كما كان قبل اليوم يسعد بالعقل

قال: «فوالله ما عُذِّبت أمّة برجفة ولا ريح ولا سخطة، عذاب عيني برؤية المغايظة المدمنة، والأخبار المهلكة، كأن الزمان توكل بعذابي، فما عيش من لا يسر بأخ شفيق، ولا يصطبح في أول نهاره إلا برؤية من تكره رؤيته، ونغمة من تغمه طلعته».

وهذه هي الناحية العابسة من نفس الجاحظ المرحة، رأيته هنا يذكر ما يحيط به من المكدرات والمضنيات حتى ليسيء ظنه بالصلاح، ويفضل عليه الطلاح، شأن المتشائمين والسوداويين.

---

(١) في رواية: في سنة.

ورأيناه في مكان آخر يمتدح من عصره فقال: «وينبغي أن يكون سبيلنا لمن بعدنا كسبيل من كان قبلنا فينا، على أنَّا قد وجدنا من العبرة أكثر مما وجدوا، كما أن من بعدنا يجد من العبر أكثر مما وجدنا، فما ينتظر العالم بإظهار ما عنده، وما يمنع المناصر للحق من القيام بما يلزمه، وقد أمكن القول، وصلح الدهر، وخوى نجم التقيد، وهبت ريح العلماء، وكسد العي والجهل، وقامت سوق البيان والعلم».

ونفس عُمِّرَت كثيرًا، واختلفت عليها الأحوال قبضًا وبسطًا، وخفضًا ورفعًا، من مثل نفس الجاحظ لا تكون على حالة واحدة من الاسترسال والانقباض طول العمر: رأى من الخلفاء أشكالًا، ومن الأمراء والوزراء والعلماء طبقات بعد طبقات، ومن الناس من لا يحصيهم غير خالقهم، ومن ضروب الأخلاق ما لا تتسع لذكره الأوراق، وليس من شأن الدهر أن يثبت على حالة بعينها حتى يفسح للجاحظ أن يعيش قرنًا على وتيرة واحدة؛ وهو القائل: لما مسخ الإنسان قردًا أنزل فيه مَشابِه من الإنسان، ولما مسخ زماننا لم ينزل فيه مشابه من الأزمان، وأنشد:

وكان لنا أصدقاء مضوا ... تفانوا جميعًا وما خلدوا
تساقوا جميعًا كئوس المنو ... ن فمات الصديق ومات العدو

ولقد غلبت الدعابة على الجاحظ وتجلّت خفة روحه وتهكمه حتى في بعض ما يكتب من أمور الجد، وقد يفهم تهكمه من أسلوب الأداء في عبارته، أليس في قوله لما تكلم على الخنزير: «لو أن الكفر والإفلاس والغدر والكذب تجسدت ثم تصورت لما زادت على قبح الخنزير، وكان ذلك بعض الأسباب التي مسخ بها الإنسان خنزيرًا، فإن القرد قبيح الوجه قبيح في كل شيء، وكفاك به جري المثل المضروب به، ولكنه من وجه آخر مليح، فملحه يعرض على قبحه فيمازجه ويصلح منه، والخنزير أقبح

منه إلا أن قبحه مُصْمَت[1] بهيم فصار أسمج منه كثيرًا». أليس في قوله هذا شيء من التهكم وأسلوب من أساليب الهزل في الجد؟

وقال في وصف الإنسان وما أخذه من طبائع الحيوان: «أوَما علمت أن الإنسان الذي خُلق له ما في السموات والأرض وما بينهما كما قال تعالى: {وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعا} -إنما سموه العالم الصغير سليل العالم الكبير حين وجدوا فيه من جميع أشكال ما في العالم الكبير، ووجدوا له الحواس الخمس، ووجدوه يأكل اللحم والحب، ويجمع بين ما يقتاته السبع والبهيمة، ووجدوا له صولة الجمل، ووثوب الأسد، وغدر الذئب، وروغان الثعلب، وجبن الصفْرِد، وجمع الذَّرَّة، وصنعة الزَّرافة، وجود الديك، وإلف الكلب، واهتداء الحمام، وربما وجدوا فيه من كل نوع من البهائم والسباع خلتين أو ثلاثًا، ولا يبلغ أن يكون جملًا بأن يكون فيه اهتداؤه وغيرته وصَوْله وحقده، وصبره على حمل الثقل. ولا يلزم شبه الذئب بقدر ما يتهيأ فيه من مثل مكره وغدره واسترواحه، وتوحشه وشدة قلبه، كما أن الرجل يصيب الرأي الغامض المرة والمرتين والثلاث، ولا يبلغ بذلك المقدار أن يقال له: داهية وذو مكر وصاحب خدعة، كما يخطئ الرجل فيفحش خطؤه في المرة والمرتين والثلاث، ولا يبلغ الأمر به أن يقال له: غبي وأبله ومنقوص» وعلى ما في هذا الكلام من بحث نفسي لا نخليه من معاني التهكم والهزل، وعنده (أن الكلام قد يكون في لفظ الجد ومعناه معنى الهزل، كما يكون في لفظ الهزل ومعناه معنى الجد).

ومن نوادره أنه سُمع يقول: رأيت جارية في سوق النخاسين ببغداد يُنادى عليها، فدنوت منها وجعلت أُقَلّبها، فقلت لها: ما اسمك؟ قالت: مكة. قلت: الله

(١) المصمت: الذي لا جوف له.

أكبر قد قرب الحج، أتأذنين أن أقبل الحجر الأسود. قالت: إليك عني، ألم تسمع الله يقول: {لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس}؟

ومنها: سمع أبو بكر محمد بن إسحاق يقول: قال لي إبراهيم بن محمود ونحن ببغداد: ألا ندخل على عمرو بن بحر الجاحظ؟ فقلت: ما لي وله؟ قال: إذا انصرفت إلى خراسان سألوك عنه، فلو دخلت عليه وسمعت كلامه. ثم لم يزل بي حتى دخلت عليه يومًا، فقدم إلينا طبقًا عليه رُطب، فتناولت منه ثلاث رطبات وأمسكت، ومر فيه إبراهيم، فأشرت إليه أن يمسك، فرمقني الجاحظ، فقال لي: دعه يا فتى، فقد كان عندي في هذه الأيام بعض إخواني، فقدمت إليه الرطب فامتنع فحلفت عليه، فأبى إلا أن يَبَرَّ قسمي بثلاثمائة رطبة.

وحدَّث الجاحظ قال: وقفت أنا وأبو حرب على قاص، فأردت الولع به. فقلت لمن حوله: إنه رجل صالح، لا يحب الشهرة تفرقوا عنه، فتفرقوا؛ فقال لي: حسيبك الله! إذا لم ير الصياد طيرًا كيف يمد شبكته؟

ومنها: حكى بعض أبناء البرامكة قال: تقلدت السند وحصل لي ما شاء الله ثم صُرفت عنها، وكنت قد اكتسبت بها ثلاثين ألف دينار فصغتها عشرة آلاف إهليلجة[1]، وجاء الصارف فركبت البحر وانحدرت إلى البصرة، فخُبِّرت أن الجاحظ بها، وأنه عليل بالفالج، وأحببت أن أراه قبل وفاته، فصرت إليه وقرعت الباب، فخرجت إليَّ خادمة صغرى فقلت: رجل غريب أحب أن أنظر إلى الشيخ. فبلغته، فسمعته يقول: قولي له: ما تصنع بشق مائل ولعاب سائل، ولون حائل؟ فقلت للجارية: لا بد من النظر إليه. فقال: هذا رجل ورد البصرة، وسمع بي ويريد أن يقول رأيت الجاحظ، فأذن لي فدخلت وسلمت، فرد ردًّا جميلًا وقال: من تكون

(١) الاهليلج وقد تكسر اللام الثانية والواحدة بهاء: ثمر منه أصفر ومنه أسود.

أعزك الله؟ فانتسبت له، فقال: رحم الله أسلافك وآباءك السمحاء، فلقد كانت أيامهم رياض الأزمنة، ولقد رأى بهم الخلق خيرًا كثيرًا، فسقيًا لهم ورعيًا. فدعوت له وقلت له: أنشدني شيئًا، فقال:

لئن قدَّمت قبلي رجال فطالما ... مشيت على رسلي فكنت المقدما
ولكن هذا الدهر تأتي صروفه ... فتُبرمُ منقوضًا وتنقض مبرمًا

ثم نهضت، فلما قربت من الباب قال: يا فتى أرأيت مفلوجًا ينفعه الإهليلج؟ قلت: لا. قال: الإهليلج الذي معك ينفعني فابعث إليّ منه. فقلت: منه، وعجبت من وقوعه على خبري مع كتمي له، وبعثت له منه شيئًا.

قال الحصري: وهذا يدل على كثرة بحثه وتنقيره، إذ كان وهو في هذه السن العالية، والفالج الشديد، تنشر عند الأخبار، ولا تطوى عنه الأسرار، فكيف كان قبل هذا؟ ومن إحدى عجائبه أنه ألف كتاب الحيوان وهو على تلك الحال.

قال أبو عثمان: ما أخجلني أحد مثل امرأتين إحداهما في العسكر، وكانت طويلة القامة، وكنت على طعام فأردت أن أمازحها، فقلت: انزلي كُلي معنا، فقالت: اصعد أنت حتى ترى الدنيا، وأما الأخرى فإنها أتتني وأنا على باب داري فقالت: لي إليك حاجة وأريد أن تمشي معي، فقمت معها إلى أن أتت بي إلى صائغ يهودي فقالت له: مثل هذا، وانصرفت. فسألت الصائغ عن قولها فقال: إنها أتت إليَّ بفص وأمرتني أن أنقش لها عليه صورة شيطان. فقلت: يا ستي ما رأيت الشيطان، فأتت بك وقالت ما سمعت.

لما جيء به مقيدًا من البصرة إلى بغداد عقبى مقتل صديقه محمد بن عبد الملك الزيات، أمر أحمد بن أبي داود أن يفك قيده، فجيء بالحداد، فقال الجاحظ: لتفكوا عني أو لتزيدوني؟ فقيل له: بل ليفك عنك، فغمز بعض أهل المجلس الحداد أن

يعنف بساق الجاحظ، ويطيل أمره قليلًا، ففعل، فلطمه الجاحظ وقال له: اعمل عمل سنة في يوم، وعمل يوم في ساعة، وعمل ساعة في لحظة، فإن الضرر على ساقي، وليس بجذع ولا ساجة. فضحك ابن أبي داود وأهل المجلس منه.

صنف كتابًا من كتبه وبوَّبه وبثه في الناس، فأخذه بعض أهل عصره فحذف منه أشياء وجعله أشلاء، فأحضره وقال له: يا هذا إن المصنف كالمصور، وإني قد صورت في تصنيفي صورة كانت لها عينان فعورتهما، أعمى الله عينيك، وكان لها أذنان فصلمتهما، صلم الله أذنيك، وكان لها يدان فقطعتهما، قطع الله يديك. حتى عد أعضاء الصورة.

وسأله شخص كتابًا إلى بعض أصحابه بالوصية فكتب له رقعة وختمها، فلما خرج الرجل من عنده فضها فإذا فيها: «كتابي إليك مع من لا أعرف ولا أوجب حقه، فإن قضيت حقه لم أحمدك، وإن رددته لم أذمك». فرجع إليه الرجل، فقال الجاحظ: كأنك فضضت الورقة؟ قال: نعم. قال: لا يضرك ما فيها فإنه علامة لي إذا أردت العناية بشخص. فقال الرجل: قطع الله يديك ورجليك ولعنك. فقال: ما هذا؟ قال: علامة لي إذا أردت أن أشكر شخصًا.

وأتى أبو العيناء الجاحظ يسأله في رجل أن يكتب له كتاب عناية إلى صاحب البصرة، فقال: نعم، لا تنصرف إلا به، وكتب له الجاحظ الكتاب وختمه، ودفعه إليه، فأتى إلى أبي العيناء بالكتاب فقال: افضضه واقرأه عليَّ لأرى ما كتب وأُعيده إليه ليختمه، ففتحه فإذا فيه: «كتابي إليك سألني فيه من أخافه لمن لا أعرفه، فافعل في أمره ما تراه والسلام». فغضب ونهض إلى الجاحظ فقال: أُعرفك باعتنائي بهذا الرجل فتكتب له مثل هذا. فقال: لا تنكر ذلك فإنها أمارة ما بيني وبينه، إذا عُنيت

برجل. فقال: بل أنت ولد زنا لم تكن قط لرشدة. قال: أتشتمني؟ قال: لأنها أمارة لي عند الثناء على إنسان.

وحكي أن أبا طاهر قال: سرت إلى الجاحظ ومعي جماعة، وقد أسنَّ واعتلَّ في آخر عمره وهو في منظرة له وعنده ابن خاقان جاره، فقرعنا الباب فلم يفتح لنا، وأشرف من المنظرة فقال: ألا إني قد حوقلت وحملت رميح أبي سعد وسقت الغنم[1]، فما تصنعون بي؟ سلموا سلام الوداع. فسلمنا وانصرفنا.

دخل أحدهم عليه فسأله عن حاله، فقال له: سألتني عن الجملة فاسمعها مني واحدًا واحدًا: حالي أن الوزير يتكلم برأيي، وينفذ أمري، ويواتر الخليفة الصلات إليَّ، وآكل من لحم الطير أسمنها، وألبس من الثياب ألينها، وأجلس على اللين الطري، وأتكئ على هذا الريش، ثم أصبر على هذا حتى يأتي الله بالفرج. فقال له الرجل: الفرج ما أنت فيه. قال: بل أحب أن تكون الخلافة لي، ويعمل محمد بن عبد الملك بأمري، ويختلف إليَّ، فهذا هو الفرج.

وحكي أنه ألَّف كتابًا في نوادر المعلمين وما هم عليه من التغفل، ثم رجع عن ذلك وعزم على تقطيع ذلك الكتاب، قال: دخلت يوماً مدينة فوجدت فيها معلمًا في هيئة حسنة، فسلمت عليه فرد عليَّ أحسن رد، ورحب بي فجلست عنده، وباحثته في القرآن فإذا هو ماهر فيه، ثم فاتحته في الفقه والنحو وعلم المعقول وأشعار العرب؛ فإذا هو كامل الآداب. فقلت: هذا والله مما يقوي عزمي على تقطيع الكتاب. قال: فكنت أختلف إليه وأزوره، فجئت يومًا لزيارته، فإذا بالكتَّاب مغلق، ولم أجده،

---

(١) قوله: حوقلت: أكثرت من قولي لا حول ولا قوة إلا بالله لتتابع الأمراض، وقوله: رميح أبي سعد: هو رجل من العرب أسن فاستعان بالعصا، وهو أول من فعل ذلك فقيل لكل من شاخ: أخذ رميح أبي سعد، وقوله: سقت الغنم: هو عند العرب كناية عن الهرم، لأن سائق الغنم يطامن رأسه.

فسألت عنه فقيل: مات له ميت فحزن عليه وجلس في بيته للعزاء، فذهبت إلى بيته وطرقت الباب، فخرجت إليَّ جارية وقالت: ما تريد؟ قلت: سيِّدك، فدخلت وخرجت وقالت: باسم الله. فدخلت إليه وإذا به جالس فقلت: عظَّم الله أجرك، لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة، كل نفس ذائقة الموت، فعليك بالصبر. ثم قلت له: هذا الذي توفي ولدك؟ قال: لا. قلت فوالدك؟ قال: لا. قلت: فأخوك؟ قال: لا. قلت: فزوجتك؟ قال: لا. فقلت: وما هو منك؟ قال: حبيبتي. فقلت في نفسي: هذه أول المناحس. فقلت: سبحان الله النساء كثير وستجد غيرها. فقال: أتظن أني رأيتها؟ قلت: وهذه منحسة ثانية. ثم قلت: وكيف عشقت من لم ترَ؟ فقال: اعلم أني كنت جالسًا في هذا المكان وأنا أنظر من الطابق، إذ رأيت رجلًا عليه بُرد وهو يقول:

يـــا أُمَّ عمـــرو جـــزاك الله مغفـــرة رُدِّي عـــليَّ فـــؤادي كالـــذي كانـــا
ألست أحـسن مـن يمـشي عـلى قـدم يـا أملـح النـاس كـل النـاس إنـسانا

فقلت في نفسي: لولا أن أم عمرو هذه ما في الدنيا أحسن منها ما قيل فيها هذا الشعر فعشقتها، فلما كان منذ يومين مر ذلك الرجل بعينه وهو يقول:

إذا ذهـــب الحـــمار بـــأم عمـــرو فـــلا رجعـــت ولا رجـــع الحـــمار

فعلمت أنها ماتت فحزنت عليها، وأغلقت المكتب وجلست في الدار. فقلت: يا هذا إني كنت ألفت كتابًا في نوادركم معشر المعلمين، وكنت حين صاحبتك عزمت على تقطيعه، والآن قد قويتَ عزمي على إبقائه، وأول ما أبدأ أبدأ بك إن شاء الله تعالى.

وكان الجهاز البصري شاعرًا ماجنًا خبيث اللسان، وكان له مع الجاحظ ملاحاة ومهاجاة قد يكون فيها إقذاع وإفحاش. وكان الجاحظ يعبث أيضًا بأبي هِفّان الشاعر

وغيرهما من الشعراء والكُتّاب والمؤلفين والقصاصين وكل ذلك من غير تبذُّل وإسفاف. وكان يقول: إن تهيأ لك في الشاعر أن تَبرَّه وترضيه، وإلا فاقتله.

ومعاني الجاحظ في هذا الباب مذكورة في كلام له، قال: «ولم تر العيون، ولا سمعت الآذان، ولا توهمت العقول عملًا اجتباه ذو عقل، أو اختاره ذوعلم بأوبأ ولا أفسد لعرض، ولا أوجب لسخط الله، ولا أدعى إلى مقت الناس، ولا أبعد من الفلاح، ولا أظهر نفورًا عن التوبة، ولا أقل إدراكًا عند الحقيقة، ولا أنقص للطبيعة، ولا أمنع من العلم ولا أشد خلافًا على الحلم، من التكبر في غير موضعه، والتنبل في غير كنهه. وما ظنك بشيء العجب شقيقه، والبذخ صديقه، والتنفج أليفه، والصلف قعيده، والبذَّاخ متزيد، والنفاج كَذَّاب، والمتكبر ظالم، والمعجب صغير النفس؛ وإذا اجتمعت هذه الخلال، وانتظمت هذه الخصال في قلب طال خرابه، واستغلق بابه، وشر العيوب ما كان مضمنًا بعيوب، وشر الذنوب ما كان علة الذنوب».

نماذج من رقاعه وكلماته:

١- كتب إلى ابن أبي داود يستعطفه: «ليس عندي -أعزك الله- سبب، ولا أقدر على شفيع، إلّا ما طبعك الله عليه من الكرم والرحمة والتأمل الذي لا يكون إلا من نتاج حسن الظن، وإثبات الفضل بحال المأمول، وأرجو أن أكون من العتقاء الشاكرين فتكون خير معتب، وأكون أفضل شاكر، ولعل الله يجعل أن هذا الأمر سببًا لهذا الإنعام، وهذا الإنعام سبيلًا للانقطاع إليكم والكون تحت أجنحتكم، فيكون لا أعظم بركة، ولا أنمى بقية، من ذنب أصبحت فيه، وبمثلك، جعلت فداك، عاد الذنب وسيلة والسيئة حسنة، ومثلك من انقلب به الشر خيرًا والغُرم غُنمًا، ومن عاقب أخذ حظه، وإنما الأجر في الآخرة، وطيب الذكر في الدنيا على قدر الاحتمال وتجرع المرائر، وأرجو ألا أَضيعَ وأَهْلِكَ فيما بين عقلك وكرمك؛ وما أكثر

من يعفو عمن صغر ذنبه، وعظم حقه، وإنما الفضل والثناء، العفو عن عظيم الجرم، ضعيف الحرمة، وإن كان العفو العظيم مستطرفًا من غيركم، فهو تلاد فيكم، حتى ربما دعا ذلك كثيرًا من الناس إلى مخالف أمركم، فلا أنتم عن ذلك تنكلون، ولا على سالف إحسانكم تندمون، وما مثلكم إلا كمثل عيسى ابن مريم، حين كان لا يمر بملأ من بني إسرائيل إلا أسمعوه شرًّا وأسمعهم خيرًا، فقال له شمعون الصفا: ما رأيت كاليوم كلما أسمعوك شرًّا أسمعتهم خيرًا، فقال: كل امرئ ينفق مما عنده، وليس عندكم إلا الخير، ولا في أوعيتكم إلا الرحمة، وكل إناء بالذي فيه ينضح».

٢- وكتب إلى محمد بن عبد الملك: «أعاذك الله من سوء الغضب، وعصمك من سرف الهوى، وصرف ما أعارك من القوة إلى حب الإنصاف، ورجح في قلبك إيثار الإناة، فقد خفت -أيدك الله- أن أكون عندك من المنسوبين إلى نزق السفهاء، ومجانبة سبل الحكماء؛ وبعد فقد قال عبد الرحمن بن حسان بن ثابت:

وإن امرأً أمسى وأصبح سالمًا ... من الناس إلا ما جنى لسعيد

وقال الآخر:

ومن دعا الناس إلى ذمه ... ذموه بالحق وبالباطل

فإن كنت اجترأت عليكَ -أصلحك الله- فلم أجترئ إلا لأن دوام تغافلك عني شبيه بالإهمال الذي يورث الإغفال والعفو المتتابع يؤمن من المكافأة، ولذلك قال عيينة بن حصن بن حذيفة لعثمان رحمه الله: عُمَرُ كان خيرًا لي منك، رهبني فاتقاني، وأعطاني فأغناني. فإن كنت لا تهب عقابي -أيدك الله- لخدمة فهبه لأياديك عندي، فإن النعمة تشفع في النقمة، وإلا تفعل ذلك لذلك فعد إلى حسن العادة، وإلا فافعل ذلك لحسن الأحدوثة، وإلا فأت ما أنت أهله من العفو دون ما أنا أهله من استحقاق العقوبة، فسبحان من جعلك تعفو عن المتعمد، وتتجافى عن عقاب

المصرّ، حتى إذا صرت إلى من هفوته ذكر، وذنبه نسيان، ومن لا يعرف الشكر إلا لك والإنعام إلا منك، هجمت عليه بالعقوبة. واعلم -أيدك الله- أن شين غضبك عليَّ كزين صفحك عني، وأن موت ذكري مع انقطاع سببي منك، كحياة ذكرك مع اتصال سببي بك، واعلم أن لك فطنة عليم، وغفلة كريم، والسلام».

٣- وكتب إلى أبي حاتم السجستاني وبلغه عنه أنه نال منه: «أما بعد؛ فلو كففت عنا من غَربك، لكنا أهلًا لذلك منك»؛ فلم يعد أبو حاتم إلى ذكره بقبيح.

٤- وله فصل في استنجاز وعد: «أما بعد؛ فقد رسفنا في قيود مواعيدك، وطال مقامنا في سجون مطلك، فأطلقنا -أبقاك الله- من ضيقها وشديد غمها، بنَعَم منك مثمرة أو مريحة، أما بعد؛ فإن شجر مواعيدك قد أورقت، فليكن ثمرها سالمًا من جوائح المطل، أما بعد؛ فإن سحاب وعدك قد برقت، فليكن وبلُها سالمًا من صواعق المطل والاعتدال».

٥- وله فصل في عتاب: «أما بعد؛ فإن المكافأة بالإحسان فريضة، والتفضل على ذوي الإحسان نافلة، أما بعد؛ فلها (؟) السكوت على لسانك، إن كانت العافية من شانك، أما بعد؛ فلا تزهد فيما رغب إليك، فتكون لحظك معاندًا، وللنعمة جاحدًا، أما بعد؛ فإن العقل والهوى ضدان، فقرين العقل التوفيق، وقرين الهوى الخذلان، والنفس طالبة فبأيهما ظفرت كنت في حزبه. أما بعد؛ فإن الأشخاص كالأشجار، والحركات كالأغصان، والألفاظ كالثمار. أما بعد؛ فإن القلوب أوعية، والعقول معادن، فما في الوعاء ينفد، إذا لم يمده المعدن. أما بعد؛ فكفى بالتجارب تأديبًا، وبتقلب الأيام عظة، وبأخلاق من عاشرت معرفة، وبذكرك الموت زاجرًا. أما بعد؛ فإن احتمال الصبر على لذع الغضب، أهون من إطفائه بالشتم والقذع. أما بعد؛ فإن أهل النظر في العواقب، أولو الاستعداد للنوائب، وما عظمت نعمة امرئ

إلا استغرقت الدنيا همته، ومن فرّغ لطلب الآخرة شغله، جعل الأيام مطايا عمله، والآخرة مقيل مرتحله. أما بعد؛ فإن الاهتمام بالدنيا غير زائد في الرزق والأجل، والاستغناء غير ناقص للمقادير. أما بعد؛ فإنه ليس كل من علم أمسك، وقد يستجهل الحليم حين يستحق الهجران. أما بعد؛ فإن أحببت أن تتم لك المِقَة[1] في قلوب إخوانك فاستقلَّ كثيرًا مما توليهم. أما بعد؛ فإن أنظر الناس في العاقبة من لطف حين كف حرب عدوه بالصفح والتجاوز، واستل حقده بالرفق والتحبب».

٦- وكتب إلى ابن الزيات: «نحن -أعزك الله- نسحر بالبيان، ونموّه بالقول، والناس ينظرون إلى الحال، ويقضون بالعيان، فأثر في أمرنا أثرًا ينطق إذا سكتنا، فإن المدعي بغير بينة متعرض للتكذيب».

٧- وله في وَصاة: «أما بعد؛ فإن أحق من أسعفته في حاجته، وأجبته إلى طلبه، من توسل إلك بالأمل، ونزع نحوك بالرجاء. أما بعد؛ فما أقبح الأخدوثة، من مستمنح حَرَمْته، وطالب حاجة رددته، ومثابر حجبته، ومنبسط إليك قبضته، ومقبل إليك بعنانه لويت عنه، فتثبت في ذلك ولا تطع كل حلَّاف مهين همّاز مشاء[2] بنميم. أما بعد؛ فإن فلانًا أسبابه متصلة بنا يلزمنا ذمامه، وبلوغ مؤافقته من أياديك عندنا، وأنت لنا موضع الثقة من مكافأته، فأوْلنا فيه ما نعرف موقعنا من حسن رأيك، وتكون مكافأة لحقه علينا. أما بعد؛ فقد أتانا كتاب في فلان، وله لدينا من الذمام ما يلزمنا مكافأته، ورعاية حقه، ونحن من المعتبة بأمره، على ما كان في حرمته، ونؤدي شكره».

---

(١) المقة: الحب.

(٢) المهين: الضعيف الحقير. والهماز والهمزة: الذي يخلف الناس من ورائهم ويأكل لحومهم؛ أي الذي يهمز أخاه في قفاه ومن خلفه، والمشاء: الذي يمشي بين الناس بالنميمة.

٨- وله في الاعتذار: «أما بعد؛ فنعم البديل من الزلة الاعتذار، وبئس العوض من التوبة الإصرار. أما بعد؛ فإن أحق ما عطفت عليك بحلمك، من لم يتشفع إليك بغيرك. أما بعد؛ فإنه لا عوض في إخائك، ولا خلف من حسن رأيك، وقد انتقمت مني في زلتي بجفائك، فأطلق أسير تشوقي إلى لقائك. أما بعد؛ فإنني بمعرفتي ببلوغ حلمك، وغاية عفوك، ضمنت لنفسي العفو من زلتها عندك. أما بعد؛ فإن من جحد إحسانك بسوء مقالته فيك، مكذب نفسه بما يبدو للناس منه. أما بعد؛ فقد مسني من الألم ما لم يشفه غير مواصلتك، مع حبسك الاعتذار من هفوتك، ولكن ذنبك تغفره مودتك، فامنن علينا بصلتك، تكن بدلًا من مساءتك، وعوضًا من هفوتك. أما بعد؛ فلا خير فيمن استغرقت موجدته عليك قدرك عنده، ولم يتسع لهنات الإخوان. أما بعد؛ فإن أولى الناس عندي بالصفح من أسلمه إلى مِلكك التماس رضاك، من غير قدرة منك عليه. أما بعد؛ فإن كنت ذممتني على الإساءة فلِمَ رضيت لنفسك المكافأة؟».

وتكرير (أما بعد) والعادة ذكرها مرة في أول الخطبة، ومعناها (بعد دعائي لك) من أجمل مكرراته؛ وكأن الجاحظ بخروجه على مألوف الكتاب في مثل هذا التكرار يبتدع أسلوبًا، أو أن ذلك من جملة مبتدعاته في الكتابة. يقول الثعالبي: إن من أبلغ الأدعية وأوجزها قول أبي عثمان الجاحظ لمخدومه: «أدام الله لك السرور».

٩- وله في التعازي: «أما بعد؛ فإن الماضي قبلك الباقي لك، والباقي بعدك المأجور فيك، يُوَفَّى الصابرون أجرهم بغير حساب. أما بعد؛ فإن في الله العزاء عن كل هالك، والخلف من كل مصاب، وأنه من لم يتعز بعزاء الله تنقطع نفسه عن الدنيا حسرة. أما بعد؛ فإن الصبر يعقبه الأجر، والجزع يعقبه الهلع، فتمسك بحظك من

الصبر، تنل به الذي تطلب، وتدرك به الذي تأمل. أما بعد؛ فقد كفى بكتاب الله واعظًا، ولذوي الألباب زاجرًا، فعليك بالتلاوة تنج مما أوعد الله أهل المعصية».

١٠- ومن كلامه: «زينك الله بالتقوى، وكفاك ما أهمك من الآخرة والأولى. من عاقب -أبقاك الله- على الصغيرة عقوبة الكبيرة، وعلى الهفوة عقوبة الإصرار، فقد تناهى في الظلم، ومن لم يفرق بين الأسافل والأعالي، والأداني والأقاصي، فقد قصر والله. لقد كنت أكره سرف الرضا، مخالفة أن يؤدي إلى سرف الهوى، فما ظنك بسرف الغيظ، وغلبة الغضب، من طياش عجول فحاش، ومعه من الخُرق بقدر قسطه من التهاب المِرَّة الحمراء، وأنت روح كما أنت جسم، وكذلك جنسك ونوعك، إلا أن التأثر في الرقاق أسرع، وضده في الغلاظ الجفاة أكمل، ولذلك اشتد جزعي عليك من سلطان الغيظ وغلبته، فإذا أردت أن تعرف مقدار الذنب إليك من مقدار عقابك عليه، فانظر في علته، وفي سبب إخراجه إلى معدنه الذي منه نجم، وعشه الذي منه درج، وإلى جهة صاحبه في التسرع والثبات، وإلى حلمه عند التعريض، وفطنته عند التوبة، فكل ذلك ذنب كان سببه ضيق صدر من جهة الفيض في المقادير، أو من طريق الأنفة، وغلبة طباع الحمية من جهة الجفوة، أو من جهة استحقاقه فيما زين له عمله أنه مقصر به في حقه، مؤخر عن رتبته، أو كان مبلغًا عنه مكذوبًا عليه، أو كان ذلك جائزًا فيه غير ممتنع منه، فإذا كانت ذنوبه من هذا الشكل، فليس يقف عليها كريم، ولا ينظر فيها حليم، ولست أُسميه بكثرة معروفه كريمًا، حتى يكون عقله غامرًا لعلمه، وعلمه غالبًا على طباعه، كما لا أسميه بكف العقاب حكيمًا، حتى يكون عارفًا بمقدار ما أخذ وترك، ومتى وجدت الذنب بعد ذلك لا سبب له إلا البغض المحض، والنفار الغالب، فلو لم ترض لصاحبه بعقاب دون قعر جهنم لعذرك كثير من العقلاء، وصوَّب رأيك عالم الأشراف. والأناة أقرب من الحمد، وأبعد من الذم وأنأى من خوف العجلة، وقد قال الأول: عليك بالأناة،

فإنك على إيقاع ما تتوقعه أقدر منك على رد ما قد أوقعته. وليس يصارع الغضب أيام شبابه شيء إلا صرعه، ولا ينازعه قبل انتهائه إلا قهره، وإنما يحتال له قبل هيجه، فمتى تمكن واستفحل، وأذكى ناره وأشعل، ثم لاقى من صاحبه قدرة، ومن أعوانه سمعًا وطاعة، فلو استنبطته بالتوراة، وأوجرته بالإنجيل، ولددته[1] بالزبور، وأفرغت على رأسه القرآن إفراغًا، وأتيته بآدم شفيعًا، لما قصر دون أقصى قوته. ولن يسكن غضب العبد، إلا ذكره غضب الرب، فلا تقف -حفظك الله- بعد مضيك في عتابي التماسًا للعفو عني، ولا تقصر عن إفراطك من طريق الرحمة بي، ولكن قف وقفة من يتهم الغضب على عقله، والشيطان على دينه، ويعلم أن للكرم أعداء، ويمسك إمساك من لا يبرئ نفسه من الهوى، ولا يبرئ الهوى من الخطأ، ولا تفكر لنفسك أن تزل، ولعقلك أن يهفو، فقد زل آدم عليه السلام وقد خلقه بيده. ولست أسألك إلا ريثما تسكن نفسك، ويرتد إليك ذهنك، وترى الحلم وما يجلب من السلامة وطيب الأحدوثة، والله يعلم وكفى به عليمًا. لقد أردت أن أفديك بنفسي في مكاتباتي، وكنت عند نفسي في عداد الموتى وفي حيز الهلكى، فرأيت من الخيانة لك، ومن اللؤم في معاملتك، أن أفديك بنفس ميتة، وأن أريك أني قد جعلت لك أنفس ذخر والذخر معدوم. وأنا أقول كما قال أخو ثقيف: مودة الأخ التالد، وإن أخلق، خير من مودة الأخ الطارف وإن ظهرت مساعيه وراقت جدته. سلمك الله وسلم عليك، وكان لك ومعك».

١١- ومما كتب إلى ابن الزيات من كتاب: «لا والله ما عالج الناس داءً قط أدوى من الغيظ، ولا رأيت شيئًا هو أنفذ من شماتة الأعداء، ولا أعلم بابًا أجمع لخصال المكروه من الذل، ولكن المظلوم ما دام يجد من يرجوه، والمبتلَى ما دام يجد من يرثي له، فهو على سبب درك، وإن تطاولت به الأيام. فكم من كربة فادحة،

(١) استبطن أمره: وقف على دِخلته. وجرته أجره وجرّا: أسمعته ما يكره، ولدَّه: خَصَمه فهو لاد ولدود.

وضيقة مصمتة قد فتحت أقفالها، وفككت أغلالها، ومهما قصرت فيه فلم أقصر فى المعرفة بفضلك، وفى حسن النية بينى وبينك، لا مشتت الهوى، ولا مقسم الأمل على تقصير قد احتملته، وتفريط قد اغتفرته، ولعل ذلك أن يكون من ديون الإدلال وجرائم الإغفال، ومهما كان من ذلك فلن أجمع بين الإساءة والإنكار، وإن كنت كما تصف من التقصير، وكما تعرف من التفريط، فإني من شاكري أهل هذا الزمان، وحَسَن الحال متوسط المذهب، وأنا أحمد الله على أن كانت مرتبتك من المنعمين، فوق مرتبتى فى الشاكرين. وقد كانت عليَّ بك نعمة أذاقتني طعم العز، وعودتني رَوْح الكفاية».

***

قال المبرد: سمعت الجاحظ يقول: احذر من تأمن فإنك ممن تخاف. وقال أيضًا: سمعت الجاحظ يقول لرجل آذاه: أنت والله أحوج إلى هوان من كريم إلى إكرام، ومن علم إلى عمل، ومن قدرة إلى عفو، ومن نعمة إلى شكر.

ومما قال للسدري مرة: إذا كانت المرأة عاقلة ظريفة كاملة كانت قحبة. فقال السدرى: وكيف؟ قال: لأنها تأخذ الدراهم وتمتع بالناس والطيب، وتختار على عينها من تريد، والتوبة معروضة لها متى شاءت. فقال له السدري: فكيف عقل العجوز؟ قال: هي أحمق الناس وأقلهم عقلًا. وقال: مواعيد القيان الآل فى الفيافي والهشيم تذوره الرياح السوافي.

ومن كلماته: يجب للرجل أن يكون سخيًّا لا يبلغ التبذير، شجاعًا لا يبلغ الهوج، محترسًا لا يبلغ الجبن، ماضيًا لا يبلغ القحة، قوّالًا لا يبلغ الهذر، صموتًا لا يبلغ العي، حليمًا لا يبلغ الذل، منتصرًا لا يبلغ الظلم، وقورًا لا يبلغ البلادة، نافذًا

لا يبلغ الطيش. وقال: لو لم يصف الطبيب مصالح دوائه للمتعالجين له لما كان له طالب ولا فيه راغب.

ومن كلماته في الطِّيب: فأما الطيب فإني لم أشمم رائحة قط أحيا للنفس ولا أعصم للروح، ولا أفتق ولا أغنج ولا أطيب خمرة من ريح عروس، إذا أُحكمت تلك الأخلاط، وكان عرف رأسها وبدنها سليمًا، وإن كانت بمدينة الرسول، فإنك ستجد ريحًا تعلم أنه ليس فوقها إلا ريح الجنة. وقال: العشق اسم لما فضل عن المحبة، كما أن السرف اسم لما جاوز الجود، والبخل اسم لما جاوز حدَّ الاقتصاد.

ومن جميل جله: وأسباب عداوات الناس ضروب؛ منها المشاكلة في الصناعة، ومنها التقارب في الجوار، ومنها التقارب في النسب، والكثرة من أسباب التقاطع في العشيرة والقبيلة، والمساكن عدو للمُسْكِن، والفقير عدو للغني، وكذلك الماشي والراكب، وكذلك الفحل للخصي، وبغضاء السُّوق موصولة بالملوك، وكذلك الوصلة بالمال الرغيب، وكذلك الوارث والموروث. وقال: كم فرق بين غناء فم تشتهي تقبيله، وبين غناء فم تريد أن تصرف بصرك عنه. وقال: جهد البلاء أن تظهر الخلة، وتطول المدة، وتعجز الحيلة، ثم لا تعرف أخًا صارمًا، وابن عم شامتًا، وجارًا كاشرًا، ووليًّا قد تحول عدوًّا، وزوجة مختلفة، وجارية متعبة، وعبدًا يحقرك، وولدًا ينهرك.

وقال: وهلاك من هلك من الأمم فيما سلف بحب الرياسة، وكذلك من يهلك إلى انقضاء الدهر فبحب الرئاسة.

هلاك الناس مذ كانوا ... إلى أن تأتي الساعة
بحب الأمر والنهي ... وحب السمع والطاعة

وقال في نفسية الأغنياء: وبعد فلا يخلو صاحب الثروة، والصامت الكثير، الخامل الذكر، من أن يكون ممن يرغب في المركب الفاره، والثوب اللين، والجارية الحسنة، والدار الجيدة، والمطعم الطيب؛ أو يكون ممن لا يرغب في شيء من ذلك، فإن كان لا يرغب في هذا النوع كله، ولا يعمل في ماله للدار الآخرة، ولا يعجب بالأُحدوثة الحسنة، ويكون ممن لا تعدو لذته أن يكون كثير الصمت، فإن هذا حمار، وأفسد طبعًا من الحمار، وأجهل من الحمار، وقد رضي أن يكون في حالة أسوأ حالًا من الوكيل...

وقال في نفسية بعض النصارى في عهده: ووقع بين فتى من النصارى وبين ابن فهريز كلام فقال له الفتى: ما ينبغي أن يكون في الأرض رجل واحد أجهل منك. وكان ابن فهريز نفسه أكثر الناس علمًا وأدبًا، وكان حريصًا على الجثلقة، فقال للفتى: وكيف حللت عندك هذا المحل؟ قال: لأنك تعلم أنا لا نتخذ الجاثليق إلا مديد القامة، وأنت قصير القامة، ولا نتخذه إلا جهير الصوت جيد الخلق، وأنت دقيق الصوت رديءُ الخلق، ولا نتخذه إلا وافر اللحية عظيمها، وأنت خفيف اللحية صغيرها، وأنت تعلم أنا لا نختار للجثلقة إلا رجلًا زاهدًا في الرياسة، وأنت أشد الناس عليها كلبًا، وأظهرهم لها طلبًا، فكيف لا تكون أجهل الناس، وخصالك هذه كلها تمنع من الجثلقة، وأنت قد شغلت في طلبها بالك وأسهرت فيها ليلك.

وقال: من قابل الإساءة بالإحسان فقد خالف الله في تدبيره. التهادي سنة متقلبة ومكرمة متقبلة. إذا وضع الملك بين يديك شيئًا على مائدته فلعله إن لم يقصد كرامتك وإيناسك أن يكون أراد أن يعرف صبر نفسك، فبحسبك أن تضع يدك عليه أو تفتش منه شيئًا، وإنما يحسن التبسط مع الصديق والعشير، فأما الملوك

فيرتفعون عن هذه الطبقة، ومن حق الملك أن لا يحدث على طعامه لا بجده ولا بهزله، وإن حدث فمن حقه أن يُصغى إلى حديثه، والبصر خاشع ولا يعارض.

قال سوار بن شراعة: كنت عند الجاحظ فرآني أكتب خطًّا رديئًا في ورق رديء متقارب السطور، فقال لي: ما أحسبك تحب ورثتك، فقلت: وكيف ذاك؟ قال: لأني أراك تسيء بهم فيما تخلفه.

وقال: رأيت أربعة أشياء لم أرَ مثلهن؛ رأيت سائلًا يسأل في الحمام، ويأخذ مواعيد من فيه إلى أن يخرجوا، ورأيت معلمًا يعلم الصبيان القرآن والصبايا الغناء، ورأيت حجامًا يحجم بنسيئة إلى الرجعة، ورأيت حمالين يحملون جنازة، فكلما أعيوا وضعوا عن رءوسهم إلى أن بلغوا شفير القبر.

وقال: تسعة موجودة في تسعة: الخفة في الصم، والهَوَج في الطوال، والعجب في القصار، والنبل في الرَّبعة، والملاحة في الحُول، والذكاء في الخرس، والحفظ في العميان، والثقل في العُور، والنشاط في العُرج.

ومن كلامه: أجمع الناس على أربع: أنه ليس في الدنْيا أثقل من أعمى، ولا أبغض من أعور، ولا أخف روحًا من أحول، ولا أقود من أحدب.

وقال: إن العرب تمدح الشيء وتذمه، لكنهم لا يمدحون الشيء من الوجه الذي يَذُمونه به من جنس فصاحتهم.

وقال: في الخصيّ عشرة أحوال متضادة؛ لم يخرج من ظهره مؤمن، ولا خَرَج من ظهر مؤمن، وهو أكثر الناس غيرة، وأشدهم قيادة، وهو أضعف الناس معدة، وأشرههم على طعام، وهو أسوأ الناس أدبًا، وهو يعلم الأدب، وهو أغزر الناس

دمعة، وأقساهم قلبًا، وما خلا قط مع امرأة إلا حدثته نفسه أنه رجل، ولا خلا مع رجل إلا حدثته نفسه أنه امرأة.

قال المأمون: ما هُجي إبراهيم بن المهدي فيما ادعاه -من الخلافة- على كثرة هجائه بأشد من قول الجاحظ فيه: «هو خليفة إذا خطب رأى آخر عمله»؛ أي أن مملكته من الصغر ودعوته من الضئولة، بحيث لا تتجاوز رقعة بلاده مدى صوت الخطيب ونظره.

خلوده ومجده:

ويسأل القارئ بعد أن رأى صورة الجاحظ في كثير من مظاهره، ولمست يداه موضع العجب من نبوغه واقتنانه في علمه وأدبه، وهل كان له من بعدُ حظ من الخلود، وإلى أي مدى بلغت تأثيراته في ديار الإسلام؟ ولا بد قبل بحث خلوده أن نتعرف معنى الخلود، ثم ننظر إذا استحق الجاحظ هذه الصفة.

يقول أميرسون الفيلسوف الأمريكي: «إن الكتاب الصالح كالمجتمع الصالح، وإنك إذا أدخلت رجلًا منحطًّا في حلقة جماعة راقين لا ترفعه لأنه ليس منهم، ولن يصبح مساويًا لهم؛ هكذا حال كل مجتمع يحمي نفسه، وأهله واثقون أن هذا الدخيل فيهم، والواغل عليهم، وإن كاثرهم بجسمه، فلن يشركهم بمكانتهم.

يُقاس تأثير الكلام في الجماعات بما انطوى عليه من دقة في الفكر. وإن كتابًا ينبه ذهنك ويُرْهِف حسك، ويسمو بك بصوت فصاحته العالي، ليكتب له في أفكار الناس أعظم الأثر، وليس تأثيره بالسريع، إلا أنه مستديم ثابت. وأنت إذا لم تستفد شيئًا من صفحات هذا الكتاب، ثق أنه سيفنى كما يفنى الذباب من ساعته. الكاتب

هو الذي لا يتقيد بذوق العصر فقط، وإنما يملي ما يملي ورائده الإخلاص. والحجة التي لا تفعل في نفسي فعلًا عمليًّا قد لا تفعل فيك أيضًا.

يقول سدني: انظر في قلبك واكتب. ومن يكتب لنفسه يكتب لجمهور يبقى. فعليك إن أنشأت شيئًا أن تُرضي هواك أولًا، وليعلم الكاتب الذي اهتدى إلى موضوعه بعينيه وأذنيه، لا بقلبه ونفسه، أنه ما استفاد ولا أفاد. ثم إن الكتاب لا يُحكم عليه بما يقدر له من الرواج، ولو أجمع نصف الناس على استحسانه، فهو يفنى إذا خلا من حرارة، والحرارة وحدها تهب الحياة، ونحن إذا انتفخنا حتى تمزقنا، لا نتسامى إلى أكثر مما حصلناه من قدر.

لا دخل للحظ في الشهرة الأدبية، ولا يتوقف صدور الحكم النهائي على كتاب بما يقوله فيه أصحاب الأهواء من القراء، المكثرين من الضجة حوله أوّل نشره، وتحكم على مبلغه من الإجادة محكمة، لك أن تقول: إنها مؤلفة من ملائكة، أو من جمهرة لا تحابيك برشوة، ولا تخافك لبأسك وسلطانك، وهي تقضي وتمنح جلاء المجد وعلاقيته[1] لمن هو خليق بهما. وأمثال هذه الأسفار فقط يحق لها أن تحيا، أما المُذْهَبَة المُعْلمة المعمولة بالرُّقوق المزنية بالنقوش، وإن وزعها صانعها على الوراقين بأسرهم، فإنها تبيد، ولا تُصيب من الرواج أكثر مما لها الحق فيه.

ليس في الأرض أزيد من اثني عشر شخصًا في آن واحد، يقرءون كتاب أفلاطون ويفهمونه. ويتعذر عليك أن تجمع من مجموع قرائه من النقود ما يصح الاعتماد عليه لإعادة طبع كتابه. ومع هذا ترى مصنفه يصل إلى كل جيل لينتفع به هؤلاء الأشخاص القلائل، كأن الله أرسله إليهم مباشرة.

---

(١) الجلاء: ما يخاطب به من الألقاب الحسنة ويمكن إطلاقها على الرتب في العهد الحديث، والعلاقية والجمع العلاقي: الألقاب.

يقول بتلي: ما من كتاب سقط وباد إلا بما حوته دفتاه، ولا يحدد بقاء الكتاب بما نال من حب أو بغض، ولا يخلد إلا بما فيه من قيمة ذاتية، وبما يحمل من حاجات العقل على الدهر.

لا يعرف الرجل العظيم أنه على شيء من العظمة، والعظمة لا يحرزها إلا إذا أتى عليه قرن أو قرنان، لتُكشف للملأ حقيقته. هذا وهو يعمل لأن من واجبه أن يعمل والداعي والبواعث حاكمة عليه، ويومئذ تراه يعظم في العيون، وكل ما انبعث منه يغدو رمزًا عامًا، ومثالًا يقتدى به، حتى ما كان من حركة إصبعه الصغرى، وما تناوله من طعام وإدام، فيمسي بذلك صاحب السلطان الأكبر على العقول، والدهماء تُعجب بطريقته.

قالوا: إن الصورة لا تكذب، والمرء إذا نطق بالحق، بفكر حق، كانت عينه أصفى من السماء، ومتى خالف ذلك وأورد الزور والبهتان، اختلجت عينه وربما أُصيبت بالحَوَل.

وأنَّى لك بمحامٍ لم يقتنع ببراءة موكله أن يُقنع المحكمة لتقضي له بالبراءة؟ هذا القانون يسري على أفكارنا، فنحكم على كل أثر بالفكر الذي عرض للمؤلف، يوم أنشأ ما أنشأ من بنات أفكاره. وهيهات أن نقول قولًا صحيحا أبدًا في الحكم على كل شيءٍ، ولو استظهرناه وتدراسناه، ولن يتطال المرء إلى مكانة لا يستحقها، وباطل أن نحاول معرفة ما يقول الناس فينا، وباطل كل الباطل تخوفنا من أن لا نُعرف. ومتى أيقن المرء أنه يحسن شيئًا، وأنه يبذُّ فيه غيره في باب الاستحسان، فليثق أن جميله معترف به، وإحسانه مقدور قدره، في كل زمان ومكان. العالم مليء بالأحكام، وإلى أي مجلس اختلف المرء، وفي كل عمل حاوله، لا يُكال إلا بقدره، ولا يُعَلّم إلا بميسَمَه.

قد تقوم للدعوى قائمة، وهي تعجز عن الوفاء بعمل عظيم، وما كانت الدعوى يومًا خليقة بإتمام أمر يُلابس عظمة حقيقية. فبالدعوى لم تكتب الإلياذة، وبالدعوى لم يُكسر كسرى، وبالدعوى لم يستجب الناس لرسالة المسيح، وبالدعوى لم يُلغ الرقيق. الفضائل تقدر بأثرها، وعلى قدر الصلاح تكون الحرمة، والناس سواءٌ في احترام الفضيلة. وأساتذة الإنسانية هم أصحاب طبقة الكرماء المخلصين، أرباب الأفكار العالية، يفرضون عليها ما يريدون بثه، ويحاولون الدعوة إليه. وما ضاعت كلمة طيبة قط، وما سقط مجد ولا كرم، من دون أن يلتقطها قلب ما كان له أن يتوقعها، فيبارك عليها ويقدسها. وقيمة المرء ما يحسن، وما يحسنه منقوش على سيماه وينمُّ عليه ظاهره، وما رُزق من سعادة، ولن يفيده التواري، كما لا ينفعه التبجح والتنفج[1]».

هل انطبقت هذه الصفحة في شروط الخلود على الجاحظ؟ وهل له بعد هذا أن يعد في الخالدين بما ألّف وصنف؟ نعم انطبقت عليه لاشتهاره يوم بدا للأبصار نبوغه، وكمُلت له العظمة قبل أن يأتي عليه قرن أو قرنان، وهذا مستغرب في عصر ليس فيه مطابع ولا جرائد ولا مجلدات ولا قطارات ولا بواخر ولا طيارات، ولا برق ولا هاتف ولا مذياع.

خاض الجاحظ عباب أبحاثه بقلبه ونفسه، لا بعينيه وأذنيه فقط، فاستفاض صيته ووصل صوته إلى أبعد مدى؛ لأنه قام أحسن قيام بما يجب عليه لأمته، ووجب عليه معاناته في دهره، وتداول قومه مصنفاته وهو في الكهولة، وعرفت القاصية والدانية تفوقه على غيره من المؤلفين، وأدرك ذوو البصائر أن كتبه تحمل

(١) التنفج: المتكبر كالمتنفج. والتبجح: الافتخار والمباهاة.

علمًا كثيرًا؛ ذلك لأنه أرضى نفسه بما كتب، فأرضى أمته وأخذ بمجامع قلبها، والسلطان يومئذ سلطان العلم والأدب، لا سلطان الثرثرة والدعوى.

تضمنت كتب الجاحظ حاجات العقل على وجه الدهر؛ لأنها ابنة العقل الناضج، وربيبة الروية والتفكير الصحيح، قصد بها التعليم والإرشاد، لا الفساد والإفساد، وقدّر له بها من الإعجاب، ما لم يكتب لمليٍّ ولا لذمي من العلماء مثله، ففي المليين مئات، وفي الذميين عشرات، كانت لهم الحظوة عند العامة والخاصة، تحفهم رعاية الأمراء والخلفاء، فتقدمهم الجاحظ في السبق، وهو الزاهد حق الزهد فيما تواطأ الناس على إعظامه من المظاهر الخلابة.

كان -والحق يقال- إنسانا كاملًا أخذ من المادة بقدر ما ضمن له عيشه، وما أسفَّ إلى ما يسفُّ له أكثر طبقته من العلماء؛ ولو كان للدنيا هوى كبير من نفسه لمتّع في قصور الخلفاء بكل ما تطمع فيه، ولكن هدفه كان أسمى من كل هذا؛ كان صاحب فكر، همّه نشره لنفع العالمين؛ في دور كان حملة الرأي والرواية من معاصريه بين عالم دين يُصِمُّ أذنه عن علوم الدنيا، أو عالم مادة لا يحسن شيئًا كثيرًا من علم الدين، فجمع الجاحظ بن المطلبين، حتى كثر المعجبون به من كل صنف، وما استطاع حساد فضله أن يطفئون نوره، ولا أن يُعموا على الناس أمره، لما أدرك المنصفون أنه على صفات قلَّ أن يدانيه فيها أحد، وعلى ما كان عليه أرباب المذاهب في أشد أعصار حماستهم، وتصلبهم في آرائهم، جادلهم فأحسن جدالهم بأدب لا غرور فيه، وتفنن ما شاءت له الإجادة في ضروب من القول، وما كان يضيره سخف السخفاء ممن تعذرت عليهم مداناته؛ فوضع صفحته للحق، وحاورهم قائمًا بالواجب عليه نحوَ دعوته وملته، فتم له ما أراد لما نفذ قوله إلى أعماق القلوب والعقول، بما خص به من نَفَس طويل، وإبداع جزيل.

نعم، نفذ الجاحظ بما كتب إلى القلوب والعقول، لأنه لم يكتب كأفلاطون ألغازًا ومعميات يتعذر حلها، فبقي كلام الحكيم اليوناني -على ما قال أميرسون- مقصور الفهم على اثني عشر شخصًا في كل جيل، وكتب الحكيم العربي السهل الممتنع الذي يفهمه كل من يقرأوه، فأسرع كل ذلك في خلوده. وبعد فإن الجاحظ موهوب، رُزق القبول من القلوب، وشاع ما كتب في كل صقع وكل قرن، وكلما كررتَ كلامَه حلا، وكلما تدبرت أسلوبه نفعك، وهل أعظم في باب الخلود من بنات أفكار تتناقل خلفًا عن سلف أحد عشر قرنًا، ثم لا نرى الجميع إلا معجبين مستفدين، بما أثر عن عَلَم الأعلام ومقدم المخلدين.

وإنا إذا استقر بنا ما قاله أولياء الجاحظ وخصماؤه فيه، لا يتعذر علينا أن نضعه في الدرجة التي بلغها. قيل لأبي العيناء الراوية الأخباري: ليت شعري أي شيء كان الجاحظ يحسن؟ فقال: ليت شعري أي شيء كان الجاحظ لا يحسن؟ ويقول المسعودي: «لا يعلم أحد من الرواة وأهل العلم أكثر كتبًا من الجاحظ، وقد كان أبو الحسن المدائني كثير الكتب، إلا أن أبا الحسن المدائني كان يؤدي ما سمع، وكُتب الجاحظ تجلو صدأ الأذهان، وتكشف واضح البرهان؛ لأنه نظمها أحسن نظم، ورصفها أحسن رصف، وكساها من كلامه أجزل لفظ. وكان إذا تخوف ملل القارئ وسآمة السامع، خرج من جد إلى هزل، ومن حكمة بليغة إلى نادرة طريفة، ولا يعلم ممن سلف وخلف من المعتزلة أفصح منه».

وقال ثابت بن قُرة الصابي وهو ممن عاصروا الجاحظ، ومن أكبر فلاسفة العباسيين وأكثرهم إجادة في تأليفاتهم: ما أحسد الأمة العربية إلا على ثلاثة أنفس: أولهم عمر بن الخطاب، والثاني الحسن البصري، والثالث الجاحظ. وقال فيه: «إنه

خطيب المسلمين، وشيخ المتكلمين، ومِدْره[١] المتقدمين والمتأخرين، إن تكلم حكى سحبان وائل، وإن ناظر ضارع النظّام في الجدال، وإن جد خرج من مَسك[٢] عامر بن عبد قَيس، وإن هزل زاد على مُزَبِّد: حبيب القلوب، ومراح الأرواح، وشيخ الأدب، ولسان العرب، كُتبه رياض زاهرة، ورسائله أفنان مثمرة، ما نازعه منازع إلا رشاه آنفًا، ولا تعرض له منقوص إلا قدم له التواضع استبقاء، الخلفاء تعرفه، والأمراء تصفه وتنادمه، والعلماء تأخذ عنه، والخاصة تسلم له، والعامة تحبه، جمع بين اللسان والقلم، وبين الفطنة والعلم، وبين الرأي والأدب، وبين النثر والنظم، وبين الذكاء والفهم؛ طال عمره، وفشت حكمته، وظهرت خلّته، ووطئ الرجال[٣] عقبه، وتهادوا أدبه، وافتخروا بالانتساب إليه، ونجحوا بالاقتداء به، لقد أُوتى الحكمة وفصل الخطاب».

هذه ثلاث شهادات في الجاحظ: الأولى لرجل عاصره وعرفه عن أَمم، والثانية لعالم جاء بعده وشهد فيه هذه الشهادة، شهادة شيعي في معتزلي والثالثة لصابي النحلة وشهادته شهادة بريء من الغرض. وإذا حدثت نفسك بأن هذه الشهادات قليلة نورد لك غيرها، الأولى للمرْزُباني من أئمة الأدب جاء فيها: «إن الجاحظ كان وأسع العلم بالكلام، كثير التبحر فيه، شديد الضبط لحدوده، ومن أعلم الناس به وبغيره من علوم الدين والدنيا، وإن له كتبًا كثيرة مشهورة جليلة في نصرة الدين، وفي حكاية مذهب المخالفين، والآداب والأخلاق، وفي ضروب من الجد والهزل، وقد تداولها الناس وقرءوها، وعرفوا فضلها. قال: وإذا تدبر العاقل

---

(١) المدره، كمنبر: السيد الشريف والمقدم في اللسان واليد عند الخصومة والقتال.

(٢) المسك: الجلد.

(٣) يقال: فلان موطأ العقب؛ أي له سلطان يتبع وتوطأ عقبه. والخلة: الخصلة، والخلة أيضًا: الطريق والسبيل وهو أولى هنا.

المميز أمر كتبه علم أنه ليس في تلقيح العقول، وشحذ الأذهان، ومعرفة أصول الكلام وجواهره، وإيصال خلاف الإسلام، ومذاهب الاعتزال إلى القلوب كتب تشبهها؛ والجاحظ عظيم القدر في المعتزلة وغير المعتزلة من العلماء الذين يعرفون الرجال ويميزون الأمور».

والشهادة الثانية لأبي حيان التوحيدي وقد ألف فيه كتابًا سماه «تقريظ الجاحظ» ومما قاله فيه: اتفق أهل صناعة الكلام أن متكلمي العالم ثلاثة: الجاحظ، وعلي بن عبيدة[1]، وأبو زيد البلخي، فمنهم من يزيد معناه على لفظه، وهو علي بن عبيدة، ومنهم من توافق لفظه ومعناه وهو أبو زيد؛ قال: قلت لأبي محمد الأندلسي، وكان من عدد أصحاب السيرافي: قد اختلف أصحابنا في مجلس أبي سعيد السيرافي في بلاغة الجاحظ، وأبي حنيفة صاحب النبات، ووقع الرضا بحكمك فما قولك؟ فقال: أنا أُحقر نفسي عن الحكم لهما أو عليهما. فقال: لا بد من قول. قال: أبو حنيفة أكثر ندارة، وأبو عثمان أكثر حلاوة، ومعاني أبي عثمان لائطة[2] بالنفس، سهلة على السمع، ولفظ أبي حنيفة أعذب وأعرب، وأدخل في أساليب العرب. قال أبو حيان: والذي أقوله وأعتقده، وآخذ به وأستهم[3] عليه، أني لم أجد في جميع من تقدم وتأخر ثلاثة لو اجتمع الثقلان على تقريظهم ومدحهم ونشر فضائلهم في أخلاقهم وعلمهم ومصنفاتهم ورسائلهم، مدى الدنيا إلى أن يأذن الله بزوالها، لما بلغوا آخر ما يستحقه كل واحد منهم؛ أحدهم هذا الشيخ الذي أنشأنا له هذه الرسالة،

---

(١) علي بن عبيدة الريحاني المتكلم صاحب التصانيف، قال ياقوت: من الناس من يفضله على الجاحظ في البلاغة وحسن التصنيف.

(٢) لاط الشيء بقلبي يلوط ويليط لوطًا وليطًا: حبب إليه وألصق.

(٣) استهم الرجلان: تقارعا.

وبسببه جُشمنا هذه الكلفة؛ أعني أبا عثمان عمرو بن بحر، والثاني أبو حنيفة الدينوري، والثالث أبو زيد أحمد بن سهل البلخي.

والشهادة الثالثة شهادة أمير المؤمنين المأمون، قالوا: لما نظر المأمون في كتاب الجاحظ في العباسية، وكان اليزيدي أدخله عليه، دعا بالجاحظ فقال: يا عمرو قد كان من يُرتضى عقله، ويصدق خبره، ألقى إليَّ صفة هذا الكتاب، فكنت أرى الصفة عيانًا، فلما حضر العيان أربى على الصفة، ولما فُلي أربى الفَلْي على العيان، كإرباء العيان على الصفة. وهو كتاب ينوب عن حضور الصاحب، ويجلُّ عن الحاجة إلى المحتجين له، جامع لاستقصاء المعاني واستيفاء الحقوق، بلفظ جزل، ومخرج سهل، سوقي ملوكي، خاصي عامي. قال الجاحظ: فوالله لما أفدته من تعلم صفة هذا الكتاب آثر عندي من الكتاب.

وعلى الجملة فالشهادات كثيرة على نبوغ الجاحظ وأنه كان (نسيج وحده في جميع العلوم). قال الصفدي: من وقف على كتاب الحيوان وغالب تصانيفه، ورأى فيها الاستطرادات التي استطردها والانتقالات التي ينتقل إليها، والجهات التي يعرض بها في غضون كلامه.بأدنى ملابسة، علم ما يلزم الأديب وما يتعين عليه من مشاركة المعارف. ولما ذكر الذهبي في النبلاء تجويد الجاحظ في كتاب النبوات ترحم عليه، وقال: «فكذلك فليكن المسلم» مع أنه من خصومه في المذهب. وقال ابن سنان الخفاجي: «فكأنه في كل علم يخوض فيه لا يعرف سواه ولا يحسن غيره».

حدث أبو القاسم السيرافي قال: حضرنا مجلس الأستاذ الرئيس أبي الفضل بن العميد فقصر[1] رجل بالجاحظ وأزرى عليه، وحَلُم الأستاذ عنه. فلما خرج قلت له: سكَتَّ أيها الأستاذ عن هذا الجاهل في قوله، مع عادتك بالرد على أمثاله. فقال:

(١) قصر به: أزرى به وحقره.

لم أجد في مقابلته أبلغ من تركه على جهله، ولو واقفته وبينت له، لنظر في كتبه وصار إنسانًا؛ يا أبا القاسم (كتب الجاحظ تعلم العقل أولًا والأدب ثانيًا). وكان ابن العميد يقول: ثلاثة علوم، الناس كلهم عيال فيها على ثلاثة أنفس؛ أما الفقه فعلى أبي حنيفة لأنه دوَّن وخلد ما جعل من يتكلم فيه بعده مشيرًا إليه ومخبرًا عنه، وأما الكلام فعلى أبي الهذيل، وأما البلاغة والفصاحة واللسن والعارضة فعلى أبي عثمان الجاحظ.